روايات الهلال

ألف شبح وشبح



الكسندر دوماس

روايات الهلال

Reway.. Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٢٥ - يناير ١٩٧٦ - محرم ١٣٩٦
No. 325 — January 1976

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى جمهورية مصر العربية ١٢٠ مليما . عن الكميات المرسلة بالطائرة - فى سوريا ولبنان ١٥٠ قرشا ، فى الاردن ١٥٠ فلسا ، فى العراق ٢٠٠ فلس - فى الكويت ٢٢٥ فلسا - فى السعودية ٢ر٥ ريال سعودى

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشا صاغا - فى سائر انحاء العالم ٦ دولارات او ٢ر٥ جك والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى . والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بالقاهرة
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الغـــلاف بريشـــة
الفنان جمـال قطب

ألف شبح وشبح

بقلم

الكسندر دوماس

ترجمة

أحمد رضا

دار الهلال

شارع ديانا "ببلدة فونتناى أوروز"



(١) شارع « ديانا » ببلدة « فونتناى أوروز »

فى أول سبتمبر عام ١٨٣١ دعانى صديق قديم ، يعمل مديرا لمكتب الخاصة الملكية الى افتتاح موسم الصيد مع ابنه فى « فونتناى أوروز » ؟ وكنت أعشق الصيد فى ذلك الأوان . ولما كنت صيادا بارعا ، كان اختيار المكان المناسب عنده لافتتاح موسم الصيد فى كل عام من الأمور التى أهتم لها كثيرا . وقد اعتدنا النزول فى دار أحد المزارعين ، وهو صديق لصهرى ، كنت قد تعلمت عنده فنون الصيد ، بدأتها بقتل أرنب برى ، وتقع مزرعته بين غابات « كومييين » و « فيليركوتيريه » على بعد نصف فرسخ (حوالى كيلومترين) من قرية « مورينفال » الجميلة ، وفرسخ واحد من خرائب « بييريفون » الرائعة . وتمتد مزارعه الشاسعة فى سهل واسع تحيط به الغابات من جميع الجهات تقريبا ، يقطعها فى حوالى منتصفها واد جميل ، تظهر عند أطرافه بين المراعى الخضراء والاشجار المتنوعة الألوان منازل متناثرة تكاد تختفى بين غصون الاشجار ، فلا يكشف عن وجودها سوى أعمدة الدخان الضارب الى الزرقة التى ترتفع رأسيا صوب السماء ، تطوقها الجبال ، حتى تصل الى طبقات الهواء العليا فتميل مع الريح ، وتتسع حتى تبدو كأعالى أشجار النخيل .

كانت حيوانات الصيد ، فى هذا السهل وعلى جوانب هذا الوادى تمرح كأنها فى أرض مشاع ، وكان منها فى سهول « براسوار » كل الأنواع ، من ماعز ، ووعل ، وديك برى ، على مدى الغابات ، وأرانب فى السهول المرتفعة والمنحدرات ، والديك الرومى حول المزرعة .

وكان السيد « موكيه » ، صديقنا هذا ، على ثقة من وصولنا

عنده ، ومن ثم نمضى النهار بطوله نصطاد ، ثم نعود الى باريس فى حوالى الساعة الثانية من اليوم التالى بعد أن نكون قد قتلنا - ونحن أربعة أو خمسة من الصائدين - مائة وخمسين رأسا من الصيد ، وعبثا نحاول أن نحمل مضيفنا على قبول واحد منها .

ولكنى تخليت هذا العام عن السيد موكيه ، ورضخت لالحاح زميلى السابق بالمكتب ، بعد أن استهوتنى صورة أرسلها الى ابنه ، وهو طالب ممتاز بمدرسة روما ، تمثل منظرا لسهل « فونتناى أوروز » بأعشابه الملأى بالأرانب ، والديك الرومى . ولم أكن من قبل قد ذهبت الى فونتناى أوروز ، وكنت أشد الناس جهلا بضواحى باريس ، فلم أعبر حدودها لأبعد من خمسة أو ستة فراسخ على الأكثر ، لذلك كان كل ما أصادفه فى طريقى يثير فضولى .

وبدأت رحلتى الى فونتناى فى الساعة السادسة مساء ، وكنت أطل برأسى كعادتى من نافذة العربة ، فعبرت حدود أنفير ، والى يسارى شارع « مقبرة ايسوار » ، ودلفت العربة الى شارع أورليان . ومن المعروف أن « ايسوار » هو اسم قاطع طريق مشهور فى عهد جوليان كان يسلب المسافرين القاصدين الى لوتيس ، وفى اعتقادى انه شنق أخيرا ودفن فى الموضع المسمى الآن باسمه على مسافة ما من مدخل « كاتاكومب » .

ويبدو السهل المتسع فى بداية تل « بيتى مون روج » غريب المنظر . ففى وسط المروج المزروعة ، وحقول الجزر ، ومصاطب انبنجر ، ترتفع مبان كالطوابى المربعة ، من حجارة بيض ، تشرف عليها عجلة مسننة شبيهة بهيكل الصواريخ النارية الخامدة ، على محيطها عارضتان خشبيتان يقف عليهما رجل ، ويضغط عليهما بقدميه ، الواحدة بعد الاخرى . والقصد من هذا العمل الشبيه بحركة السنجاب ، والذى يبدو به العامل وكأنه يتحرك حركة كبيرة دون أن يغير مكانه بالفعل ، هو لف حبل حول قب الدولاب (بطيخة العجلة) الذى يدور حول نفسه فيرفع الى سطح الارض قطعة من الحجر نحتت فى قاع المحجر ، يرفعها على مهل حتى

تخرج من الظلمـــات السفلى الى النور . ويتولى خطاف سحب الحجر حتى فوهة المحجر حيث تنتظره اسطوانات تنقله الى المكان المهيأ له ، ثم يعود الحبل فيهبط الى الاعماق ليلاقى حجرا آخر ، فيتيح دقيقة من الراحة لاكسيون (١) العصرى ، حتى يسمع صيحة تعلنه بأن حجرا آخر ينتظر ان ينقل من موضعه الاصلى فى المحجر، ومن ثم تتكرر العملية السـابقة مرة بعد مرة ، وهكذا دواليك . فاذا أقبل المساء يكون الرجـل قد تحرك عشرة فراسخ دون أن يبرح مكانه ، فلو انه ارتفع بالفعل درجة واحدة كلما وطأت قدمه احدى العارضتين الخشبيتين ، لبلغ القمر فى ثلاث وعشرين سنة .

وفى المســاء ، أى فى الســاعة التى اجتزت فيها السهل الذى يفصل « الجبل الاحمر الـكبير » (جران مون روج) عن « الجبل الاحمر الصغير » ، يتخذ المنظر الطبيعى مظهرا خياليا ساحرا ، بفضل هـــذا العدد اللانهائى من العجلات الدوارة التى تبرز بوضوح شـديد على الافق الملتهب ، فما أشبهه بنقش من نقوش « جويا » حيث يبدو بألوانه المتفاوتة بين النصوع والدكنة بعض الرجال وهم ينزعون أسنان المشنوقين .

وفى حوالى السابعة تتوقف العجلات ، وينتهى النهار .

هذه الاحجار ، وهى مربعات ضخمة يبلغ طول كل حجر منهـا من خمسين الى ستين قدما وارتفاعه من ستة الى ثمانية أقدام ، هى مدينـة باريس المستقبلة ، يستخرجونها الآن من الارض . أما المحاجر التى تستخرج منها هـذه الاحجار فانها تتسع باطراد : تلك هى الـكاتاكومب (أى سراديب الموتى) التى خرجت منهـا باريس القديمة ، وتشكل ضـواحى المدينـة الـكائنة تحت الارض والتى تتسع وتمتد . فاذا سار الانسان فى سهل « المون روج » هـذا فانه يسير فوق مهاو . ومن وقت لآخر يصـادف الانسان تجويفا بالارض ، واديا صغيرا أو تغضنا فى التربة ، فذلك محجر دعائمه واهنة ، قد تـكسر سقفه الجصى بعد أن تكون فيه شرخ نفذت منه الميـاه حتى الـكهف ، فانهارت الارض .

---

(١) ملك اللابيث ، اواه جوبيتر فى الاوليمب ، ولكنه اساء الادب مع جينون زوجة جوبيتر فحكم عليه ان يشد الى عجلة مشتعلة تدور ويدور معها أبد الاباد — المترجم .

فاذا لم يكن الانسان على علم بهذه الحقيقة ، وكان يجهل ان هذه الطبقة الجميلة من التربة الخضراء التى تجذب الانظار لا تستقر على أثاث ثابت ، ووطأ بقدمه أحد هذه التشققات ، فانه لا يلبث أن يهوى ويختفى ، كما يختفى الناس فى « مونتانفير » بين جدارين من الثلج .

وللقوم الذين يعيشون فى هذه الدهاليز السفلى طبائعهم وسماتهم التى تتمشى مع أسلوب معيشتهم . ولما كانوا يعيشون فى الظلمات ، كانت لهم غرائز حيوان الليل ، أى انهم شرسون صامتون ، وكثيرا ما يصل الى أسماعنا حوادث تقع بينهم : دعامة تسقط ، وحبل ينقطع ، ورجل ينسحق . ونحن الموجودين على سطح الارض ، نحسب مثل هذه الحوادث من صروف الايام ، ولكنها تعتبر ، على عمق ثلاثين قدما ، من قبيل الجرائم .

أما مظهر رجال المحاجر فانه بوجه عام قبيح مشئوم . ففى النهار ترف عيونهم ، وفى الهواء تبدو صماء أصواتهم ، وعلى رءوسهم شعور مرسلة ، متهدلة من الامام حتى الحاجبين ، ولهم لحى لا تصافحها الموسى الا فى صباح كل أحد . ويرتدون صدرة تكشف عن أكمام من تيل رمادى سميك ، وازارا من جلد قد ابيض لونه من كثرة احتكاكه بالحجر ، وسراويل من تيل أزرق . وعلى أحد الكتفين سترة مطوية طيتين ، تستقر عليها يد الفأس التى تنحت الحجر ستة أيام فى الاسبوع .

فاذا وقع بين الناس أى شغب ، لم يتورع هؤلاء الرجال الذين صورناهم آنفا عن الاشتراك فيه . وعندما يقال عند سور «انفير» : « ها قد جاء رجال محاجر مون روج » يهز سكان الشوارع المجاورة رءوسهم ويغلقون أبواب بيوتهم .

هذا ما شهدته خلال ساعة الغسق التى تفصل الليل عن النهار فى شهر سبتمبر . فلما جن الليل ، ألقيت بنفسى داخل العربة ، ولم يكن أحد من ركابها قد رأى شيئا مما رأيته منذ هنيهة . وهكذا الحال فى كل الأمور : الكثير ينظرون ، والقليل يبصرون .

وفى حوالى الثامنة والنصف وصلنا الى « فونتناى » ، وكان فى

انتظارنا عشاء فاخر . وبعد العشاء مضينا نتنزه فى الحديقة .

و«سورنت» غابة من أشجار البرتقال ، أما فونتناى فانها باقة من الورود ، وفى كل منزل شجيرات ورد تمتد على طول الحائط يدعمها عند قاعدتها صندوق من ألواح خشبية . وحين نبلغ شجيرة الورد ارتفاعا معينا تتفتح على شكل مروحة عظيمة ، فيتعطر الهواء الذى يتخللها ، واذا هبت ريح تساقطت أوراق الورد كقطرات المطر ، مثلما كانت السماء تمطر وردا فى عيد الآلهة ، حين كانت للآلهة أعياد .

ولو كانت الدنيا نهارا ، لشاهدنا منظرا متراميا ، ولدلتنا الأنوار المتناثرة فى الفضاء على قرى (دى سو ، وبانيو ، وشاتيون ، ومونروج) ، ويمتد فى الوسط خط طويل ضارب الى الحمرة ترتفع منه همهمة كفحيح الافاعى : تلك هى أنفاس باريس. وأجبرنا القوم على الرقاد ، كما يفعل الناس مع الاطفال . وطاب لنا تحت هذه السماء البديعة المطرزة بالنجوم ، وفى ملامسة هذا النسيم المعطر ، أن نترقب طلوع النهار .

وبدأنا الصيد فى الساعة الخامسة صباحا ، بارشاد نجل مضيفنا الذى بذل لنا الوعود الخلابة ، وراح يتباهى بكثرة حيوان الصيد فى أراضيه ، الأمر الذى يبشر بنتائج طيبة للغاية . وعند الظهيرة لمحنا أرنبا وديكا روميا ، ولكن الارنب أفلت من زميلى الذى كان الى يمينى ، كما أفلت الديك الذى كان الى يسارى ، أما الديكة الثلاثة الاخرى فقد قتل منها اثنان ، فى حين اننى كنت فى « برسوار » أرسل الى المزرعة فى الظهر ثلاثة أو أربعة أرانب وخمسة عشر أو عشرين ديكا .

اننى أحب الصيد ، ولكنى أكره التجول ، وبخاصة فى الحقول ، ومن ثم تظاهرت بالمضى لاستكشاف حقل برسيم يمتد الى يسارى ، كنت على ثقة من أننى لن أجد فيه شيئا أصيده ، وهكذا ابتعدت عن رفاقى وسرت وحدى .

وكان الشىء الذى أثار فى نفسى الرغبة فى الانسحاب منذ أكثر من ساعتين طريقا أجوف لمحته فى هذا الحقل ، يحجبنى عن أنظار سائر الصيادين ، ويعود بى مباشرة الى فونتناى أوروز عن طريق

« دى سو » ولم أخطىء التقدير ، فعندما دقت ساعة كنيسة القرية الواحدة ، كنت قد وصلت الى أول منازل القرية ، سائرا بحذاء حائط خلته يحيط بضيعة جميلة . ووصلت الى موضع يتقابل فيه شارع « ديانا » مع الشارع الكبير ، واذا بى أرى شخصا قادما من ناحية الكنيسة ، وجدته رجلا غريب المظهر ، فتوقفت بحكم الفريزة ، وأعددت طلقتى بندقيتى مستجيبا لشعور المحافظة على حياتى . ولكن الرجل مر بالقرب منى دون أن يرانى ، وكان ممتقع الوجه ، أشعث الشعر ، جاحظ العينين ، مشوش الملابس ، يداه مخضبتان بالدماء ، ونظرته جامدة ، يتقدم مندفعا كجسم ينحدر بسرعة من أعلى الجبل . ومع ذلك فان حشرجة أنفاسه كانت تنبىء عن الرعب أكثر مما تدل على التعب . وعند تفرع الطريقين برح الشارع الكبير . واندفع فى شارع ديانا حيث باب الدار التى سرت بجانب حائطها سبع أو ثمانى دقائق وكان هذا الباب الذى استقر عليه نظرى فى اللحظة نفسها مدهونا باللون الاخضر ويعلوه الرقم « ٢ » . وامتدت يد الرجل نحو الناقوس وظلت ممتدة بعض الوقت قبل أن يتمكن من لمسه ، ثم هزه بعنف . ودار على نفسه وجلس على عتب الباب ، وبقى جالسا بلا حراك وذراعاه متدليتان ورأسه مائل على صدره . عند هذا عدت أدراجى اذ أدركت ان الرجل لابد أن يكون قد اقترف أمرا فظيعا لم يعلم به أحد . ومن خلف الرجل أقبل من جانبى الشارع بعض الاشخاص الذين وقع فى نفوسهم بسببه مثل ما وقع فى نفسى ، وجعلوا ينظرون اليه فى دهش شبيه بالدهش الذى تملكنى . وما أن رن الجرس بعنف حتى انفتح باب صغير الى جانب الباب الكبير ، وظهرت خلاله امرأة بين الاربعين والخامسة والاربعين وقالت :

ــ آه ! هذا أنت ياجاكمان ! ماذا تفعل هنا ؟

فأجاب الرجل بصوت أجش :

ــ أسيدى العمدة بالمنزل ؟

ــ نعم ..

ــ حسن أيتها الأم انطوان ، اخبريه اننى قتلت امرأتى ، وأتيت لأسلم نفسى .

عندئذ صـــــدرت من الأم انطوان صيحة رددتها صيحات دهش انتزعها الرعب من حنـــاجر أولئك الذين كانوا قريبين وسمعوا الاعتراف الرهيب . أما أنا فقد خطوت خطوة الى الوراء حتى جذع شجرة زيزفون استندت اليها ، وبقى كل الاشخاص الذين سمعوا الصوت بلا حراك .

أما القاتل فانه انحدر من المقعد الحجرى الى الارض كأنه قد فقد قواه بعد أن نطق بكلماته المشئومة .

وفى هــذه الأثناء اختفت الأم انطوان تاركة الباب الصـــغير مفتوحا ؟ وكان واضحا انها ذهبت تبلغ سيدها الرسالة التى حملها اياها جاكمان . وبعد خمس دقائق ظهر الشخص المطلوب على عتبة الباب يتبعه شخصان آخران .

وما زلت أذكر منظر الشارع .

انحدر جاكمان الى الارض كما قلت ، ووقف الى جواره العمدة ، عمدة « فونتناى أوروز » الذى استقدمته الأم انطوان ، مطلا عليه بقامته المديدة. وعند فتحة الباب تدافع الشخصان اللذان سأتحدث عنهما طويلا بعد قليل . وكنت مستندا الى جذع شجرة زيزفون فى الشارع الـكبير ، فأرسلت نظراتى الى شـــارع ديانا . وكان الى يسارى جماعة مكونة من رجل وامرأة وطفل ، والطفل يبكى حتى تضمه أمه بين ذراعيها ، والى الخلف خباز يطل برأسه من نافذة بالدور الاول ويخاطب صبيــه فى الطابق السفلى ، يسأله عما اذا كان الشـــخص الذى مر راكضـــا منـــذ برهـــة هو بعينـــه « جاكمان » عامل المحاجر . وظهر أخيرا حداد على باب دكانه ، جسمه من الامام مظلم ، ومن الخلف مضاء بنور الفرن الذى كان الصبى يواصل تشغيل منفاخه .

هذا ما كان من أمر الشارع الـكبير .

أما شـــارع ديانا فانه كان مقفرا فيما عدا الحشد الرئيسى الذى وصفته آنفا . وفى طرف الشارع ظهر شرطيان عائدان من دوريتهما فى السهل حيث كانا يراجعان رخص حمل السلاح ، وجعلا يقتربان معا بخطوة هادئة منتظمة ، وهما خاليا البال من المهمة التى كانت فى انتظارهما .

ودقت الساعة الواحدة والربع .

زقاق الشرطة



(٢) زقاق الشرطة

اختلطت آخر ذبذبة لرنين الجرس بصوت العمدة وهو يوجه أول كلامه الى جاكمان :

ــ جاكمان ، ارجو أن تكون الأم انطوان قد جنت ، فانها أتت كطلبك تخبرنى أن زوجتك قد ماتت ، وانك أنت الذى قتلتها !

ــ هذه هى الحقيقة الخالصة ياسيدى العمدة ، ولابد من اقتيادى الى السجن ومحاكمتى بسرعة .

وحاول أن ينهض وهو يتكلم ، متكئا بكوعه على النتوء الحجرى ، ولكنه سقط ثانية كما لو كانت عظام ساقيه مهشمة . فقال العمدة :

ــ هذا غير معقول ! أنت مجنون .. !

ــ أنظر الى يدى ..

ورفع يديه المخضبتين بالدماء بأصابعهما المتقلصة ، وكأنهما مخلبان . وكانت يده اليسرى فى الواقع حمراء الى المعصم ، وكذا اليمنى حتى الكوع . وفضلا عن ذلك كانت شبكة من الدم الحار تسيل على طول الابهام ، ناتجة بلا ريب من عضة الضحية وهى تقاوم القاتل . وفى هذه الاثناء اقترب الشرطيان ثم توقفا على بعدعشر خطوات من الشخصية الرئيسية لهذا المشهد ، ونظرا اليه من فوق جواديهما ، فأشار اليهما العمدة فنزلا وألقيا بأعنة الجوادين الى غلام على رأسه قبعة الشرطة ، واقتربا من جاكمان ورفعاه من تحت الذراعين ، فتركهما جاكمان يفعلان ما يريدان دون أن يبدى أية مقاومة ، وقد وهنت قواه ، كمن سيطرت عليه فكرة واحدة . وفى الوقت نفسه وصل رئيس الشرطة والطبيب ، وكانا قد أخطرا للتو بما حدث ..

قال العمدة :
ـ آه ! تعال ياسيد روبير ، تعال ياسيد كوزان .

وكان السيد روبير هو الطبيب ، والسيد كوزان رئيس الشرطة.
ـ تعاليا ، كنت على وشك أن أستدعيكما .

فاستفسر الطبيب قائلا :
ـ حسن ! ماذا حدث ؟ جريمة قتل عادية على ما يقال ؟
ولم يجب جاكمان بشيء ..

فاسترسل الطبيب قائلا :
ـ قل لنا أيها الأب جاكمان ، أصحيح انك أنت الذى قتل امرأته؟

ولم ينبس جاكمان ببنت شفة ..
فقال العمدة : لقد اتهم نفسه بذلك على الاقل منذ برهة. ومع ذلك أتعشم أن يكون قد قال ما قال فى نوبة هذيان وألا يكون فى الأمر جريمة حقيقية ..
ـ رئيس الشرطة : جاكمان .. أجب ! أحقا قتلت امرأتك ؟
ـ نفس السكون ..
ـ الطبيب روبير : سوف نرى على أى حال . ألا يقطن زقاق الشرطة ؟
ـ الشرطيان : بلى .
فقال الطبيب مخاطبا العمدة : حسن ، ياسيد ليدرو ، هيا بنا الى زقاق الشرطة .
فصاح جاكمان : لن أذهب الى هناك ! لن أذهب الى هناك !

وانتزع نفسه بقوة من أيدى الشرطيين ، ولو شاء لاستطاع أن يفر ، فيغدو على بعد مائة خطوة قبل أن يفكر أحد فى اللحاق به.

وسأله العمدة : ولكن لم لا تريد الذهاب ؟
ـ لا حاجة بى الى الذهاب ، ما دمت قد اعترفت بكل شيء . قلت لكم انى قتلتها ، قتلتها بالسيف الكبير ذى المقبضين الذى أخذته فى العام الماضى من متحف المدفعية . خذونى الى السجن !

فتبادل الطبيب والسيد ليدرو النظرات . وقال رئيس الشرطة وهو ما زال يأمل ، مع السيد ليدرو ، أن يكون جاكمان تحت تأثير اضطراب عقلى طارىء ووقتى : يا صديقى ، لابد من المواجهة

العاجلة ، ومن وجودك هناك لارشاد العدالة .
ـ ما حاجة العدالة الى الارشاد ؟ ســـوف تجدون الجثة في القبو ، وبالقرب منها ، الراس فى ســـلة من الجبس . أما انا فخذونى الى السجن .

رئيس الشرطة : يجب أن تحضر .

فصاح جاكمان وقد استبد به رعب شديد : آه يا الهى ، آه يا الهى ! لو كنت أعلم ..
رئيس الشرطة : حسن ، ماذا كنت تصنع ؟

جاكمان : نعم ، كنت أقتل نفسى .

فهز السيد ليدرو رأسه ، ونظر الى رئيس الشرطة وكأنه يقول له : « هناك شيء هام » . ثم عاد يخاطب القاتل :
ـ هيا يا صديقى ، اشرح لى ذلك ، اشرح لى أنا ..
ـ نعم لك أنت ياسيد ليدرو ، سأشرح كل ما تطلب ، اسألنى أجب .
ـ كيف لا تجد فى نفسك الشجاعة لمواجهة ضحيتك مرة ثانية ، بعد أن اجترأت على قتلها ؟ لابد انه قد حدث شيء لم تذكره لنا ؟
ـ أوه ، نعم ، شيء فظيع ..
ـ حسن ، احك لنا ..
ـ أوه ، كلا ، سوف تقولون انه غير صحيح ، واننى مجنون .
ـ لا أهمية لذلك ، ماذا حدث ؟ قل ..
ـ سأقول لك وحدك ..

واقترب جاكمان من السيد ليدرو ، وأراد رجـلا الشرطة أن يمنعاه ، ولـكن العمدة أشار اليهما فأطلقا سراحه ، اذ لو أراد الفرار لاستحال عليه ذلك لأن نصف سكان فونتناى أوروز قـد ملأوا شـارع ديانا والشـارع الـكبير .

اقترب جاكمان كما قلت من أذن السيد ليدرو وقال بصـوت خفيض :
أتصدق ياسيد ليدرو ان رأسا يتكلم بعد أن ينفصل عن الجسد؟

فصاح السيد ليدرو مندهشا ، وشحب وجهه بشكل واضح .
ـ هل تصدق ذلك ؟ أجب ..

فقال السيد ليدرو بعد جهد : نعم اصدق ..
- حسن ، حسن ! لقد تكلم الراس .
- من ؟
- الرأس .. رأس جان .
- ماذا تقول ؟
- أقول انها ظلت مفتحة العينين ، وحركت شفتيها ونظرت الى .. نظرت الى ونادتنى قائلة .. « أيهاالتعس ! »

وبدا جاكمان مخيفا وهو ينطق بهذه الكلمات التى وجهها للسيد ليدرو وحده ، ومع ذلك سمعها الجميع. وصاح الطبيب ضاحكا :

- يا للمبالغة ، أتكلمت ؟ رأس مقطوع يتكلم !
فاستدار جاكمان وقال : أؤكد لكم ذلك !

وقال رئيس الشرطة : حسن ، هذا سبب آخر يدعونا للتوجه الى مكان الجريمة .. هيا أيها الشرطة خذوا القاتل .

فصاح جاكمان وهو يتلوى : لا ! لا ! قطعونى اربا اذا شئتم ولكن لن أذهب .

السيد ليدرو : تعال أيها الصديق ، اذا كنت قد ارتكبت فعلا هذه الجريمة التى تتهم نفسك بها ، فسيكون فى حضورك غفرانلك.

ثم قال له بصوت خفيض : ثم ان المقاومة لا تجدى ، فاذا رفضت المجىء بنفسك فانهم سوف يأخذونك الى هناك بالقوة .

جاكمان : حسن ، اذن سأذهب ، ولكن عدنى بشىء ياسيد ليدرو ..

- أى شىء ؟
- لا تتركنى أبدا طول الوقت الذى نقضيه فى القبو .
- لن أتركك .
- وتدعنى أمسك يدك .
- نعم ..
- حسن ، هيا بنا !

وأخرج من جيبه منديلا بمربعات وجفف العرق الذى نضح على جبينه . واتجه الجميع نحو زقاق الشرطة ، فتقدم رئيس الشرطة والطبيب الجمع يتبعهما جاكمان والشرطيان ، وخلفهما السيد

ليدرو والرجلان اللذان ظهرا على بابه عند خروجه ، واندفع وراءهم الاهالى كالسيل المتدفق ، وأنا معهم . ووصلنا الى زقاق الشرطة بعد أن سرنا حوالى الدقيقة . والزقاق حارة صغيرة الى يسار الشارع الكبير ، تنحدر حتى باب كبير من خشب متآكل يفتح بمصراعين كبيرين ، وباب صغير يفتح وسط أحد المصراعين ، ولم يعد الباب يرتكز الا على محور واحد .

وفى المنزل بدا كل شىء ساكنا لأول وهلة ، وكان بالباب شجيرة ورد يانعة ، وعلى مقعد حجرى بالقرب من الشجيرة ، جلست قطة كبيرة حمراء تستدفىء فى هدوء تحت أشعة الشمس . وعندما لمحت القطة هـذا الجمع وسمعت كل هذه الجلبة فزعت فهربت واختفت فى فتحة أحد القباء .

وحين وصلنا الى الباب الذى وصفته ، وقف جاكمان ، وأراد الشرطيان أن يدخلاه بالقوة ، فاستدار ناحية السيد ليدرو وقال له:

ــ مسيو ليدرو ، لقد وعدتنى ألا تتركنى .

العمدة : نعم ، هأنذا ..

ــ ذراعك ! ذراعك !

وترنح ، كأنه يوشك أن يسقط . واقترب السيد ليدرو وأشار الى الشرطيين أن يتركا المقبوض عليه ، ثم قدم اليه ذراعه وقال : أنا مسئول عنه. وكان واضحا ان السيد ليدرو لايتصرف فى هذه اللحظة بصفته عمدة المنطقة الذى ينفذ الاجراءات الجنائية بصدد جريمة ارتكبت ، وانما كفيلسوف يرتاد المجهول ، ودليله فى هـذه الرحلة الـكشفية رجل قاتل .

دخل الطبيب ورئيس الشرطة فى المقدمة يتبعهما السيد ليدرو وجاكمان ثم الشرطيان وبعض الاشخاص المميزين وأنا منهم ، بفضل اتصالى بالشرطيين بعد أن تعرفت بهما فى السهل وأطلعتهما على رخصة حمل السلاح . وأغلق الباب دون سائر الاهالى الذين ظلوا فى الخارج يزمجرون . وتقدم الجميع نحو باب المنزل الصغير .

لم يكن هناك ما ينبىء عن الحادث الفظيع ، فقد كان كل شىء فى موضعه : السرير المصنوع من اللبود الاخضر فى المخدع ، وعلى رأس السرير صليب خشبى أسود يعلوه غصن من نبات «البقس»

مجفف منذ عيد الفصح السابق . وعلى المدفاة تمثال من الشمع للمسيح الطفل ، راقدا بين الازهار ، وعلى جانبيه شمعدانان من طراز لويس السادس عشر ، كانا فيما مضى مفضضين ، وعلى الحائط أربعة نقوش ملونة محوطة بأطر خشبية سوداء تمثل أركان العالم الاربعة ، وعلى منضدة ادوات الطعام ، وعلى الموقد غلاية ، وعلى مقربة من ساعة حائطيه تدق كل نصف ساعة وعاء للعجن مكشوف .

قال الطبيب مرحا : حسن ! لا أرى شيئا حتى الآن .

فتمتم جاكمان بصوت أجوف : ادخلوا من الباب الايمن .

وتبع الجميع قول السجين ، ووجدنا أنفسنا فى مكان كالمخزن ، فى زاويته فتحة يتذبذب خلالها ضوء آت من أسفل . وتشبث جاكمان بيده بذراع السيد ليدرو ، وأشار باليد الاخرى الى فتحة القبو متمتما : « هناك ، هناك » فابتسم الطبيب ، ابتسامة رهيبة ينفرد بها أولئك الذين لا يتأثرون بشيء لأنهم لايؤمنون بأى شيء ، وقال لرئيس الشرطة بصوت خفيض : آه ! آه ! يظهر أن مدام جاكمان قد اتبعت سنة السيد آدم ــ وتمتم يغنى :

ان مت فلتدفنونى .. فى القبو حيث ...

فقاطعه جاكمان ، ووجهه شاحب ، وشعره أشعث ، والعرق ينضح من جبينه : صه ، لا تغن هنا !

فسكت الطبيب عند سماعه نبرة هذا الصوت ، ولكنه صاح فى الوقت نفسه ، وقد هبط الدرجات الاولى من السلم : ماهذا ؟ وانحنى ليلتقط سيفا عريض النصل : كان هذا هو السيف ذو المقبضين الذى أخذه جاكمان من متحف المدفعية فى ٢٩ من يولية سنة ١٨٣٠ كما قال من قبل ، وكان النصل مضرجا بالدم ، فتناوله رئيس الشرطة من يد الطبيب وقال للسجين : أتعرف هذا السيف؟

جاكمان : نعم ، دعنا ننته من هذا كله ..

وكان السيف هو الدليل الاول فى الجريمة . ودخلنا القبو بالترتيب الذى سبق ذكره : ففى المقدمة الطبيب ورئيس الشرطة ، ثم السيد ليدرو وجاكمان ، والشخصان اللذان كانا فى داره ، ورجال الشرطة ، ثم الاشخاص المختارون وأنا منهم . وبعد أن

هبطنا الدرجة السابعة جالت عيناى فى أنحاء القبـــو واحاطت بالمجموعة الرهيبة من الاشياء التى ساحاول الآن تصويرها .

فأول ما وقعت عليه الانظار جثة بلا راس ممدة بجوار برميل ذى صنبور نصف مفتوح يسيل منه الى الارض خيط من النبيذ يجرى فى قناة تمتد حتى تختفى تحت جدار القبو . وكانت الجثة ملتوية نصف لوية ، وكأن جذعها حين استدار الى الخلف قد أخذته حركة احتضار لم تستطع الساقان أن تجاريه فيهما ، والرداء قد تشمر من أحـد الجوانب حتى حمالة الجورب . وكان من الواضح ان الضحية قد ضربت وهى راكعة على ركبتيها أمام البرميل تملأ منه زجاجة ما لبثت أن أفلتت من يديها وبقيت ملقاة بجانبها . وكان الجزء العلوى من الجثة غارقا فى بركة من الدماء . ولمحنا الرأس موضوعا على كيس للجبس مسنود الى الحائط ، وكأنه تمثال نصفى قائم على عمود ، غارق فى شعره . وامتد خيط من الدم صـبغ الـكيس باللون الاحمر من أعلاه حتى منتصفه .

وتولى الطبيب ورئيس الشرطة فحص الجثة من كل نواحيهـا ووجدا نفسيهما أخيرا قبالة السلم .

وفى وسط القبو وقف صـديقا السيد ليدرو وبعض الطفيليين الذين تمكنوا من الوصول الى هناك . ووقف جاكمان عند أسفل السلم ، ولم يستطع أحد أن يدفعه الى أبعد من الدرجة الاخيرة . ووقف رجلا الشرطة خلف جاكمان ، ووراءهما خمســة أشخاص أو ستة ، أنا منهم ، تجمعنا فوق السلم . وكان القبو المظلم مضاء بشعاع متذبذب صادر من شمعدان فوق البرميل الذى يسيل منه النبيذ ، وتمتد أمامه جثة امرأة جاكمان .

قال رئيس الشرطة : الى بمنضدة وكرسى ، ولنحرر المحضر .

محضر التحقيق



(٣) محضر التحقيق

أحضر بعضهم الاثاث المطلوب وسلمه الى رئيس الشرطة الذى أحكم وضع المنضدة وجلس أمامها وطلب الشمعدان الذى أحضره الطبيب متخطيا الجثة فى طريقه ، وأخرج من جيبه محبرة وريشة وورقا ، وبدأ فى تحرير المحضر . واذ هو يكتب المقدمة ، التفت الطبيب فى فضول ناحيـة الرأس الموضـوع على كيس الجبس ، ولـكن رئيس الشرطة نبهه قائلا : لا تلمس شيئا ، النظام قبـل كل شىء .

وأجاب الطبيب: « هذا صحيح » ، وعاد الى مكانه .

ومرت دقائق فى سكون لم يكن يتخلله سوى صوت ريشة رئيس الشرطة وهى تئز على ورق الحكومة الخشن ، والسـطور تتعاقبه على الورق بسرعة الـكاتب الذى اعتاد هـذه الصيغ الشكلية . وبعد بضعة سطور رفع رئيس الشرطة رأسه ونظر حوله وسـأل العمدة : من منكم يريد أن يشهد ؟ فأشار العمدة الى صدبقيه الواقفين اللذين كانا ضمن جماعة رئيس الشرطة ، وقال : هذان السيدان أولا .

ـ حسن ! ..

ثم التفت ناحيتى وقال : وهذا السيد ، اذا لم يكن عنده مانع فى ظهور اسمه فى المحضر .

فأجبت : نعم ياسيدى ، لا مانع عندى بالمرة .

قال رئيس الشرطة : اذن فلينزل السيد .

وشعرت بشىء من التقزز عند اقترابى من الجثة . وبدت بعض التفاصيل التى جذبت انتباهى حيث كنت واقفا اقل بشاعة مما

هى فى حقيقتها لأنها كانت غارقة فى شبه ظلام يضفى عليها ثوبا شاعريا .

فسألت : أضرورى هذا ؟

ـ ماذا ؟

ـ أن أنزل ؟

ـ كلا ، ابق حيث انت ان كنت مرتاحا هناك .

فأومأت برأسى بما معناه اننى أريد البقاء فى مكانى .

واستدار رئيس الشرطة صوب أقرب صديقى السيد ليدرو اليه وسأله بطلاقة رجل اعتاد توجيه مثل هذه الاسئلة :

ـ اسمك ولقبك وعمرك وصفتك ومهنتك ومحل اقامتك ؟

ـ جان لوى أليبت المشهور بأتيللا ، من رجال الادب ، أقطن شارع الكوميديا القديمة رقم ٢٠ .

ـ نسيت أن تذكر سنك .

ـ سنى الحقيقية أم السن التى يقدرها لى الناس ؟

ـ قل لى سنك من فضلك ، ليس للانسان سنان .

ـ أريد أن أقول ياسيدى الرئيس ان هناك بعض الناس مثل كاليوسترو والكونت دو سان جرمان واليهودى المتجول ...

فقطب رئيس الشرطة حاجبه اذ حسب الرجل يسخر منه وقال : تريد أن تقول انك كاليوسترو أو الكونت دو سان جرمان أو اليهودى المتجول ؟

ـ لا ، ولكن ...

فقال السيد ليدرو : خمسة وسبعون عاما ، اكتب خمسة وسبعين ياسيد كوزان .

ـ فليكن .

وكتب خمسة وسبعين عاما . ثم خاطب الصديق الثانى للسيد ليدرو :

ـ وأنت أيها السيد ؟

ووجه اليه نفس الاسئلة التى وجهها الى زميله الاول ، فأجابه هذا بصوت رقيق : بيير جوزيف مول ، عمرى واحد وستون عاما ،

من رجال الدين ملحق بكنيسة سان سوبليس ، واقيم بشارع سرفاندونى رقم ١١ .

وسألنى : وانت ياسيدى ؟

ـ الكسندر دوما ، مؤلف قصصى ، عمرى سبعة وعشرون عاما ، اقطن باريس ، شارع الجامعة رقم ٢١ .

فالتفت السيد ليدرو ناحيتى وحيانى بايماءة لطيفة أجبت عليها بمثلها على قدر ما استطعت . وقال رئيس الشرطة : حسن أيها السادة ، انظروا اذا كانت هذه هى الحقيقة ، راذا كان لديكم ملاحظات تريدون ابداءها . وشرع يقرأ بصوته الاخنف الرتيب الذى يتميز به الموظفون العموميون .

فى تاريخه ـ أول سبتمبر عام ١٨٣١ ـ فى الساعة الثانية بعد الظهر ، علمنا أن جريمة قتل قد ارتكبت منذ قليل فى مقاطعة « فونتناى أوروز » وراحت ضحيتها « مارى جان ديكودراى » ، وقاتلها وهو زوجها المدعو بيير جاكمان قد توجه بنفسه الى دار عمدة المقاطعة المذكورة السيد جان بيير ليدرو واعترف له بأنه هو القاتل . وعلى ذلك بادرنا بالذهاب الى محل اقامة جان بيير ليدرو المذكور بشارع ديانا رقم ٢ ومعنا السيد « سباستيان روبير » الطبيب المقيم بالمقاطعة المشار اليها ، فوجدنا هناك المدعو بيير جاكمان فى أيدى رجال الشرطة . وأعاد المذكور على أسماعنا اعترافه السابق بقتله امرأته . وعلى ذلك طلبنا اليه أن يتبعنا الى المنزل الذى ارتكبت به الجريمة ، فرفض أول الأمر ، ولكنه أذعن بعد أن الح عليه حضرة العمدة . وتوجهنا الى زقاق الشرطة حيث المنزل الذى يقطنه السيد بيير جاكمان . ولما وصلنا الى المنزل المذكور دخلناه وأغلقنا الباب خلفنا لنمنع الأهالى من الدخول .

ودخلنا أولا فى غرفة لم نجد بها شيئا يدل على حدوث جريمة ، ثم غرفة ثانية دعانا الى دخولها المذكور « جاكمان » ، وفى ركن من هذه الغرفة فتحة تؤدى الى سلم قيل لنا انه يؤدى الى قبو به جثة القتيلة . واخذنا نهبط السلم حيث وجد الطبيب على أولى درجاته سيفا له مقبض على شكل صليب ونصل عريض قاطع ، اعترف جاكمان المشار اليه بأنه قد حصل عليه أثناء ثورة يولية

من متحف المدفعية واستخدمه فى ارتكاب الجريمة ، ووجدنا على ارض القبو جثة امرأة جاكمان مقلوبة على ظهرها وسابحة فى بركة من الدماء ، وقد فصل عنها الرأس الذى وضع على كيس للجبس مسند الى الحائط . وأقر جاكمان أن هـــذه جثـــة زوجتـــه ورأســـها ، وذلك بحضور السيد « جان بيير ليدرو » عمدة مقاطعة فونتناى أوروز ، والسيد « سبـــاستيان روبير » الطبيب المقيم بالمقاطعة المذكورة ، والسيد « جان لوى الييت » المشهور بأتيللا ، من رجال الادب ، ويبلغ من العمر خمسة وسبعين عاما ، ويقطن باريس بشارع الـكوميديا القديمة رقم ٢٠ ، والســـيد « بيير جوزيف مول » ويبلغ من العمر واحدا وستين عاما ، من رجـال الدين وملحق بكنيسة « سان سوبليس » ويقطن باريس بشـــارع سرفاندونى رقم ١١ ، والسيد الـكسندر دوما ، مؤلف قصصى ، فى السابعة والعشرين من عمره ، يقطن باريس بشارع الجامعة رقم ٢١ . وشرعنا فى استجواب المتهم كما يلى :

والتفت الينا رئيس الشرطة وعلى وجهه سمات الارتياح :

ــ أليس كذلك أيها السادة ؟

فأجبنا جميعا بصوت واحد : تماما ياسيدى !

ــ حسن ، فلنستجوب المتهم .

والتفت الى المتهم الذى كان يتنفس بصوت مزعج كأنه يختنق طوال المدة التى استغرقتها مطالعة المحضر ، وقال له :

ــ أيها المتهم ، ما اسمك ولقبك وعمرك ومحل اقامتك ومهنتك؟

فسأله المتهم وهو خائر القوى : أيطول هذا أيضا ؟

ــ أجب ؟ اسمك ولقبك ؟

ــ بيير جاكمان .

ــ وعمرك ؟

ــ احدى وأربعون سنة .

ــ ومحل اقامتك ؟

ــ انت تعرفه جيدا ، لأنك به الآن .

ــ ولو ، القانون يأمرك أن تجيب عن هذا السؤال .

ــ زقاق الشرطة .

ـ ومهنتك ؟
ـ عامل بالمحاجر .
ـ أتعترف انك مرتكب الجريمة ؟
ـ نعم .
ـ قل لنـا السبب الذى دفعك الى ارتـكابها والظروف التى ارتـكبت فيها .
ـ السبب فى ارتـكابها .. مستحيل ، هذا سر سيبقى بينى وبينها .... تلك الراقدة هناك .

ـ ومع ذلك فليس هناك نتيجة بلا سبب .

ـ قلت لك انك لن تعرف السبب . انها الظروف كما تقول ، فهل تريد أن تعرفها ؟
ـ نعم .
ـ حسن ! سأقولها لك . حينما يشتغل المرء تحت الارض ، كما نشتغل نحن ، فى الظلام ، ثم يعتقد أن به ما يثير أشجانه ، تضيق روحه ، فتمر بخاطره أفـكار شريرة ..

فقاطعه رئيس الشرطة قائلا : أوه ! أوه ! تعترف اذن بسبق الاصرار ؟
ـ آه ، ألا يكفيك أن أقول اننى أعترف بكل شىء ؟
ـحسن ، تـكلم .
ـ نعم ، حملتنى الفكرة الخبيثة التى وردت علىخاطرى أن أقتل جان . وكانت هـذه الفـكرة قد أزعجتنى أكثر من شهر، وقاومها قلبى ، لكن كلمة واحدة قالها أحد زملائى جعلتنى أعقد العزم .
ـ أية كلمة ؟

ـ أوه ! هـذا لا يعنيك . قلت لجان فى هذا الصباح : لن أذهب اليوم الى العمل ، وأريد أن اتلهى كأن اليوم عيد ، سألعب الـكرة مع رفاقى ، وعليك اعداد طعام الفداء قبل الساعة الواحدة .
ـ ولـكن ...
ـ حسن ، لا تعارضى ، الفداء الساعة الواحدة ، اتفهمين ؟
ـ نعم .

وخرجت جان لاحضار حساء الـكرنب . وفى هذه الاثناء تناولت

السيف الموجود أمامكم بدلا من أن أذهب لالعب الكرة ، وشحذت النصل بنفسى على حجر المسن ، ثم نزلت الى القبو واختبأت خلف البراميل ، وقلت لنفسى : « انها ستنزل الى القبو لتأخذ النبيذ، وعندئذ سوف نرى » . ولم أدر كيف مر الوقت وأنا قابع هناك خلف البراميل .. كنت محموما وقلبى يدق بشدة ، وظلام الليل أحمر متوهجا فى نظرى . ثم سمعت صوتا ردد فى نفسى وحولى تلك الكلمة التى قالها لى زميلى بالامس .

وهنا قال رئيس الشرطة : ولكن ... ما هى تلك الكلمة ؟

ـ مستحيل ، قلت لك انك لن تعرفها أبدا . وأخيرا سمعت حفيف ثوب وخطوة تقترب ، ورأيت ضوءا يتذبذب ، ثم ظهر الجزء الاسفل من جسمها وهو يهبط ، ثم الجزء العلوى ، ثم الرأس ، رأيت الرأس جيدا . وكانت ممسكة بشمعدان .. نعم ، وقلت لنفسى بصوت منخفض تلك الكلمة التى قالها زميلى . وفى هذه الاثناء أخذت تقترب ، وأقسم لك بشرفى .. كان يبدو أنها تتوقع مصيبة تحل بها . كانت خائفة ، وجعلت تتلفت حولها ، ولكنى كنت مختبئا جيدا ، ولم أتحرك . وعندئذ ركعت أمام البرميل ووضعت الزجاجة تحت الصنبور وفتحته . أما أنا فقد نهضت.. كانت راكعة كما قلت ، ومنعها صوت النبيذ المتساقط فى الزجاجة من سماع أى صوت قد يبدر منى ، ثم انه لم يصدر منى بالفعل أى صوت . كانت راكعة كما يركع المتهم أو المحكوم عليه ، فرفعت السيف ، وضربت ! ولم أدر اذا كانت قد صاحت أم لا ، ولكن الرأس تدحرج . وفى تلك اللحظة لم أفكر فى الموت بل أردت الفرار . وخطر لى أن أحفر فى القبو حفرة أدفنها فيها ، فاندفعت نحو الرأس الذى كان يتدحرج ، بينما كانت الجثة تهوى الى الارض ، وكان عندى كيس مملوء بالجبس أعددته لاخفاء الدم . وعليه فقد أمسكت الرأس أو بالاحرى أمسكنى الرأس . انظروا ...

وأرانا يده اليمنى ، وقد بترت عضة قوية ابهامها . فصاح الطبيب :

ـ كيف ذلك ! امسكك الرأس ؟ ما هذا الكلام بحق الشيطان؟

ـ أقول انها عضتنى بأسنانها الجميلة كما ترون .. واقول انها لم ترد أن تخلى سـبيلى . ووضعت الرأس على كيس الجبس وأسندته الى الحائط بيدى اليسرى وحاولت ان أنتزع منه يدى اليمنى ، ولـكن ارتخت الاسنان من تلقـائها بعد لحظة فسحبت يدى ، وعندئذ خيل الى ان الرأس لم يزل حيا وان العينين مفتوحتان تماما . قد أكون مخبولا ، ولـكنى رايت ذلك جيدا . فقد كان الشمعدان فوق البرميل ، والشفتان تتحركان ، وفى حركتهما قالتا : ايها التعس ، أنا بريئة .

ولا أعرف مدى الاثر الذى احدثه هذا الاعتراف فى الآخرين ، ولـكنى أحسست بالعرق يسيل على جبينى .

وصاح الطبيب : آه ! ما افظع ذلك ! أنظرت العينان اليك ؟ أتـكلمت الشفتان ؟

ـ اسمع ياسيدى الطبيب ، انت لا تصدق شيئا لأنك طبيب ، وهـذا أمر طبيعى ، ولـكنى اؤكد لك ان الرأس الذى تراه هناك .. هناك .. أتسمع ؟ أؤكد لك أنه عضنى .. ذلك الرأس .. وانها قالت « أيها التعس ، أنا بريئة » والبرهان على ذلك .. نعم البرهان .. هو اننى أردت الفرار بعد أن قتلتها .. أليس كذلك ؟ وانه بدلا من أن أفر أسرعت الى منزل سيدى العمدة ، ألبس هذا حقيقيا ؟ أجب ..

فأجاب السـيد ليدرو بصوت ملؤه العطف : نعم يا جاكمان : نعم ، هذا صحيح .

وطلب رئيس الشرطة من الطبيب أن يفحص الرأس ، فصـاح جاكمان :

ـ بعد أن أنصرف ياسيد روبير ، بعد أن أنصرف .

وقال له الطبيب وهو يتناول الشمع المشتعل ويقترب من كيس الجبس :

ـ اتخشى ان يكلمك الرأس ثانية أيها الأبله ؟

ـ ياسيد ليـدرو .. بحق السماء أرجوك أن تطلب اليهم ان يدعونى انصرف ، اتوسل اليك ..

العمدة (باشارة أوقفت الطبيب) : سادتى ، لم يبق عند هذا التعس ما يمكن ان تستخلصوه منه ، فاسمحوا لى أن أطلب اقتياده

الى السجن. ان القانون حين قضى بالمواجهة ، افترض ان المتهم يملك القوة الكافية لاحتمالها .

رئيس الشرطة : ولكن المحضر ؟

العمدة : لقد انتهى تقريبا .

رئيس الشرطة : يجب أن يوقع عليه المتهم .

العمدة : يوقع عليه فى السجن .

جاكمان (صائحا) : نعم ، نعم ، أوقع فى السجن على كل ما تريدون .

رئيس الشرطة : حسن !

السيد ليدرو : أيها الشرطة ، خذوا هذا الرجل !

جاكمان (بلهجة امتنان عميق) : آه ! شكرا ياسيد ليدرو ، شكرا .

وأخذ بذراعى الشرطيين وجرهما الى أعلى السلم بقوة تفوق قوة البشر وانتهت المأساة بانصراف الرجل ، ولم يبق فى القبو سوى شيئين مخيفين ، جثة بلا رأس ورأس بلا جثة . وملت بدورى ناحية السيد ليدرو وقلت له :

— سيدى ، أتسمح لى بالانصراف ، على ان أكون تحت طلبكم لتوقيع المحضر ؟

— نعم ياسيدى ، ولكن بشرط واحد .

— أى شرط ؟

— انتوقع المحضر فى منزلى ..

— بكل سرور ياسيدى ، ولكن متى ذلك ؟

— فى ظرف ساعة على وجه التقريب ، وسوف أدلك على منزلى الذى كان ملكا لاسكارون ، وسوف يهمك ذلك

— سأكون عندك ياسيدى فى ظرف ساعة .

وحييته ، وصعدت السلم بدورى ، ولما وصلت الى أعلى الدرجات ألقيت نظرة أخيرة الى القبو . كان الطبيب روبير ممسكا بالشمعدان ، يباعد بيده ما بين شعر الرأس ، رأس امرأة لم تزل جميلة ، على قدر ما يتسنى الحكم عليها ، لأن العينين

مغلقتان ، والشفتين باهتتان متقلصتان .

قال الطبيب : هـــذا الأبله ، جاكمان ! يصر على ان راسا مقطوعا قد تـكلم ! اللهم الا اذا كان يدعى ذلك ليعتقد الجميع انه مجنون ، وفى هـذه الحالة يكون قد أتقن التمثيل .. وتكون هناك ظروف مخففة ..

منزل آل اسکارون



(٤) منزل آل اسكارون

وبعد ساعة ، وصلت الى منزل السيد ليدرو ، وقابلته صدفة فى فناء المنزل فقال عندما رآنى : آه ! هأنت ذا ! يسرنى ان أحادثك قليلا قبل أن أقدمك الى مدعوينا لأنك ستتناول الغداء معنا ، أليس كذلك ؟

– ولكن اعذرنى ياسيدى ..

– لا أقبل أى عذر .. اليوم الخميس ، وهذا من حظك لأن يوم الخميس هو يومى ، وكل من يزورنى فى يوم الخميس فهو تحت تصرفى . ولك أن تختار بين البقاء والانصراف بعد تناول الغداء ، ولولا حادث اليوم لوجدتنى جالسا الى المنضدة ، مع العلم بأنى أتناول الطعام دائما فى الساعة الثانية . أما اليوم فاننا سنتناول الطعام بنوع من الاستثناء فى الساعة الثالثة والنصف أو الرابعة. هذا « بيروس » الذى تراه (وأشار الى كلب حراسة ضخم) قد انتهز فرصة انفعال الأم انطوان واستولى على قطعة الفخذ – هذا من حقه – وأصبح لزاما علينا أن نبحث عن قطعة أخرى عند الجزار . أقول أن عندى فرصة كافية ، لا لأقدمك الى ضيوفى فحسب ، وانما لأعطيك ايضا بعض المعلومات عنهم ..

– بعض المعلومات ؟

– نعم ، هنا كانت المرأة التى اصبحت فيما بعد زوجة الملك لويس الرابعشر تعنى بزوجها الاول المسكين المقعد ، قبل أن تتولى الترفيه عن الرجل الذى يصعب الترفيه عنه ، وسوف ترى غرفتها.

– غرفة مدام دى مانتنون ؟

– لا ، مدام اسكارون ، لا تخلط بينهما ، فغرفة مدام دى مانتنون فى قصر فرساى او فى سان سير .. تعال ..

وصعدنا سلما كبيرا ، ووصلنا الى طرقة تطل على الفناء .

السيد ليدرو : انظر ، هذا شيء سوف يؤثر فيك أيها الشاعر، هـذا اله الشمس الذى كانوا يتحدثون عنه فى عام ١٦٥٠ .

ـ آه ! آه ! خريطة « تندر » .

ـ خريطة الذهاب والعودة ، مرسومة بيد اسكارون ، وعليها تعليق بخطامرأته ولا شيء غير هذا ..

كانت هناك فى الحقيقة خريطتان مثبتتان بين النوافذ ، ومرسومتان بريشة ، كل منهما على قطعة ورق كبيرة ملصقة على ورق مقوى.

واسترسل السيد ليدرو قائلا : أترى هذه الحية الزرقاء ؟ انها نهر «تندر » وتلك الابراج الصغيرة ، انها قرى « الغابة الصغيرة» ، و « الرسائل الغرامية » و « السر » . وهـذا شاطيء «الرغبة» ووادى « الحلوى » وجسر « الآهات » وغابة « الغيرة » ، وكلها آهل بالوحوش كغابة « أرميد » . وهناك أخيرا ، وسط البحيرة حيث ينبع النهر قصر « القناعة التامة » هنا خاتمة الرحلة ونهاية المطاف .

ـ يا للشيطان ! ماذا أرى هنا ؟ بركان ؟

ـ نعم ، انه بركان « الشهوات » الذى يقلب البلاد أحيانا ..

ـ الا يوجد بركان فى خريطة المدموازيل « دى سكوديرى » ؟

ـ لا ، انه من اختراع مدام « بول اسكارون » . هذا عن احدى الخرائط .

ـ والاخرى ؟

ـ الاخرى هى « العودة » . انظر ، ان النهر يفيض . لقـد تضخم بدموع أولئك الذين يسيرون على ضـــفتيه . انظر كفور « الملل » ، وفندق « الاسف » وجزيرة « النـدم » . لا شيء أبدع من هذا .

ـ هل تتكرم وتأذن لى أن أنسخ هذا الرسم ؟

ـ آه ، كما تشاء ، والآن الا تريد أن ترى غرفة مدام اسكارون؟

ـ أظن ذلك .

ـ هاهى ذى ..

وفتح السيد ليدرو بابا ودعانى للمرور أمامه .

ـ هى اليوم غرفتى ، أقدمها لك ـ باستثناء ما تزدحم به من الـكتب ـ كما كانت فى عهد صاحبتها المشهورة : فهذا نفس المخدع والفراش والاثاث ، ومكان الزينة .

ـ وغرفة اسكارون ؟

ـ أوه ! كانت غرفته فى نهاية الدهليز ، ولكنى لا أستطيع ان اريها لك اذ لايدخلها أحد ، فهى الغرفة السرية ، مقصورة « ذى اللحية الزرقاء » .

ـ يا للشيطان !

ـ انها كذلك . ان لى أسرارا ، رغم اننى العمدة . ولكن تعال، سأريك شيئا آخر .

وتقدمنى السيد ليدرو ، ونزلنا السلم ودخلنا غرفة الاستقبال. ولهذه الغرفة سمة خاصة ، كما هو شأن باقى أجزاء المنزل ، فجدرانها مغطاة بورق يصعب معرفة لونه الاصلى ، وعلى طول الحائط صفان من المقاعد ذات النمارق يحف بهما صف آخر من الارائك العادية . وكلها مبطنة بقماش قديم . وهنا وهناك مناضد للعب ، ومناضد صغيرة مستديرة . وفى وسط كل هذا الاثاث مكتب ضخم ، كاللوياثان (١) ، يستند أحد طرفيه على الحائط ، ويمتد حتى ثلث الغرفة ، ومغطى بالكتب والكراسات والصحف يبرز وسطها كما يبرز الملك وسط شعبه ، كتاب « الدستور » ، الذى يفضله السيد ليدرو . وكانت غرفة الاستقبال خاوية ، والمدعوون يتنزهون فى الحديقة التى تبدو كل أجزائها من النوافذ . وتوجه السيد ليدرو مباشرة الى مكتبه وفتح درجا كبيرا به مجموعة من الربطات الصغيرة التى تشبه اكياس الحبوب . وكانت الاشياء الموجودة فى هذا الدرج ملفوفة بورق عليه بطاقات .

ـ انظر ، أيها المؤرخ ، هذه أشياء تهمك رؤيتها أكثر من خريطة « تندر » ، هذه مجموعة من العاديات من مخلفات الملوك لا القديسين .

كانت كل ربطة تحوى بالفعل قطعة من العظم أو شعرا أو ذقنا ، ففيها رضفة شارل التاسع ، وابهام فرانسوا الاول وقطعة من جمجمة لويس الرابع عشر ، وضلع من هنرى الثانى ، وفقرة من لويس الخامس عشر ، وشعر من ذقن هنرى الرابع ، وخصلة من شعر لويس الثالث عشر . لقد قدم كل ملك عينة من جسده . فاذا جمعنا كل هذه العظام استطعنا أن نركب هيكلا تقريبيا يمثل الأسرة المالكة الفرنسية التى تعوزها العظام الرئيسية منذ أمد

---

(١) وحش بحرى يرمز الى الشر فى الكتاب المقدس

طويل . وهناك غير هــذا سنة من فك « ابيلار » وسنة من فك « هلواز » ـ سنتان من القواطع البيض ، كان من المحتمــل أن يتلاقيا فى قبلة عندما كانت تكسوهما الشفاه المرتجفة ، فمن أين أتت هــذه العظام ؟ لقد أشرف السيد ليدرو على استخراج جثث الملوك فى « سان دينس » وأخذ من كل مقبرة ما أراد أن يأخذه . وأتاح لى مسيو ليدرو لحظات قليلة لأشبع فضولى . ولمـا وجـد أننى قد فحصت كل البطاقات قال :

ـ هيا بنا ، كفانا اهتماما بالموتى.. ولننتقل قليلا الى الاحياء .

وانتقل بى الى جانب احدى النوافذ التى تشرف كلها على الحديقة كما قلت .

قلت له : عندك حديقة رائعة .

ـ هى حديقة خورى ، غنية بأشجار الزيزفون المصــــفوفة فى مربعات ، وأشجار « الداليا » ، وشجيرات الورد وتكعيبات العنب والخوخ والمشمش ، وسترى كل ذلك . ولــكن دعنا الآن من هذا ولنهتم بالاشخاص الذين يتجولون فيها .

ـ آه ! قل لى أولا ، من يكون هذا السيد « ألييت » المشهور باتيللا الذى سأل عما اذا كان المطلوب معرفة سنه الحقيقية أو سنه الظاهرية . انه يبدو تماما فى السن التى قــــدرتها له ، أى فى الخامسة والسبعين .

ـ تماما ، لقد قصــــــدت أن أبدأ حديثى عنه . هل قرأت « هوفمان » ؟

ـ نعم ، لمـاذا ؟

ـ حسن ! هو من أنصار هوفمان . لقد أمضى حيـــــاته كلها يحاول استعمال الخرائط والارقام للتكهن بالمستقبــل ، وينفق كل ما بيــده على اليانصيب ، فربح فى البــداية رقما واحدا ، ولــكنه لم يربح بعــد ذلك شيئا على الاطلاق . كان يعرف « كاليوسترو » والــكونت دى ســان جرمان ، ويدعى انه من أسرتهم ، وان عنده مثلهم سر اكسير الحياة الطويلة . فاذا طلبت اليه أن يخبرك عن عمره الحقيقى ، قال مائتين وخمسة وسبعين عاما ، عاش منهــا اولامائة عام دون أن يصيبه عجز ، من عهد هنرى الثانى الى عهد لويس الرابع عشر ، ثم استطاع بفضل الاكسير أن يعيش ثلاث فترات أخرى طول كل منها خمسون عاما ، رغما عن انه كان يعتبر ميتا

فى نظر العامة . وهو الآن فى بداية الفترة الرابعة ، وقد انقضى عليه فيهـا خمسة وعشرون عاما فقط . اما المائتان والخمسـون عاماالاولى من عمره فلم يعد لها تقدير الا فى ذاكرته ، وسـيعيش هكذا ، كما يقول جهـارا ، حتى يوم الحساب . وكان النـاس فى القرن الخامس عشر يحرقون أمثال اليبيت ، وكانوا فى ذلك مخطئين أما اليوم فالناس يرثونه فحسب ، وهم فى ذلك أيضا مخطئون ، فأليبيت هـــذا أسعد رجل على وجه الارض ، اذ لا يهمه الا كشوف الطوالع والخرائط وفنون السـحر ، وعاوم « تحوت » المصرية ، وأسرار ايزيس ، وينشر فى هـذه الموضوعات كتيبات لايقرؤها أحد ، ينشرها له صاحب مكتبة ـ مجنون مثله ـ تحت اسمه المستعار « اتيللا » . وتجد قبعته مملوءة دائما بكراسـات صغيرة ـ انظر ـ ها هو ذا يمسـكها تحت ذراعه خوفا من ان يسلبها أحد . أنظر الى جسمه ووجهه وثوبه ، ولاحظ تناسـق الطبيعة ، فالقبعة توائم الرأس ، والجسم يتفق مع الثوب ، أى ان الثوب ينطبق على القالب ، كما تقولون أنتم أهل الادب .

ولم يكن هناك فى الواقع ما هو أكثر من هذا مطابقة للحقيقة ، اذ ألقيت على « أليبيت » نظرة فاحصة فوجدته يرتدى ثوبا يعلوه شحم وتراب ، ثوبا باليا ملطخا بالبقع ، وعلى رأسـه قبعة عريضة من أعلى ذات حافة كالجلد اللامع ، وسرواله من صـوف أسود ذى وبر ومربعات ، وجواربه سوداء أو حمراء ، وحذاؤه مستدير كأحذية الملوك الذين يدعى أنه ولد فى عهـدهم . اما بالنسبة الى جسمه ، فهو رجل قصير القامة ، ربعة ، له وجه كوجه أبى الهول ، وعينان حمراوان ، وفم عريض خال من الاسنان ، وشعر قليل ، أصفر وطويل ، يرفرف كالهالة حول رأسه .

قلت للسيد ليدرو : انه يتحدث مع القس « مول » الذى كان معنا فى قضيـة هـذا الصبـاح التى سنعود الى الحديث عنها ، اليس كذلك ؟

فنظر الى السيد ليدرو بفضـول وسـألنى : ولمـاذا نعود الى الحديث عنها ؟

ـ معذرة ، ولـكن يبـدو انك تصدق ان ذلك الراس قد تكلم .

ـ انك قوى الفراسـة . حسن ! هـذا صحيح ، فأنا اصدق ذلك . نعم سنتحدث فى كل ذلك . واذا كانت القصص التى من

هــذا النوع تستهويك فسوف تجد هنا من تحدثه فى هذا المجال. ولـكن لننتقل الى القس مول ..

فقاطعته قائلا : لابد أن يكون هذا الرجل لطيف المعشر ، وقد تأثرت من عذوبة صوته عندما أجاب على أسئلة رئيس الشرطة .

— حسن ! لقد أصبت فى هذه المرة أيضا .. « مول » صديقى منــذ أربعين عاما ، وهو فى الستين من عمره ، نظيف ومعتن بهندامه بعكس أليبت برثاثته وقذارته ، اعتاد الحيــاة مع أفراد الطبقــة الراقية المبرزين فى مجتمع ضاحية سان جرمان . هو القس الذى يزوج أبناء وبنات أعيان فرنسا ، وينتهز فرصة كل زواج فيلقى خطبة صغيرة يطبعها الزوجان ويحافظان عليها بعناية شــديدة فى أسرتيهما . وأوشك أن يصبح اسقف كليرمونت . أتعرف لماذا لم يتم له ذلك ؟ لأنه كان فيما مضى صديقا لـكازوت ، يؤمن مثله بوجود الارواح العلوية والسفلية ، والجن الطيب والخبيث ، وهو يقتنى الـكتب مثل أليبت ، فتجد عنده كل ما كتب عن الارواح والاشباح والاطياف . ومع أنه لا يتكلم فى هذه الاشياء التى ليست مؤكدة تماما الا بين الاصدقاء ، الا انه قوى العقيدة ، رصين الخلق ، يعزو كل الخوارق الى قوى الجحيم ، أو الآلهــة . أنظر ، انه ينصت فى هدوء الى ما يقوله أليبت ، وكأنه يتــأمل شيئا لا يراه محدثه ، ويجيب على حديثه من حين الى آخر بحركة من شفتيه أو ايماءة من رأسه . ويحدث أحيانا أن يكون معنا ، فاذا هو يغرق فى تفكير عميق ، ثم يرتجف ويدير رأسه ويتمشى فى القــاعة . وعندئذ يجب أن يترك وشأنه ، فقــد يكون من الخطر ايقاظه . أقول ايقاظه لأننى واثق من أنه يتحرك وقتئذ وهو نائم . ثم يصحو وحده ، ناذا هو ظريف ، كما سترى .

— أوه ! ولـكن قل لى .. يبدو لى أنه قد استحضر الآن أحد هــذه الارواح التى كنت تتكلم عنها !

وأشرت بأصبعى الى شبح حقيقى متنقل ، انضم الى المتحدثين ووضع قدمه بحرص بين الازهار ، فـكأنه يستطيع أن يسير عليها دون أن يثنيها .

— هذا أيضا أحد أصدقائى ، الشيفاليه لينوار ..

— مؤسس متحف « لوبيتى اوجستان » ؟

— هو بنفسه . لقد أمضــه تشتت متحفه الذى كاد يقتــل

بسببه عشر مرات فى سنتى ٩٢ ، ٩٤ . وجاء عهد عودة الملكية (من ١٨١٤ — ١٨٣٠) بعقليته السقيمة — فأغلق متحفه وقضى باعادة كل التحف الى المبانى التى أخذت منها والاسر التى تملك حق المطالبة بها . وكان معظم هذه الآثار لسوء الحظ قد تحطم ، ومعظم الاسر قد بادت ، ومن ثم تبددت أروع النماذج فى فن النحت ، وبالتالى فى تاريخنا القديم . وهكذا اندثر كل ما ينتمى الى فرنسا القديمة ، ولم يبق من تلك القطع الا القليل الذى سوف يندثر بعد قليل . ومن هم أولئك الذين يبددونها ؟ انهم نفس الاشخاص الذين من صالحهم المحافظة عليها .

وتنهد السيد ليدرو ، الذى قيل عنه فى ذلك الحين انه متحرر الفكر .

فسألته : هل كل أولئك مدعووك ؟

— قد يزورنا الدكتور روبير ، ولن أحدثك بشيء عنه ، فاننى اعتقد أنك قد كونت فكرة عنه . هو رجل أمضى حياته كلها يجرى التجارب على الجهاز البشرى ، كما لو كان هذا الجهاز نموذجا خشبيا ، دون أن يفكر فى أن لهذه الآلة روحا تتألم وأعصابا تحس بالألم ، انه حى مات بين يديه الكثيرون . وهو لحسن حظه لايؤمن بالاشباح . وهو شخص عادى يحسب نفسه ظريفا لكثرة ضجيجه ، أو فيلسوفا لأنه ملحد . انه من أولئك الرجال الذين نستقبلهم فى بيوتنا ، لا لأننا نحتفى بهم ، ولكن لأنهم يأتون لزيارتنا ، بينما لا يخطر لنا أبدا أن نذهب لزيارتهم حيث يكونون.

— أوه ياسيدى ، اننى أعرف جيدا هذا النوع من الناس !

— كان يجب أن يكون هنا الآن صديق آخر ، أصغر سنا من أليت ومن القس مول والشيفالييه لينوار ، ولكنه يبارى أليت فى معرفة الطالع بورق اللعب ، ومول فى فنون الجان ، والشيفالييه لينوار فى الآثار ، فهو مكتبة حية ، وكتالوج محفوظ فى اهاب مسيحى ، رجل يجب أن تعرفه بنفسك .

— هاوى الكتب يعقوب ؟

— تماما .

— ألن يأتى ؟

— لم يأت على الاقل . ولما كان يعرف أننا نتناول الغداء فى الساعة الثانية ، وقد أوشكت الساعة أن تدق الرابعة ، فانه

لا يحتمل مجيئه . انه يبحث عن الطبعة الاولى من كتاب طبع فى امستردام سنة ١٥٧٠ ، وبه ثلاثة أخطاء مطبعية ، أحدها فى الورقة الاولى ، والثانى فى الورقة الثانية ، والثالث فى الاخيرة .

وفى هذه اللحظة فتح باب الصالون وظهرت الأم انطوان وقالت :

ـ تفضل ياسيدى ، الطعام حاضر .

ففتح السيد ليدرو باب الحديقة وقال : هيا ياسادة الى المائدة .. الى المائدة .

والتفت ناحيتى وقال : والآن لا بد أن يكون فى موضع ما من الحديقة مدعو ، من غير المدعوين الذين رأيتهم وحدثتك عن بعض نواحى حياتهم ، مدعو لم تره من قبل ، ولم أحدثك عنه ؟ وهو فى عزلة شديدة عن أمور الدنيا ، حتى انه لم يسمع النداء الجاف الذى وجهته منذ لحظة واستجاب له كل الاصدقاء . ابحث عنه ، هذا واجبك ، فاذا عثرت عليه وأدركت تجرده من الماديات وصفاء روحه ، فاذكر اسمك وحاول أن تقنعه انه من المفيد للانسان أحيانا أن يأكل ، ولو ليعيش ، وقدم له ذراعك وأت به الى هنا ، هيا .

وامتثلت لطلب السيد ليدرو متوقعا أن تكون تلك الروح الساحرة التى أعجبت بصفاتها قد أعدت لى مفاجأة سارة . وتقدمت فى الحديقة متلفتا حولى . ولم يطل بحثى فقد لمحت بعد قليل ما كنت ابحث عنه : كانت امرأة تجلس فى ظل خميلة زيزفون ، لم أر منها الوجه ولا الخصر ؟ لم أر الوجه لأنه كان ملتفتا ناحية الخلاء ، والخصر لأنه كان ملتفا بشال كبير . كانت متشحة بالسواد . واقتربت منها فلم تبد أية حركة ، كأن وقع خطواتى لم يطرق أذنيها . وكانت تبدو كالتمثال . ثم ان كل ما لمحته منها كان جليلا رائعا . وأدركت عن بعد انها شقراء ، ورأيت شعاعا من الشمس يخترق أوراق الزيزفون ويقع على شعرها فيجعل منه اكليلا من الذهب . وعندما دانيتها لحظت رقة شعرها الذى يضاهى تلك الخيوط الحريرية التى تنتزعها من معطف العذراء أولى نسمات الخريف ، وعنقها الذى ربما كان أطول قليلا من المعتاد ، ويتميز طوله بالاناقة أو الجمال ، عنق مستدير ، يتيح للرأس أن يستند عى اليد اليمنى ، بينما اعتمد مرفقها على ظهر المقعد وتدلت ذراعها اليسرى الى جانبها . وامسكت أناملها المشوقة بوردة

بيضاء . وكان عنقها المستدير كعنق البجعة ويدها المثنية وذراعها المتدلية ، بيضاء كرخام « باروس » خالية من العروق السطحية والنبض الداخلى ، وكانت الوردة التى بدات تذبل أزهى لونا وأكثر حيوية من اليد التى تمسكها . ونظرت اليها برهة ، وكلما امعنت النظر ، خيل الى أن ما أراه ليس بكائن حى ، حتى لقد شككت فى احتمال تحركها اذا ما كلمتها . ولقد انفتح فمى ثم انقفل مرتين أو ثلاثا دون أن أنطق حرفا واحدا . وأخيرا استقر عزمى فقلت لها : « سيدتى ! » ، فارتجفت واستدارت ، ونظرت الى دهشة كمن يصحو من حلم ويجمع شتات أفكاره . وكان فى عينيها السوداوين الواسعتين المثبتتين على وجهى تعبير غريب .

ومرت بنا بضع ثوان ، هى تتأملنى وأنا أفحصها . انها امرأة فى الثانية أو الثالثة والثلاثين من العمر ، كانت ولاشك ذات جمال رائع قبل أن يضمر خداها ويشحب لونها ، ومع ذلك وجدتها رائعة الجمال بوجهها الصدفى اللون الذى يماثل تماما لون يديها من حيث تجرده من صفات البشرة الحية ، وعينيها اللتين تشبهان الكهرمان الاسود وشفتيها الشبيهتين بالمرجان .

— سيدتى ... يقول السيد ليدرو ان باستطاعتى أن أقدم لك نفسى ، فأنا مؤلف « هنرى الثالث » و«كريستين» و« انتونى » ، فتتناولى ذراعى وتأتى معى الى غرفة الطعام .

— معذرة ياسيدى ، انت هنا منذ لحظة ، أليس كذلك ؟ لقد شعرت بقدومك ولكننى لم أستطع أن ألتفت اليك ، وهذا أمر يحدث لى أحيانا عندما أنظر الى بعض النواحى . لقد أفسد صوتك السحر الذى كنت فيه . والآن هات ذراعك ولنذهب .

ونهضت ، ولفت ذراعها بذراعى . ولم أشعر تقريبا بثقل ذراعها ، مع انها لم تبد أية محاولة لتخفيف ذراعها ، وكأنها ظل يسير بجوارى . ووصلنا الى قاعة الطعام دون أن ينطق أحدنا بلفظ واحد . وكان هناك محلان محجوزان حول المائدة ، أحدهما لها الى يمين السيد ليدرو والثانى لى أنا فى مواجهتها .

صفعة شارلوت كورداي



(٥) صفعة شارلوت كورداى

كان لهذه المنضدة طابعها الخاص ، كسائر الاشياء فى منزل السيد ليدرو ، فهى على شكل حدوة الحصـــــان ، تستند الى نوافذ الحديقة ، تاركة ثلاثة أرباع الفرفة الفسيحة خالية للوازم المائدة ، وتتسع هـذه المنضـدة لعشرين شخصا يجلسون اليها مرتاحين ، ويقدم عليها الطعام ، سواء أجلس اليها واحد أم اثنان أم أربعة أم عشرة أم عشرون من مدعوى السيد ليدرو ، أم جلس اليها السيد ليدرو وحده . وكنا هـذا اليوم سـتة فقط ، شغلنا حوالى ثلث المـائدة . وكانت قائمة الطعـام واحدة لأيام الخميس ، اذ يرى السيد ليدرو أن مدعويه يستطيعون أن يأكلوا أشياء أخرى فى باقى الايام سـواء فى بيوتهم أم فى بيوت من يدعونهم . وعلى هـذا كان من المؤكد أن يجد الانسان على مائدة السـيد ليـدرو كل خميس أصناف الحساء ولحم البقر والدجاج ، مع الطرخون (١) ، وفخذا محمرا ، وفاصوليا ، وسلاطة . وكان عدد الدجاج يزيد تبعـا لحاجة المدعوين . ويجلس السيد ليدرو دائما على طرف المنضـدة وظهره الى الحديقة ووجهه نحو الفناء سـواء كان معه قليـل من المدعوين أم كثير، يجلس على كرسى كبير ذى مساند ، فى مكان واحد لم يتغير منذ عشر سنين ، ويتناول من يد بستـانيه « انطوان » الذى أصبح وقتئذ المتر « جاك » خادمه الخاص ، بالاضـافة الى النبيـذ العادى ، بعض زجاجات من النبيـذ الاحمر المعتق الممتاز ، يقدمها له البستانى بوقار وخشوع ، فيفتحها ويقـدمها لضيوفه بنفس الوقار والخشوع .

---

(١) بقلة معمرة .. تزرع لرائحـــة اوراقها التى تؤكل وهى خضراء مع الطعام المترجم

كان النـاس منـذ ثمانية عشر عاما يؤمنون ببعض الاشـياء ، ولـكنهم بعد عشر سنوات لن يؤمنوا بشيء ، حتى بالنبيذ المعتق.

وبعد أن فرغنا من طعام الفداء ، انتقلنـا الى قاعة الجلوس . وقد مرت فترة الفداء كغيرها من فترات الفداء فى امتداح الطعام واطراء النبيذ .

أما المرأة الصغيرة فانها لم تأكل سوى بعض فتات الخبز ، ولم تشرب الا كوبا من المـاء ، ولم تنطق لفظا واحدا . لقد ذكرتنى بفول الف ليلة وليلة الذى جلس الى المـائدة مع الآخرين فلم يأكل الا حبـات من الأرز التقطها بالمسواك . انتقلنا اذن كالمعتاد بعـد تناول الفداء الى قاعة الجلوس . وكان من الطبيعى أن أقدم ذراعى الى مدعوتنا الصامتة ، فقطعت نصف الطريق بينى وبينها لتتناول ذراعى وكان لحركاتها نفس الليونة وللفتاتها نفس الاناقة ، لايكاد الانسان يشعر بأطرافها . وسرت بها الى أريكة تمددت عليها .

وفى أثناء تناولنا الطعام حضر الى القـاعة شخصـان ، الطبيب ورئيس الشرطة الذى جاء ليحصل على توقيعاتنا على المحضر الذى وقع عليه من قبل جاكمان فى السجن . وظهرت بقعة خفيفة من الدم على الورق . ووقعت بدورى ، وقلت وأنا أوقع : ما هـذه البقعة ؟ أهى دم المرأة ، أم دم الزوج ؟

رئيس الشرطة : هـذا الدم من الجرح الذى بيد القاتل ، والذى استمر ينزف دون أن يستطيع أحد أن يوقفه .

الطبيب : أتعلم ياسيد ليدرو أن ذاك الوحش يصر على أن رأس زوجته قد تـكلم ؟

ليدرو : أترى ذلك الأمر مستحيلا يادكتور ؟

الطبيب : طبعا .

ليدرو : أتظن أنه من المستحيل أن تنفتح العين ثانية ؟

الطبيب : مستحيل .

ليدرو : الا تظن ان الدم ، وقد أوقفت سيله طبقة الجبس التى سدت للفور كل العروق والشرايين ، استطاع أن يعيد الحيـاة والشعور فى الرأس للحظة ؟

الطبيب : لا أصدق ذلك .

ليدرو : حسن . أما أنا فانى أصدق .

الليت : وأنا أيضا .

القس مول : وانا كذلك .
الشيفالييه لينوار : وانا ايضا .
وقلت : وانا ايضا .
أما رئيس الشرطة والمراة الشاحبة الوجه فانهما لم يقولا شيئا : فأحدهما لا يهمه الأمر كثيرا بلا شك ، والثانية يهمها الأمر اكثر من اللازم .
الطبيب : آه ! ما دمتم جميعا ضدى فلا بد أنكم على صواب ولكن ما دام أحدكم طبيبا ..
ليدرو : ولكنك تعلم يا دكتور اننى نصف طبيب .
ـ اذن لابد انك تعلم انه لا ألم حيث لا شعور ، وان الشعور ينعدم تماما عند انفصال العمود الفقرى .
ـ من قال ذلك ؟
ـ المنطق طبعا !
ـ يا له من رد مقنع ! الم يكن المنطق هو الذى أقنع القضاة الذين أدانوا « جاليليو » بأن الشمس هى التى تدور والارض ثابتة لاتتحرك؟ قد يكون المنطق ياعزيزى الطبيب أحمق. الم تجر بنفسك تجارب على رءوس مقطوعة ؟
ـ كلا ، أبدأ .
ـ هل قرأت بحوث «سومرنج» ؟ ومحاضر الطبيب «سوى» ، واعتراضات « الشير » ؟
ـ لا ..
ـ اذن فأنت تظن ، كما جاء فى تقرير السيد « جيوتان » أن آلته هى أضمن الوسائل لانهاء حياة الانسان، وأسرعها وأقلها ايلاما!
ـ أعتقد ذلك .
ـ حسن ! أنت مخطىء ياصديقى العزيز .
ـ آه ! عجبا !
ـ اسمع يا دكتور ، ما دمت قد استشهدت بالعلم لاثبات رايك، فسأحدثك حديث العلم ، وليس فينا ، على ما أظن ، من هو غريب عن هذا الحديث حتى لا يشترك فيه فأبدى الطبيب حركة ارتياب .
ـ لا اهمية لذلك ، افهم وحدك ما تشاء .
واقتربنا جميعا من السيد ليدرو . اما انا فقد اصغيت اليه

بانتباه شديد ، فان هذه المسألة الخاصة بعقوبة الاعدام التى تنفذ بالحبل او الحديد أو السم كانت تشغل ذهنى على الدوام لأنها مسألة انسانية . وكنت قد اجريت بعض البحوث فى مختلف الآلام التى تسبق انواع الموت المختلفة وتصاحبها وتعقبها .

قال الطبيب بصوت من لا يصدق : هلم ، تكلم .

السيد ليدرو : من السهل أن نثبت لأى انسان عنده فكرة عن تركيب جسمنا وقواه الحيوية ، ان العقوبة البدنية لا تعدم الشعور تماما . وما أشرحه لكم أيها الطبيب انما يقوم على حقائق وليس على فروض .

– الينا بالحقائق .

– ها هى ذى : أولا ، ان مركز الشعور هو المخ ، أليس كذلك؟

– فى الغالب .

– وفى الامكان أن تتم عمليات الحس والادراك حتى ولو توقفت الدورة الدموية بالمخ أو ضعفت أو تعطلت جزئيا .

– يحتمل .

– وعلى هذا فما دام مركز القدرة الشعورية فى المخ ، فان الذى توقع به عقوبة الاعدام يظل مدركا لوجوده طالما كان المخ محتفظا بقدرته الحيوية .

– ما هى الادلة على ذلك ؟

– هاهى ذى : يقول « هالر » فى كتابه « عناصر الطبيعة » فى الجزء الرابع صفحة ٣٥ ما يأتى : « فتح رأس مقطوع عينيه ونظر الى نظرة جانبية ، لأنى لمست النخاع الشوكى بطرف أصبعى .

– « هالر » ، فايكن ، ولكن هالر قد يخطىء .

– حسن ، لنفرض أنه أخطأ . اليك غيره ، يقول فيكار فى كتابه « الفنون الفلسفية » صفحة ٢٢١ : « رأيت شفتى رجل مقطوع الرأس تتحركان .

– حسن ، ولكن أن تتحرك الشفتان لتتكلما ...

– انتظر ، سنصل الى ذلك . اليك « سومرنج » ، وهذى مؤلفاته ، يمكنك أن تبحث فيها . يقول « سومرنج » : « اكد لى الكثيرون من زملائى الاطباء انهم رأوا رأسا مفصولا من الجسد يصر أسنانه من الألم » . وانا شخصيا اعتقد انه اذا كان الهواء يمر فى الرأس عن طريق الاعضاء الصوتية ففى مقدور الرأس المفصول أن يتكلم .

وواصل السيد ليدرو حديثه وقد شحب وجهه : حسن يا دكتور ، لقد كلمنى رأس .
فارتجفنا جميعا ، ونهضت السيدة الشاحبة من كرسيها الطويل.
الطبيب : كلمك انت ؟
ـ نعم أنا ، ستقول اننى ايضا مجنون ؟
ـ عجبا ، ان كنت تقول انه قد كلمك انت نفسك ..
ـ نعم ، أقول ان الشيء حدث لى انا نفسى . ان ادبك يادكتور يمنعك من ان تقول لى بصراحة اننى مجنون ، ولكنك قد تقول ذلك بصوت خفيض ، والنتيجة واحدة على اية حال .
ـ حسن ، فلنر ، قص علينا ذلك .
ـ ما أسهل أن تطلب منى ذلك ، ولكن هل تعلم اننى لم ارو هذه القصة لأى مخلوق منذ سبعة وثلاثين عاما ، أى منذ حدثت وقائع القصة ؟ أتعلم اننى لا أستطيع أن أتمالك شعورى اذا حكيت لكم هذه القصة ، فقد اغمى على عندما كلمنى ذلك الرأس وحدجتنى عيناه بنظرة ثابتة ؟
وهكذا صار الحديث مسليا للغاية ، والموقف دراميا رائعا .
الييت : هيا تشجع يا ليدرو واحك لنا قصتك .
القس مول : احك أيها الصديق .
الشيفالييه لينوار : تكلم ..
وتمتمت السيدة الشاحبة : سيدى ..
ولم أقل شيئا ، ولكن الرغبة كانت تتلاعب فى عينى ..

وقال السيد ليدرو دون أن يرد علينا وكأنه يخاطب نفسه : ما أعجب الاحداث حين يؤثر بعضها فى البعض الآخر (واستدار ناحيتى) اتعرف من أنا ؟
ـ أعرف انك رجل غزير العلم ، ظريف للغاية ، تقدم وجبات فخمة من الطعام ، وأنك عمدة فونتناى أوروز .
فابتسم السيد ليدرو وشكرنى بايماءة من رأسه ، وقال :
ـ اقصد أصلى وأسرتى ؟
ـ اننى ياسيدى اجهل أصلك ولا أعرف أسرتك ..
ـ حسن ، اسمعوا ، سأخبركم بكل ذلك ، وربما تأتى بعد ذلك القصة التى تريدون سماعها ولا أجرؤ الآن على روايتها. فاذا حكيت لكم القصة ، فعليكم ان تسمعوها ، والا فلا تطلبوها منى

مرة ثانية ، فان قواى تكون قد خانتنى .

فجلس كل منا فى مكانه وتهيأ للاستماع . وكانت القاعة ملائمة كل الملاءمة لجو القصص والاساطير ، فهى متسعة مظلمة بفضل الستائر السميكة ، وزوال ضوء النهار . وقد غمرت الظلمة أنحاءها بينما احتفظت المواضع المواجهة للأبواب والنوافذ ببقايا خفيفة من النور . وفى أحد الاركان المظلمة جلست السيدة الشاحبة وقد اختفى ثوبها الاسود تماما فى الظلام ، ولم يبد منها سوى رأسها الأبيض الساكن المتكىء على وسادة الأريكة . واستهل السيد ليدرو حديثه قائلا :

ـ أنا ابن « كوميس » المشهور طبيب الملك والملكة . كان أبى الذى جعله لقبه المضحك فى زمرة المشعوذين عالما ممتازا من علماء مدارس فولتا وجالفانى ومسمر . وأول من اشتغل فى فرنسا بفنون خيال الظل والكهرباء ، وألقى دروسا فى الرياضة والطبيعة بالبلاط الملكى . أما مارى انطوانيت المسكينة التى رأيتها مرارا ، وأمسكت بيدى أكثر من مرة وقبلتنى عند وصولها الى فرنسا ، حيث كنت طفلا ، فانها كانت مغرمة بى . وقد صرح جوزيف الثانى (١) عند مروره بفرنسا عام ١٧٧٧ بأنه لم ير فى حياته انسانا أغرب من كوميس . ومع كل هذا كان أبى منهمكا بتعليم أخى وتعليمى ، وقد أطلعنا على مبادىء علوم السحر والتنجيم ، ومجموعة من المعلومات المغناطيسية والكهربية والفيزيائية التى أصبحت الآن من المعلومات الشائعة ، ولكنها كانت فى ذلك العهد من الاسرار التى لايعرفها الا القليلون . وتسبب لقب «فيزيائى الملك» فى سجن أبى عام ٩٣ ، ولكنى تمكنت بفضل ما كان بينى وبين جماعة « لامونتانى » من أواصر الصداقة أن أتوصل الى اخلاء سبيله . وعلى اثر ذلك احتجب والدى فى هذا المنزل الذى نحن فيه الآن ومات فيه عام ١٨٠٧ وله من العمر ستة وسبعون عاما . ولنعد الى موضوعى . تكلمت عن صداقتى لأعضاء جماعة لامونتانى ، وكنت فى الواقع على علاقة وثيقة بدانتون وكامبى دى مولان ، وأعرف مارات كطبيب أكثر منى كصديق ، ونتج عن علاقتى به ، على قصر عهدها ان صح عزمى يوم اقتياد المدموازيل دى كورداى الى المقصلة على ان أشهد تنفيذ حكم الاعدام فيها .

(١) امبراطور بوهيميا وهنغاريا « ١٧٦٥ ـ ١٧٩٠ » ـ المترجم

وهنا قاطعته قائلا : كنت على وشك أن أؤيدك فى مناقشتك مع الدكتور روبير فى موضوع استمرار الحياة بأن أذكر الحقيقة التى سجلها التاريخ عن شارلوت دى كورداى .

فقاطعنى السيد ليدرو بدوره قائلا : سنصل الى هذه النقطة.. دعنى أتكلم . لقد شهدت هذا الحدث ، ولذلك أرجو أن تصدقوا ما سأقوله لكم . منذ الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم ، أخذت مكانى بالقرب من تمثال الحرية ، وكان يوما دافئا ، من أيام شهر يولية ، والجو ثقيلا ، والسماء ملبدة بالغيوم تنذر بعاصفة . وفى الساعة الرابعة هبت العاصفة ، وقيل انه فى هذه اللحظة صعدت شارلوت الى عربة السجن ، وكان ثمة مصور شاب يقوم بعمل لوحة لها ، ويظهر ان الموت الغيور لم يرد أن تترك الشابة الصغيرة أى شىء بعدها ، حتى صورتها.. فى هذه اللحظة كانت صورة وجهها قد ظهرت على لوحة الرسام . والغريب انه فى لحظة دخول الجلاد فى غرفة السجن ، كان المصور يرسم ذلك الجزء من العنق الذى جزه سلاح الجيوتين فيما بعد .

لمع البرق وهطل المطر وزمجر الرعد ، ولم يكن كل هذا بقادر على تشتيت جموع الرعاع الفضوليين الذين امتلأت بهم الارصفة والكبارى والميادين ، وغطت همهمة من فى الارض ضجيج السماء . وكنت ترى النسوة الملقبات « بلاعقات الجيوتين » يتبعنها باللعنات . وسمعت هذا الهدير يقترب منى وكأنه هدير الشلالات ، وهاج الشعب وماج قبل أن يظهر من الموكب أى شىء . وأخيرا ظهرت العربة كالسفينة المشئومة تشق طريقها وسط أمواج الشعب ، واستطعت أن أتبين المحكوم عليها، ولم أكن أعرفها ، ولم أرها من قبل . كانت فتاة جميلة فى السابعة والعشرين ، ذات عينين نجلاوين وأنف كامل الاوصاف ، وشفتين بديعتين ، واقفة مرفوعة الرأس ، لا تكبرا على هذا الحشد ، بل لأن يديها المشدودتين خلف ظهرها أجبرتاها على رفع رأسها . وانقطع المطر، ولكنها كانت قد تحملت المطر ثلاثة أرباع الطريق ، فرسم الماء الذى سال على ثوبها الصوفى المبتل خطوط جسدها الجميل ، وكأنها خارجة من الحمام . وأضفى عليها القميص الاحمر الذى ألبسها الجلاد اياه مظهرا عجيبا ، كما أضفى على وجهها الأبى الحى جلالا مشئوما . وحينما وصلت الى الميدان انقطع المطر وانبثق شعاع

من الشمس من بين غمامتين وانعكس على شعرها فجعله يسطع كهالة من نور . وأقسم انه رغم أن الموت كان يتعقب هذه الفتاة ، وهو شيء فظيع حتى ولو كان قصاصا للانسانية ، ورغم انى أكره هذا الموت ، فانى لم أعرف ما اذا كان ما أراه أمامى تأليها وتمجيدا أو اعداما . ولما أبصرت الفتاة آلة الاعدام شحب وجهها ، واشتد هذا الشحوب ، وخاصة بالنسبة الى القميص الاحمر الذى كان يكسوها حتى عنقها ، ولكنها جاهدت بسرعة حتى استطاعت أن تواجه الآلة وتنظر اليها باسمة .

وتوقفت العربة ، وقفزت شارلوت الى الارض دون أن تسمح لأحد بأن يساعدها ، ثم ارتقت درجات المقصلة التى أصبحت زلقة بفعل المطر المنهمر ، مسرعة بقدر ما سمح لها قميصها الطويل المتدلى خلفها ويداها المغلولتان . وشحب وجهها ثانية عندما وضع الجلاد يده على كتفها لينزع المنديل الذى يغطى عنقها ، ولكنها فى اللحظة نفسها أشرقت بابتسامة أخيرة تتحدى هذا الشحوب ، وبحركة يشوبها شيء من المرح وضعت رأسها فى فتحة المقصلة البشعة ، دون أن يقسرها أحد على ذلك . وهوى السكين الباتر ، وانفصل الرأس عن الجسد وسقط على الارض وتدحرج . وحدث عندئذ ، واسمع هذا جيدا أيها الطبيب ، وأنت أيها الشاعر ، حدث عندئذ أن تقدم أحد مساعدى الجلاد ويدعى « لجروس » فأمسك الرأس من الشعر وصفع الوجه ، بدافع من تملق خسيس للجمع المحتشد . حسن ! أؤكد لكم ان الرأس قد احمر على اثر هذه الصفعة . لقد رأيت الرأس كله ، لا الخد فحسب ، أتسمعون؟ ليس الخد المصفوع وحده ولكن الخدين .. احمرا بدرجة واحدة ، لأن الاحساس كان ولم يزل حيا فى هذا الرأس ، فغضب لهذه الاهانة الغاشمة . وشهد الناس هذا الاحمرار وانحازوا الى جانب الميتة ضد الحى ، الى جانب الضحية ضد الجلاد ، ونادوا بالثأر ضد هذه الدناءة فى نفس الزمان والمكان . وفى نفس الزمان والمكان سلموا الشقى الى رجال الشرطة فاقتادوه الى السجن . انتظر (ووجه السيد ليدرو خطابه الى الطبيب الذى أراد أن يتكلم) انتظر ، ليس هذا كل شيء . أردت أن أعرف الباعث الذى دفع هذا الرجل الى ارتكاب عمله الدنيء ، فاستقصيت عن المكان الموجود به ، وطلبت اذنا بزيارته فى الدير الذى سجن فيه ،

وحصلت على الاذن ومضيت لزيارته . وكانت محكمة الثورة قد حكمت بحبسه ثلاثة أشهر . ولم يفهم هو كيف يصدر عليه مثل هذا الحكم من أجل عمل طبيعى كالذى أتاه . وسألته عما دفعه الى هذا العمل فقال : « ياله من سؤال ! اننى من أنصار مارات (١) ، وقد نفذت فيها حكم القانون ، ثم أردت أن أعاقبها بعد ذلك لحسابى الخاص ؟ » .

ـ ولكن ألا تعلم أن الاعتداء على الموتى جريمة أخرى ؟

فحدجنى لجروس بنظرة ثابتة وقال : « آه ! هذا ! أتظن ان هؤلاء الناس قد ماتوا حين فصلت المقصلة رءوسهم ! » .

ـ بلا شك ..

ـ حسن ، يبدو أنك لم تنظر الى السلة والرءوس بداخلها ، ولم ترهم وهم يديرون أعينهم ويصرون على أسنانهم خمس دقائق بعد التنفيذ . اننا نضطر الى تغيير السلة كل ثلاثة أشهر لأنهم يقرضون قاعها بأسنانهم . تلك الرءوس الارستقراطية لا تريد أن تموت ولن أدهش اذا سمعت أحدها يصيح ذات يوم « يحيا الملك ! » .

وعرفت وقتئذ كل ما أردت أن أعرفه ، وخرجت تلح على فكرة واحدة : ان هذه الرءوس تعيش فى الواقع فترة من الزمن بعد فصلها . وصح عزمى على أن أستوثق من ذلك بنفسى .

---

(١) مارات من زعماء الثورة ، طعنته شارلوت كورداى بخنجر فى حمام لتثأر كما قالت ـ لضروب الاذى التى أوقعها بأنصار « الجيروند » وأعدمت بسبب ذلك ـ المترجم

سولانج



(٦) سولانج

بينما كان السيد ليدرو يواصل حديثه ، أقبل الليل ، وبدا الموجودون بالقاعة كالاشباح ، أشباح صامتة جامدة ، تخشى أن يكف السيد ليدرو عن حديثه ولا يتم قصته . وكنا ندرك أن وراء القصة الرهيبة قصة أخرى أفظع منها ، ولذا لم تصدر منا همسة واحدة ، ولم يفتح فمه سوى الطبيب . ولكنى أمسكت يده لأمنعه من الكلام فسكت . وبعد ثوان واصل السيد ليدرو حديثه : خرجت من الدير ، وبينا أنا أجتاز ميدان « تاران » متجها الى شارع « تورون » حيث أقطن ، سمعت صوت امرأة تستغيث . ولم يكن فى الأمر جريمة ومجرمون ، فالساعة لم تكن قد تجاوزت العاشرة مساء ، فركضت نحو ركن الميدان الذى صدر منه الصوت ، ورأيت فى ضوء القمر الساطع خلال سحابة امرأة تناضل وسط دورية من الشرطة ، ورأتنى المرأة وعرفت من ردائى اننى لست من عامة الشعب فاندفعت نحوى صائحة : « أيه ، قفوا ، انظروا ها هو السيد البير الذى أعرفه ، يخبركم اننى ابنة الأم « لوديو الغسالة » ، وفى الوقت نفسه أمسكت المرأة المسكينة بذراعى وهى ترتعد شاحبة الوجه ، وتعلقت بى كما يتعلق الغريق بلوحة خشبية .

ـ قد تكونين ابنة الأم لوديو ، ولكن ليس معك بطاقة شخصية أيتها البنت الجميلة ، فسيرى معنا الى مركز الحرس .

فضغطت المرأة الصغيرة على ذراعى ، وشعرت بما فى تلك الضغطة من رعب وتوسل ، وفهمت . ولما كانت قد نادتنى بأول اسم خطر لها فقد ناديتها أنا أيضا بأول اسم خطر لى :

ـ كيف ! هذى أنت يا سولانج المسكينة ! ماذا حدث لك ؟

ـ اترون أيها السادة ؟
ـ يبدو انه باستطاعتك ان تقولى « المواطنين » .
ـ اسمع ياسيدى الجاويش ، ليس الخطأ خطئى اذا كنت أتكلم بهذه اللهجة ، فأمى كانت تعمل بالاوساط الراقية ، فعودتنى أن أكون مهذبة ، وتعلقت بى هذه العادة السيئة ـ واعترف بذلك ـ وأن أسلك سلوك الارستقراطيين . ولكن ما العمل أيها الجاويش ، اننى لا استطيع التخلص من هذه العادة .

كان فى هذا الرد المرتجف سخرية غير ملموسة ، أدركتها أنا وحدى ، وتساءلت من تكون هذه المرأة ؟ وكان يستحيل الاجابة عن هذا السؤال ، كنت متيقنا فقط انها ليست ابنة غسالة .

ـ ما حدث لى ، أيها المواطن البير ؟ اليك ما حدث لى. تصور اننى ذهبت لأعيد بعض البياضات فوجدت أن سيدة المنزل قد خرجت فانتظرت، عودتها لأقبض أجرى . يا للزمن ! كل انسان يحتاج اليوم الى نقود . وأقبل الليل . وكنت أظن اننى سأعود قبل أن ينقضى النهار ولذا لم آخذ معى بطاقتى الشخصية . ثم وجدت نفسى وسط هؤلاء السادة ـ عفوا ـ أقصد المواطنين ، فسألونى عن بطاقتى، فقلت لهم ليست معى بطاقة ، فأرادوا اقتيادى الى مركز الحرس ، فصحت ، وأسرعت أنت الى ، وأنت من معارفى ، وعندئذ اطمأن قلبى وقلت لنفسى : ما دام السيد البير يعرف ان اسمى سولانج واننى ابنة الأم لوديو فانه سيضمننى.. أليس كذلك ياسيد البير ؟
ـ طبعا ، أضمنك ، على مسئوليتى .
فقال رئيس الداورية : حسن، ومن يضمنك عندى أيها السيد ؟
ـ دانتون ، أيكفيك ؟ أهو مواطن صالح ؟
ـ آه ! اذا ضمنك دانتون فليس لدى ما أقوله .
ـ حسن، اليوم اجتماع فى نادى الكوردوليه ، هلم بنا الى هناك.
ـ هيا بنا ، هيا أيها المواطنون ، الى الأمام سر !

وكان نادى الكوردولييه فى دير الفرنسيسكان القديم بشارع الاوبسرفانس ، فوصلنا اليه فى لحظة ، وأمام باب النادى ، نزعت قصاصة ورق من محفظتى وكتبت عليها بالقلم الرصاص بضع كلمات، وناولتها للجاويش ورجوته أن يوصلها الى دانتون ، وبقينا نحن فى حراسة الاونباشى والدورية . ودخل الجاويش النادى ثم عاد ومعه

دانتون الذى قال :
ـ كيف ؟ انت المقبوض عليه ؟ أنت ، صديقى وصديق كاميى ! وانت من افضل انصار الجمهورية ! هيا أيها الجاويش (والتفت الى رئيس الشرطة) اننى كفيله عندك ، أيكفيك هذا ؟

فأجاب الجاويش العنيد : كفيله ، ولكن هل تتكفل عنها هى ؟
ـ عنها ؟ عمن تتكلم ؟
ـ يا الهى ، عن هذه المراة .
ـ عنه وعنها ، وكل من معه ، أيكفيك هذا ؟
ـ نعم ، أنا مسرور ، خاصة وقد رأيتك .
ـ آه ! بالله عليك ! لك هذا السرور بلا مقابل ، انظر الى كما تشاء ما دمت معك هنا .
ـ شكرا ، واصل دفاعك عن مصالح الشعب ، واطمئن ، فسيحفظ لك الشعب هذا الجميل .
ـ آه ! نعم ! هذا ما عزمت عليه .
ـ اسمح لى أن أصافحك .
ـ ولم لا ؟
وأعطاه دانتون يده .
فصاح الجاويش : يحيا دانتون !
وردد أفراد الداورية : يحيا دانتون !
وابتعدوا بقيادة رئيسهم الذى ما أن سار عشرة خطوات حتى التفت ولوح بقبعته الحمراء وصاح ثانية صيحة رددها رجاله : يحيا دانتون ! وكنت على وشك أن أشكر دانتون حين سمعنا أصواتا آتية من داخل النادى تناديه :
دانتون ! دانتون ! الى المنبر ! فقال لى : « عفوا ياعزيزى ، انسمع ؟ صافحنى ودعنى أدخل . اننى أعطيت الجاويش يدى اليمنى فاليك اليسرى ، من يدرى ، فلعل المواطن الصالح مصاب بالحرب ! » . واستدار قائلا بصوته الجهورى الذى كان يثير عواصف الشارع ويهدئها : « هأنذا ، انتظرونى » .

واندفع الى داخل النادى . وبقيت وحدى عند الباب مع رفيقتى المجهولة .
ـ والآن ياسيدتى ، الى أين أوصلك ؟ أنا فى خدمتك .
فقالت متضاحكة : يا الهى ! عند الأم ليديو ، أنت تعلم حق

العلم أنها أمى .

– ولكن أين تقطن الأم ليديو ؟

– بشارع فيرو رقم ٢٤ .

– هيا بنا الى الأم ليديو ، بشارع فيرو رقم ٢٤ .

وقطعنا كل الطريق دون أن يجرى بيننا أى حديث ، ولكنى استطعت أن أفحصها فى هدوء فى ضوء القمر الساطع فى كامل بهائه . وكانت فتاة جذابة فى العشرين الى الثانية والعشرين ، شقراء ، بعينين زرقاوين واسعتين، يغلب فيهما المرح على الحزن ، وأنف دقيق مستقيم ، وشفتين ساحرتين ضاحكتين ، وأسنان كاللآلىء ، ويدى ملكة ، وقدمى طفل . ومع كل هذا فانها تحتفظ تحت الرداء الشعبى المتواضع ، رداء ابنة الأم ليديو ، بذلك المظهر الارستقراطى الذى أثار بالفعل شكوك الجاويش الطيب ودوريته المشاكسة .

ولما وصلنا الى الباب توقفنا ونظر كل منا الى الآخر برهة فى صمت . وابتسمت مجهولتى الحسناء وقالت :

– حسن ، ماذا تريد منى ياسيدى العزيز البير ؟

– أريد أن أقول لك يا عزيزتى الآنسة سولانج ، اننا لم نكن لنلتقى ما دمنا سنفترق بهذه السرعة .

– عفوا مليون مرة ، بل أرى على العكس من ذلك ان هذا اللقاء يستحق كل هذا العناء ، اذ لو لم أقابلك لاقتادنى الشرطة الى مركز الحرس ولاكتشفوا هناك اننى لست ابنة الأم ليديو ، واننى أرستقراطية ، وكان من المحتمل أن تقطع رقبتى .

– تعترفين اذن انك أرستقراطية ؟

– لا أعترف بشىء .

– هيا ، قولى لى اسمك على الأقل .

– سولانج .

– تعرفين جيدا أن هذا الاسم الذى ارتجلته ليس اسمك .

– لا أهمية لذلك ! فأنا أحب أن احتفظ به من أجلك على الاقل .

– ما الداعى الى احتفاظك به من أجلى ، ما دمت لن أراك ثانية؟

– لا أقول هذا . انما أقول فقط اننا اذا كنا سنتقابل ثانية فلا فائدة من أن تعرف اسمى الحقيقى أو ان أعرف اسمك الحقيقى . لقد ناديتك باسم البير . فاحتفظ بهذا الاسم . كما

احتفظ انا باسم سولانج .

ـ حسن ! فليكن ، ولكن اسمعى يا سولانج ..

ـ انا مصغية اليك يا البير ..

ـ انت أرستقراطية . أتعترفين بذلك ؟

ـ ان لم أعترف فسوف تخمن أنت ذلك ، أليس كذلك ؟ وعليه فان اعترافى يفقد الكثير من قيمته .

ـ وهم يطاردونك من أجل صفتك الارستقراطية هذه ؟

ـ شيء كهذا .

ـ وتختفين هربا من هذه المطاردة ؟

ـ فى شارع فيرو رقم ٢٤ عند الأم ليديو التى كان زوجها حوذيا عند أبى ـ وهكذا ترى انى لاأخفى عنك سرا .

ـ وابوك ؟

ـ انا لا أخفى عنك اسرارى يا عزيزى السيد البير ، أما اسرار أبى فلا تخصنى ، وأبى مختبيء بدوره فى انتظار سنوح الفرصة للهجرة ، هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك .

ـ وأنت ، ماذا تنوين عمله ؟

ـ أن أرحل مع أبى اذا أمكن ، والا فانى أتركه يرحل وحده ثم الحق به بعد ذلك .

ـ وعندما قبض عليك هذا المساء ، هل كنت عائدة من زيارة أبيك ؟

ـ نعم كنت عائدة من عنده .

ـ استمعى الى يا عزيزتى سولانج .

ـ أنا مستمعة اليك .

ـ لقد رأيت ما حدث هذا المساء !

ـ نعم ، وقد أعطانى ذلك فكرة عن مبلغ نفوذك .

ـ أوه ! ليس نفوذى بالشيء الكبير لسوء الحظ ، ومع ذلك فلى بعض الاصدقاء .

ـ عرفت أحدهم هذا المساء .

ـ وهو ليس من الشخصيات الضعيفة فى هذا الوقت .

ـ أتريد أن تستخدم نفوذه فى مساعدة والدى على الهرب ؟

ـ لا ، اننى أحتفظ بنفوذه من أجلك أنت .

ـ ومن أجل أبى ؟

ـ عندى وسيلة أخرى لأبيك .

فأمسكت سولانج بيدى ونظرت الى بلهفة وصاحت :
ـ عندك وسيلة أخرى ؟
ـ اذا أنقذت أبيك ، هل تذكرينني بالخير ؟
ـ أوه ! سأظل عارفة نجميلك طول حياتى .

نطقت بهذه الكلمات بنغمة ساحرة ملؤها الاعتراف المسبق بالجميل . ثم نظرت الى وقالت متوسلة :
ـ ولكن ، أيكفيك هذا ؟
ـ نعم .
ـ اذن فأنا لم أخطىء ، أنت نبيل النفس . أشكرك باسم أبى واسمى ، وحتى اذا لم توفق فى مسعاك فانى لن أكون أقل اعترافا لك بالفضل .
ـ متى نتقابل ثانية يا سولانج ؟
ـ متى تريد رؤيتى ؟
ـ أملى أن أستطيع غدا أن أخبرك بأمر سار .
ـ حسن ، لنتقابل غدا .
ـ أين ؟
ـ هنا ، ان شئت .
ـ هنا فى الشارع ؟
ـ ايه ، يا الهى ! ترى ان هـذا آمن مكان . فمنذ نصف ساعة ونحن نتحدث أمام هـذا الباب ولم يمر بنا أحد .
ـ لم لا أصعد عندك ، أو لم لا تأتى عندى ؟
ـ لأنك اذا دخلت عندى عرضت الناس الطيبين الذين آوونى فى دارهم للخطر ، واذا ذهبت عندك عرضت أنت للخطر .

ـ أوه ، حسن! فليكن، سآخذ بطاقة احدى قريباتى وأعطيها لك.
ـ نعم ، حتى تعدم قريبتك على المقصلة اذا قبض على أنا .
ـ صدقت ، سأحضر لك بطاقة باسم سولانج .
ـ عظيم ! سترى ان اسم سولانج سيكون فى النهاية اسمى الحقيقى الوحيد .
ـ فى أية ساعة نتقابل ؟
ـ فى نفس الوقت الذى تقابلنا فيه اليوم ، فى العاشرة اذا شئت
ـ فليكن ، فى العاشرة .
ـ وكيف نتقابل ؟

ـ أوه ! لا صعوبة فى ذلك ، فى العاشرة الا خمس دقائق تقف انت بالباب ، وفى العاشرة تماما ، انزل أنا .
ـ أذن ، الى العاشرة غدا يا عزيزتى سولانج .
ـ العاشرة غدا يا عزيزى ألبير .
وأردت ان أقبل يدها ، ولكنها قدمت لى جبينها .

وفى الساعة التاسعة والنصف من مساء اليوم التالى كنت فى الشارع ، وفى العاشرة فتحت سولانج الباب. لقد بادر كل منا الى اللقاء قبل الموعد . وتقدمت منها خطوة واحدة .

قالت باسمة : ارى ان عندك أخبارا سارة .
ـ للغاية ، اليك أولا بطاقتك .
ـ أبى أولا .
ـ سينجو أبوك اذا شاء .
ـ تقول اذا شاء ، فماذا يجب عليه أن يعمل ؟
ـ أن يثق بى .
ـ هذا شىء قد تم .
ـ أرأيته ؟
ـ نعم .
ـ لقد عرضت نفسك للخطر .
ـ وما العمل ؟ يجب أن أفعل ذلك ، والله معى .
ـ أقلت لأبيك كل شىء ؟
ـ قلت له انك أنقذت حياتى بالامس، وانك قد تنقذ حياته غدا .
ـ غدا ، نعم غدا أنقذ حياته اذا أراد .
ـ كيف ذلك ؟ قل ، تكلم . يالها من مقابلة مدهشة هذه التى جرت لى اذا نجح كل هذا التدبير !
قلت فى تردد : ولكن ...
ـ حسن !
ـ لايمكنك ابدا أن ترحلى معه .
ـ ألم أقل لك اننى قد عقدت العزم على ذلك ؟
ـ ومن جهة أخرى فانى على ثقة من أن آتيك فيما بعد بجواز مرور .
ـ لنتكلم أولا عن أبى ، ثم نتكلم فيما بعد عن نفسى .
ـ حسن ، قلت لك ان لى أصدقاء ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .
ـ ذهبت اليوم لرؤية أحدهم .
ـ وبعد ؟
ـ هو رجل تعرفين اسمه ، واسمه آية على الشجاعة والشرف والاخلاص .
ـ وهذا الاسم هو ...
ـ مارسو .
ـ الجنرال مارسو ؟
ـ تماما .
ـ صدقت ، اذا كان قد وعد بشيء فسوف يبر بوعده .
ـ حسن ! لقد وعد .
ـ يا الهى ! كم أنا سعيدة ! قل بماذا وعد .
ـ وعد أن يخدمنا .
ـ كيف ذلك ؟
ـ آه ! بطريقة بسيطة للغاية ، لقد عينه كليبر قائدا عاما لجيش الغرب ، وسيرحل فى مساء الغد .
ـ مساء الغد ؟ لن يكون أمامنا اذن الوقت الكافى لاعداد أى شيء
ـ ليس لدينا ما نعده .
ـ لا أفهم .
ـ سيأخذ معه والدك .
ـ أبى !
ـ نعم ، بصفة سكرتير .. وعند وصولهما الى « فاندى » يتعهد والدك لمارسو بألا يحارب ضد فرنسا ، وفى غضون الليل يدخل أحد معسكرات فاندى . ومنه يرحل الى انجلترا . وحين يستقر فى لندن يبعث اليك بأخباره . وفيما بعد أزودك بجواز مرور وتلحقين به فى لندن .

فصاحت سولانج : غدا ! سيرحل أبى غدا !..
ـ ولكن ليس لدينا وقت نضيعه .
ـ لم يخطر أبى بالموضوع .
ـ أخطريه .
ـ هذا المساء ؟
ـ هذا المساء ..

– وكيف اخطره فى مثل هذه الساعة ؟
– معك بطاقة ، واليك ذراعى .
– صدقت ، أين بطاقتى ؟
وأعطيتها البطاقة فوضعتها فى صدرها .
– والآن هات ذراعك .

وأعطيتها ذراعى وسرنا حتى ميـدان تاران حيث تقابلنا بالامس فقالت لى : « انتظرنى هنا » . فامتثلت وانتظرت . واختفت فى ركن فندق « ماتينيون » القديم ، وبعد ربع ساعة ظهرت وقالت : تعال ، يريد أبى أن يراك ويشكرك . وأمسكت ثانية بذراعى وسارت بى الى شارع « سان جوييوم » أمام فندق « مورتمار » ، وهناك تناولت مفتاحا من جيبها وفتحت بابا صغيرا خفيا ، وأخذتنى من يدى وسارت بى حتى الطابق الثانى وقرعت الباب بطريقة خاصة. وفتح الباب رجل فى الثامنة والاربعين الى الخمسين ، يرتدى ثوب عامل يزاول حرفة تجليد الـكتب ، ولـكنه لم يكد يفوه بعبارات الشكر الاولى حتى عرفت فيه نبيلا عريقا .

قال لى : سيدى ، لقد أرسلتك الينا العناية الالهية .. أحقا تستطيع أن تنقذنى ، بل وتريد ذلك ؟

فحكيت له كل شيء ، وكيف ان مارسـو تعهد بأن يضمه اليه كسكرتير ، ولم يطلب نظير ذلك سوى أن يعده بألا يحمل سلاحا ضد فرنسا .

– أعدك بذلك بكل اخلاص وارتياح ، وسأجدد الوعد أمامه .
– أشكرك باسمه وباسمى .
– ولـكن متى يرحل مارسو ؟
– غدا .
– أمن الضرورى أن أقابله الليلة ؟
– وقتما تشاء ، انه ينتظرك فى أى وقت .

فنظر الأب والابنة كل منهما الى الآخر . وقالت سولانج : « أعتقد يا أبى انه من الحكمة أن تذهب اليه هذا المساء » .
– فليكن ، ولـكن اذا قبض على أحد فليس معى بطاقة .
– اليك بطاقتى .
– وأنت ؟
– أوه ! اننى معروف .

ـ اين يقطن مارسو ؟
ـ بشارع الجامعة رقم ٤٠ مع اخته الآنسة ديجرافييه مارسو.
ـ هل ترافقنى ؟
ـ سأتبعك من الخلف لأعود بالآنسة بعد أن تدخل .
ـ وكيف يعرف مارسو اننى الرجل الذى كلمته عنه ؟
ـ اعطه هـذه الشـارة الثلاثية الألوان ، فهى وسيلة التعرف.
ـ وماذا أؤدى لمنقذى ؟
ـ أى تعهد الى بالمحافظة على سلامة ابنتك ، كما عهدت هى الى بأمر سلامتك .
ـ هيا بنا .

ولبس قبعته وأطفأ الأنوار . ونزلنا فى ضوء شعاع من القمر تسلل من النوافذ الى السلم . وعند الباب أخذ بذراع ابنتـــه وانحرف الى اليمين وسار فى شارع « سان بيير » ثم شارع الجامعة وسرت فى أعقابهما على بعد عشر خطوات . ووصلنا المنزل رقم ٤ دون أن نقابل أحدا ، فاقتربت منهما وقلت : هـذا من حسن الحظ والآن ، أتريد أن أنتظر أو أصعد معكما ؟

ـ لا، لاتعرض نفسك للخطر أكثر من ذلك ، انتظر ابنتى هنا.

واستجبت لطلبه ، وقال لى وهو يمد يده : مرة أخرى أشكرك، والوداع ، انى لا أملك من الـكلمات ما أعبر بها عن مشـــاعرى نحوك وأرجوالله أن يساعدنى يوما فى أن أثبت لك مقدار عرفانى بجميلك

فأجبته بالضغط على يده . ودخل تتبعه سولانج ، التى ضغطت هى أيضا على يدى قبـل أن تدخـل . وبعد عشر دقائق فتح الباب ثانية .

قلت لها : حسن ؟

ـ حسن ! ان صديقك هـذا أهل لصداقتك ، أقصـد انه فى غاية الرقة ، ويعلم اننى أود لو بقيت مع أبى ساعة الرحيل ، فأعدت لى أخته فراشـا فى غرفتها . وفى الساعة الثالثة بعد ظهر غد يكون أبى بعيدا عن كل خطر . واذا كنت ترى أن عبـارات الشكر التى تقدمها لك ابنة تدين لك بسـلامة أبيها تستحق أن تـكلف خاطرك من أجلها ، فتعال لتلقـاها فى العاشرة من مسـاء الغد ، فى مثل هذا الوقت بشارع فيرو .

ـ اوه ! بالتأكيد ، سأذهب . الم يقل لك والدك شيئا عنى ؟

— انه يشكرك من اجل بطاقتك ، وها هى ذى ، ويرجوك ان تلحقنى به فى أقرب وقت مستطاع. فأجبتها وقد انقبض صدرى:

— سيتم ذلك عندما تشائين يا سولانج .

— يجب على الاقل أن أعلم أين سألحق بأبى . اوه ! انك لم تتخلص منى بعد .

فأخذت يدها وضغطت بها على قلبى ، ولكنها قدمت جبينها كما فعلت بالامس وقالت : الى الغد !

ولما ضغطت بشفتى على جبينها ، كنت أضغط فى الوقت نفسه بيدها وصدرها المرتجف وقلبها النابض على قلبى . وعدت الى منزلى منشرح الصدر بدرجة لم أشعر بها من قبل . فهل كان ذلك نتيجة لشعورى بالعمل الطيب الذى قمت به ، أو لأنى أحببت هذه المخلوقة البديعة ؟

ولم أدر أنمت أم سهرت ، ولكنى أعلم ان كل أنغام الطبيعة المتناسقة كانت تصدح فى أرجاء نفسى ، وأن الليل بدا لى كأن ليس له آخر ، والنهار طويل للغاية ، وأعلم اننى كنت أستحث الوقت ليمر ، ومع ذلك أود أن أوقف سيره حتى لا أفقد لحظة واحدة من الايام الباقية فى حياتى .

وفى الساعة التاسعة من مساء اليوم التالى كنت فى شارع فيرو. وفى التاسعة والنصف ظهرت سولانج وأقبلت نحوى وألقت بذراعيها حول عنقى وقالت :

— لقد نجا ، نجا والدى، وانا مدينة لك بسلامته! أوه! كم أحبك!

وبعد خمسة عشر يوما تسلمت سولانج خطابا ينبئها بأن أباها فى انجلترا . وفى اليوم التالى أحضرت لها جواز مرور فلما تناولته أجهشت بالبكاء وقالت :

— أنت لا تحبنى اذن ؟

— أحبك أكثر من حياتى ، ولكنى وعدت أباك بشرفى ، ومن واجبى قبل كل شىء أن أفى بوعدى .

— اذن أنا التى سوف تنقض وعدها . اذا كانت عندك الشجاعة لتركى أرحل يا ألبير ، فانى لا أملك الشجاعة لفراقك .

وا أسفاه ! لقد بقيت .

ألبير



(٧) ألبير

ومرت لحظة سكون ، كما حدث فى المرة الاولى التى قوطع فيها حديث السيد ليدرو ، سكون احترمنـاه بخشوع أكثر من المرة الاولى ، فقد شعرنا أن القصة تقترب من نهايتها ، القصـة التى قال السيد ليدرو انه قد لايستطيع اتمامها ، ولـكنه لم يلبث أن واصل حديثه :

مرت ثلاثة أشهر منذ الليلة التى بحثنا فيهـا مسألة رحيـل سولانج . ومنذ تلك الليلة لم نفه بكلمة واحدة عن الفراق . ورغبت سولانج أن تتخذ لها مسكنا فى شارع تاران ، فاستأجرته لها باسم سولانج ، اذ لم أعرف لها اسما سـواه ، كما لم تعرف هى لى اسما سوى ألبير ، وألحقتها بوظيفة مساعدة مدرسـة فى معهـد لصغار الفتيات حتى أضمن بعدها عن شرطـة الثورة السرية التى زاد نشاطها عن ذى قبل . وكنا نقضى معا يومى الاحد والخميس من كل أسبوع فى هـذه الشقة الصغيرة فى شارع تاران ، ونشاهد من نافذة غرفة النوم الميدان الذى تقابلنا فيه لأول مرة . وكنـا نتسلم كل يوم خطابين أحدهما باسم سولانج والثانى باسم ألبير . وكانت هذه الاشهر الثلاثة أسعد شهور حياتى .

وفى هذه الفترة ، لم أتخل عن الفكرة التى خطرت لى عقب حديثى مع مساعد الجلاد ، اذ تمكنت من الحصول على تصريح باجراء بعض التجارب عن ظاهرة استمرار الحياة فى المحكوم عليهم بعـد اعدامهم . وأثبتت لى هـذه التجارب ان الألم يستمر فى الجسم بعد الاعدام ، وانه لابد أن يكون فظيعا .

وهنا صاح الطبيب : آه ! هـذا ما أنـكره !

فواصل السيد ليدرو حديثه قائلا : أنظر ، أتنكر أن السـكين

تضرب أشد أجزاء الجسم حساسية ، لاحتواء هذا الجزء على مجموعة من الاعصاب ؟ أتنكر ان الرقبة تضم كل أعصاب أعضاء الجسم العليا ، العصب السمبتاوى وغيره ، وخاصة النخاع الشوكى الذى هو منبع الاعصاب المتصلة بالاعضاء السفلى ؟ أتنكر ان كسر العمود الفقرى أو سحقه يسبب ألما من افظع الآلام التى قد يقاسيها مخلوق بشرى ؟

الطبيب : فليكن ، ولكن هذا الألم لا يستمر الا بضع ثوان .

فصاح السيد ليدرو صيحة الواثق بنفسه : اوه ! وهذا هو ما أنكره بدورى ، ومع ذلك ، وعلى فرض استمرار الألم بضع ثوان ، فانه خلال تلك الثوانى يستمر الشعور بالشخصية ، و « الأنا » حيا ، فيسمع الرأس ويبصر ويشم ويدرك انفصال الجسد عنه ، ومن ذا الذى يقول ان قصر مدة الألم يعوض عن فظاعته ؟

— اذن فأنت ترى ان قرار الجمعية التأسيسية الذى استبدل المقصلة بالمشنقة كان قرارا خاطئا فى حق الانسانية وان الشنق أفضل من قطع الرأس ؟

— لاشك فى ذلك . هناك كثير من الذين شنقوا أو شنقوا أنفسهم قد عادوا للحياة . حسن ! استطاع هؤلاء أن يصفوا الشعور الذى انتابهم . انه الشعور بسكتة صاعقة ، أى بنوم عميق خال من أى ألم ، وأى شعور بالضيق ، فينبثق نوع من اللهب أمام العينين ويتحول شيئا فشيئا الى لون أزرق ثم ظلام حالك يصاحبه اغماء .

وأنت يا دكتور تعرف هذا الأمر أكثر من أى انسان آخر ، فاذا ضغطت بأصبعك على مخ انسان فى موضع عار من الجمجمة ، لم يشعر هذا الانسان بأى ألم ، بل ينام . حسن ! تحدث مثل هذه الظاهرة اذا حدث ضغط على المخ نتيجة لتراكم الدم .

ففى حالة المشنوق يتراكم الدم أولا ، لأنه يدخل المخ عن طريق الشرايين الفقرية التى تمر من قنوات عظام الرقبة ، فلا يعوق مرورها شىء ، فاذا حاول الدم العودة مندفعا فى أوردة الرقبة يجد أن طرقه قد سدت بسبب الرباط الذى يشد على الرقبة والعروق .

ــ فليكن ، ولنعد الى التجارب . اننى اتلهف الى معرفة قصة الرأس الذى تـكلم .

وخيل الى اننى سمعت آهة تخرج من صدر السيد ليدرو ، غير انه لم يكن فى المستطاع رؤية وجهه فى ظلام الليل الحالك .

ــ نعم ، لقد اسـتطردت فى الواقع .. ولنعد الى تجاربى . ولسوء الحظ لم تـكن مادة التجارب لتعوزنى . كنا آنئذ فى فترة اشـتد فيهـا تنفيـذ أحكام الاعدام ، فـكانت المقصـلة تزهق أرواح ثلاثين أو أربعين شخصا كل يوم ، فتسيل كمية كبيرة من الدماء فى ميـدان الثورة حتى اقتضى الأمر شق قناة عمقها ثلاثة أقدام حول قاعدة المقصلة ، وتغطيتها بألواح خشبية . وانقلبت احدى هـذه الالواح تحت قدم طفل فى الثامنة أو العاشرة من عمره فسقط فى الحفرة البشعة وغرق . وحرصت بالتـأكيد على ألا أخبر سولانج بما كنت أشـغل به وقتى فى الايام التى لم أكن أقابلها فيها . ولابد أن أقر بأننى شعرت بالاشمئزاز من هـذه الحطام البشرية حتى خشيت أن تسبب تجاربى آلاما أخرى تلحق بهؤلاء المنكودين ، ولـكننى أقنعت نفسى أخيرا أن هذه الدراسات التى كرست نفسى لها كانت لصالح المجتمع كله ، فاذا نجحت فى أى وقت كان فى اقناع عدد من المشرعين بآرائى ومعتقداتى فقـد أوفق فى الغاء عقوبة الموت . وكنت أسجل أولا بأول فى مفكرة خاصة النتائج التى أحصل عليها بتجاربى . وفى نهاية شـهرين كنت قد أجريت كل التجارب الممكنة المتعلقة بموضوع استمرار الحياة فى الجسم بعد الاعدام . وصح عزمى أن أتقدم بهـذه التجارب الى أبعد من هذا الحد ، وعلى قدر المستطاع ، بالاستعانة بالـكهرباء بأنواعها . وقد وضـعت مقبرة كلامار وكل الجثث والرءوس التى فصلتها المقصلة تحت تصرفى . وحولت كنيسـة صغيرة قائمة فى أحد أركان المقبرة الى معمـل خاص لتجاربى . وكان لى فى هذا المعمل جهاز كهربى ، وثلاثة أو أربعة من الاجهزة المسماة (المثيرات الـكهربية) ..

وكانت الشحنة الرهيبة تصل هناك حوالى الساعة الخامسة ، وتأتى الجثث مكدسة بعضها فوق بعض فى العربة بلا نظـام

والرءوس كلها فى كيس ، فأتناول منها كيفما اتفق رأسا أو رأسين وجسدا أو جسدين ، وتلقى باقى الجثث والرءوس فى الحفرة العامة . وكانت الجثث والرءوس التى أجرى تجاربى عليها تضم الى شحنة اليوم التالى . وكان أخى يعاوننى فى اجراء هذه التجارب .

وفى خلال هذه الاتصالات بالموتى ، كان حبى لسولانج ينمو على مر الايام ، وكانت الطفلة المسكينة تحبنى بكل ما فى قلبها من قوة . وكثيرا ما فكرت أن أتزوجها ، وكثيرا ما تخيلنا سعادتنا بهذا الاتحاد ، ولكن كان لا مفر من أن تذكر سولانج اسمها الحقيقى لكى تغدو زوجتى ، وكان اسمها الحقيقى ، وهو اسم رجل أرستقراطى مهاجر محكوم عليه بالاعدام ، يحمل فى طياته الموت . وكتب اليها والدها مرارا يتعجل رحيلها ، ولكنها انبأته بحبنا وطلبت موافقته على زواجنا ، فوافق . وعلى هذا سارت الأمور على ما يرام من هذه الناحية .

غير انه ثارت قضية رهيبة ، أشد رهبة من سائر قضايا تلك الفترة ، أقضت مضاجعنا نحن الاثنين ، قضية مارى انطوانيت التى بدأت فى ٤ من أكتوبر واستمرت على أشدها . وفى ١٤ من أكتوبر وقفت مارى انطوانيت أمام محكمة الثورة . وفى الساعة الرابعة من صباح ١٦ من أكتوبر صدر الحكم بادانتها ، وفى الحادية عشرة صعدت على منصة المقصلة . وفى الصباح تسلمت رسالة من سولانج تخبرنى فيها أنها لا تريد أن يمر عليها ذلك اليوم دون أن ترانى . وعلى ذلك وصلت الى شقتنا الصغيرة فى شارع تاران فى حوالى الساعة الثانية ووجدت سولانج تبكى بحرقة ، وكنت أنا حزينا لتنفيذ هذا الحكم فقد كانت الملكة تعطف على وأنا صغير فاحتفظت لها بذكرى عميقة . وا حسرتاه ! لم أزل أذكر هذا اليوم ، وكان يوم أربعاء ، وقد عم الحزن باريس ، وسادها الرعب . اما انا فقد انتابنى تخاذل عجيب وشعور بتوقع مصيبة كبيرة .

وحاولت أن أشد من عزيمة سولانج التى راحت تبكى وهى مرتمية بين ذراعى ، ولكن أعوزتنى عبارات العزاء ، فقد هجر العزاء قلبى . وأمضينا الليل معا كالمعتاد ، ليل أشد كربا من

النهار . وأتذكر أن كلبا محبوسا فى الشقة التى تعلو شقتنا ظل يعوى حتى الساعة الثانية صباحا ، وفى اليوم التالى علمنا نبأه :

لقد خرج صاحبه ومعه المفتاح ، وبينا هو يسير فى الشارع اذ قبض عليه وسيق الى محكمة الثورة التى أدانته فى الساعة الثالثة وأعدم فى الساعة الرابعة .

وكان لابد أن نفترق فان فصول سولانج تبدأ فى التاسعة صباحا ، وكانت المدرسة التى تذهب اليها قريبة من حديقة النباتات . وترددت مرارا فى أن أتركها تذهب الى هناك ،بل انها لم تستطع أن تقر عزمها على تركى . على انها كانت معرضة لتحريات تضر بمركزها أذا هى تخلفت يومين عن الحضور . ومن ثم استدعيت عربة ومضيت بها الى ركن شارع « حفائر سان برنار» حيث نزلت وتركتها لتواصل طريقها . وكنا طوال الطريق متعانقين صامتين ، تختلط دموعنا التى كانت تسيل حتى شفاهنا ، تختلط مرارتها بحلاوة القبلات . وأخيرا نزلت من العربة . وبدلا من أن أواصل طريقى ، وقفت متسمرا فى نفس المكان حتى أداوم النظر الى العربة التى تقلها أطول مدة ممكنة . وبعد مسيرة عشرين خطوة وقفت العربة وأطلت سولانج من النافذة وكأنما قد خمنت انى ما زلت فى مكانى ، فركضت اليها وصعدت الى العربة وأغلقت نوافذها وأخذتها مرة أخرى بين ذراعى . وسمعنا ساعة كنيسة « سانت اتيين دى مونت » تدق التاسعة ، فمسحت دموعها ، وأغلقت شفتيها بقبلات ثلاث ، وقفزت من العربة وابتعدت راكضا

وخيل الى أن سولانج نادت ثانية ، وكان فى استطاعتى أن الحظ كل هذه الدموع وهذا التردد ، الا أن القدر المحتوم شاء أن يهب لى من الشجاعة ما يمنعنى من العودة اليها .

ورجعت الى البيت يائسا ، وأمضيت اليوم أكتب الى سولانج ، وفى المساء أرسلت اليها الخطاب . وما أن ألقيت خطابى فى صندوق البريد حتى استلمت خطابا منها . لقد وبخوها فى المدرسة بشدة ، ووجهوا اليها العديد من الاسئلة وهددوها بالغاء أول تصريح لها بالخروج ، وكان محددا له يوم الاحد التالى . ومع ذلك اقسمت لى سولانج انها سوف تراني على أية حال حتى ولو أدى

ذلك الى قطع علاقتها بمديرة المدرسة . وأقسمت انا ايضا على ذلك ، فقد خيل الى انه لو مرت سبع ساعات دون أن أراها — وهذا ماسوف يحدث اذا لم تستعمل تصريحها الاول بالخروج — فانني سوف أجن . وفضلا عن ذلك ابدت سولانج شيئا من القلق، ذلك انه عند عودتها من المدرسة وجدت خطابا من أبيها ، وبدا لها انه قد فتح . وأمضت ليلة سيئة ونهارا أغبر وكتبت الى سولانج كالمعتاد . ولما كان هذا اليوم مخصصا لتجاربى فقد مررت على أخى فى حوالى الساعة الثالثة لأستصحبه الى «كلامار» ولم يكن أخى فى منزله ، فانصرفت وحدى ، وكان الجو رديئا للغاية ، والهواء مكفهرا ، والامطار تنهمر ، باردة متدفقة تنذر بحلول الشتاء . وعلى طول الطريق كنت أسمع صيحات الجماهير تزمجر بأصوات خشنة وتحصى قائمة المحكوم عليهم اليوم ، وكان عددهم كبيرا ، ومنهم رجال ونساء وأطفال ، ومن ثم كان المحصول وفيرا ، فلن تعوزنى مادة التجارب هذه الليلة .

وانقضى النهار مبكرا . وفى الساعة الرابعة وصلت الى كلامار وقد أقبل المساء . وكان منظر الجبانة بشعا تنقبض له النفس، بقبورها الواسعة التى حفرت حديثا ، وأشجارها القليلة التى تئن تحت ضغط الريح ، وكأنها هياكل عظمية . ولم يكن على سطح الارض سوى التربة المنبوشة والحشائش الشائكة ، وقد أخذت الارض المنبوشة تتسع رقعتها يوما بعد يوم فتجور على الارض الخضراء . وفى وسط كل هذه البروزات الارضية ظهرت حفرة اليوم فاغرة فوهتها فى انتظار فرائسها . ولما كان من المتوقع زيادة عدد المحكوم عليهم فقد جعلت الحفرة أوسع من المعتاد . ودنوت من الحفرة بحركة آلية ورأيت قاعها ممتلئا بالمياه . نياللمساكين .. أولئك الذين سوف تلقى جثثهم العارية الباردة فى هذا الماء الذى يماثلها فى برودته . ولما اقتربت أكثر ، زلت قدمى وكدت أسقط فى القاع ، ووقف شعر رأسى هلعا ، وقد ابتلت ثيابى وارتعدت أوصالى ، فأسرعت الى معملى .

كان معملى كما ذكرت فى كنيسة صغيرة قديمة ، فجعلت أدور بنظرى فى انحائها ابحث عن شيء ما ، لا أدرى ما هو ... كنت

ابحث عن أى أثر دينى على الحائط أو فى الموضع الذى كان فيما مضى محرابا ، ولكن الحائط كان عاريا والمحراب أجرد . وفى المكان الذى كانت فيه المظلة المقدسة ، رمز الآلهة ، أى الحياة نفسها ، وجدت جمجمة انسلخ منها لحمها وشعرها ، فهى رمز الموت والفناء.

وأضأت الشمعدان ووضعته على منضدة التجارب التى تكدست عليها أجهزة غريبة الشكل اخترعتها بنفسى . وجلست ، ورحت أحلم ... فيم كنت أحلم ؟ فى تلك الملكة المسكينة التى شهدتها فيما مضى جميلة سعيدة محبوبة ، والتى اقتيدت بالامس فى عربة السجن الى المقصلة تطاردها لعنات الشعب ، وترقد فى هذه الساعة فى مقبرة البؤساء ورأسها مفصول عن جسدها ، تلك التى كانت تنام تحت سقف مذهب بقصور التويلرى وفرساى وسان كلو .

وبينما كنت غارقا فى هذه الافكار القاتمة ، تضاعف هطول المطر وهبت ريح عاصفة تطلق أصواتها المفجعة النائحة بين أغصان الاشجار وسيقان الحشائش التى ترتجف تحت وطأتها ، وبعد قليل اختلط بهذا الضجيج صوت كهدير الرعد ، ولكنه لم يكن الرعد فى الفضاء ، بل صوت شىء يدق الارض فيرجها رجا ، صوت عجلات العربة الحمراء حاملة جثث المحكوم عليهم راجعة من ميدان الثورة وداخلة جبانة كلامار .

وفتح باب الكنيسة الصغيرة ودخل رجلان مبتلان يحملان كيسا ، أحدهما هو ليجروس نفسه الذى زرته فى السجن ، والآخر حفار القبور . وقال مساعد الجلاد : « هلم يا سيد ليدرو، اليك عملك ، ولا حاجة بك الى العجلة هذا المساء فسنترك لك كل هذه الشحنة ، وندفنهم غدا نهارا ، انهم لن يصابوا بالبرد اذا أمضوا الليل فى الخلاء » .

وأطلق ضحكة بشعة ووضع الكيس فى ركن الكنيسة بالقرب من مكان المحراب القديم وأمامى الى اليسار ، ثم خرج الرجلان دون أن يغلقا الباب الذى راح ينصفق بشدة آذنا الريح أن تمر متقطعة فتذبذب لهب الشمعدان الذى أصبح باهتا يتلاشى على طول

فتيلته السوداء . وسمعت الرجلين يفكان الحصان من العربة ويغلقان الجبانة وينصرفان تاركين العربة مملوءة بجثث القتلى .

وشعرت برغبة شديدة فى الانصراف معهما ، ولكنى لا أدرى ماالذى احتجزنى فى مكانى وأنا أرتجف . والشيء المؤكد اننى لم أكن خائفا ، ولكن صوت الريح والمطر المنهمر وصرخات الاشجار التى كانت تتلوى وصفير الهواء الذى كان يرتجف منه لهيب الشمعدان ، كل هذا ألهب رأسى برعب غامض امتد من جذور شعرى وشمل كل جسمى . وفجأة خيل الى ان صوتا رقيقا نائحا صادرا من قلب الكنيسة الصغيرة نطق باسم البير . أوه !.. يالها من صدمة ارتعدت منها فرائصى .. البير ! لا يوجد فى الدنيا غير شخص واحد ينادينى بهذا الاسم .

واستدارت عيناى الزائغتان تبحثان ببطء فى أنحاء الكنيسة التى لم يتمكن اللهب من اضاءة كل أجزائها على الرغم من ضيقها واستقر بصرى على الكيس القابع فى زاوية المحراب والذى كان نسيجه المنتفخ المخضب بالدماء يفصح عن محتوياته البشعة . وفى اللحظة التى استقر فيها بصرى على الكيس تردد الصوت نفسه ولكنه كان فى هذه المرة أضعف وأشد نواحا ، ونادى بنفس الاسم : ألبير ! وخيل الى ان هذا الصوت آت من داخل الكيس ، فاستقمت مرتعبا ، وتحسست جسمى لأعرف أنائم أنا أم يقظ ، ثم قمت وسرت وأنا جامد كالحجر ممدود الذراعين واتجهت الى الكيس وأدخلت فيه احدى يدى . وعندئذ خيل الى ان شفتين دافئتين تضغطان على يدى . وكنت فى حالة مفرطة من الرعب بعثت فى نفسى بعض الجرأة ، فأمسكت بذلك الرأس وعدت به الى مقعدى ، وتهاويت على المقعد ووضعت الرأس على المنضدة . وفجأة أطلقت صيحة رهيبة . اواه ! هذا الرأس الذى ما زالت شفتاه دافئتين وعيناه نصف مغلقتين ... هو رأس سولانج !

ولابد اننى جننت ، وصحت ثلاثا : سولانج ! سولانج ! سولانج! وفى المرة الثالثة تفتحت العينان ونظرتا الى وسقطت منهما دمعتان ، وانبعث منهما لهب مندى ، كأن الروح قد انسلت منهما ، ثم اغمضتا الى الابد .

ونهضت هائجا وقد طاش صوابى وأصابنى مس من الجنون ،

وأردت الفرار . وعند قيامي اشتبك ذيل سترتي بالمنضدة فانقلبت وسقط معها الشمعدان الذي انطفأ وتدحرج الرأس ، وسقطت أنا مذهولا ... وعندئذ خيل الي ، وأنا راقد على الارض ، انني رأيت الرأس ينزلق ويقترب من رأسي ، منحدرا مع ميل البلاط . حتى مست شفتاه شفتي ، وأخذتني رعشة باردة زلزلت كياني ، فتأوهت ورحت في غيبوبة. وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي وجدني اللحادون باردا كالبلاط الذي كنت راقدا عليه .

كانت شخصية سولانج قد عرفت من خطاب والدها فقبض عليها وحوكمت وأعدمت في اليوم نفسه . وكان الرأس الذي كلمني ؛ ونظرت الى عيناه ، وقبلت شفتي شفتاه ... هو رأس سولانج .

واستدار السيد ليدرو نحو الشفاليه وقال له : وأنت تعلم يالينوار انني أشرفت آنذاك على الهلاك .

القط والحاجب والهيكل العظمى



(٨) القط والحاجب والهيكل العظمى

كان لقصة السيد ليدرو على نفوسنا وقع رهيب فلم يخطر لأحد منا ، حتى الطبيب ، أن يغالب شعوره . ولما وجه السيد ليدرو خطابه الاخير الى الشفالييه لينوار ، أجاب هذا بايماءة بسيطة مؤيدة . أما السيدة الشاحبة التى كانت قد اعتدلت قليلا، على أريكتها فانها عادت فتهاوت على الوسائد ، ولم يبد منها ما يدل على الحياة سوى تنهدها ، وأما رئيس الشرطة الذى لم يجد فى كل هذا الحديث ما يستحق أن يثبته فى محضره ، فانه لم ينبس ببنت شفة ، وأما أنا فقد استوعبت أدق التفاصيل فى هذه الفاجعة ، وحفظتها فى ذاكرتى لأسترجعها اذا ما رغبت يوما فى أن أحكيها ، وأما أليت والقس مول ، فان هذه المغامرة كانت تؤيد تماما ما يعتقدانه ، فلم يحاولا الاعتراض .

وكان القس مول أول من قطع حبل السكون ، فقال معبرا عن الراى العام : اننى أصدق تماما كل ما قصصته علينا أيها العزيز ليدرو ، ولكن كيف تفسر ما حدث ؟

ـ اننى لم أفسره ، بل قصصته فقط .

وتساءل الطبيب : نعم ، كيف تفسر ؟ فمهما كان الأمر، ومهما استطالت الحياة فى الرأس ، فليس فى الامكان التسليم بأن راسا يتكلم وينظر ويتحرك بعد انقضاء ساعتين على انفصاله من الجسد.

ـ لو كان بوسعى ان افسر الأمر لنفسى لما أصبت بهذا المرض الخطير .

وقال الشفالييه لينوار : ولكن قل لى يادكتور ، كيف تفسر انت هذا الأمر ؟ اذ لايمكن أن تزعم بأن السيد ليدرو قد اخترع هذه القصة ليؤيد وجهة نظره ، فان مرضه كان حقيقة واقعة .

ـ بالتأكيد ؛ ولكن المسألة بسيطة . لقد خيل الى السيد ليدرو فى نوبة الهذيان انه رأى وسمع ، فاعتقد انه رأى ما رآه وسمع ما سمعه بالفعل ، ذلك ان الاعضاء التى توصل الاحساس الى المخ قد تختل بفعل بعض الظروف فتضطرب وينتج عن ذلك انها تنقل احساسات غير صحيحة ، فيظن المرء أنه يسمع ، فيسمع فعلا ، وانه يرى فيرى فعلا . وقد أثر البرد والمطر والظلام فى أعضاء السيد ليدرو فجعلها تضطرب . والمجنون أيضا يرى ويسمع ما يتوهم انه يراه ويسمعه . والهلوسة جنون وقتى يحتفظ المرء منه ببعض الذكريات بعد أن يزول مفعوله . هذى هى الحقيقة .

وتساءل القس مول : واذا لم يزل المفعول ؟

ـ حسن . عندئذ يدخل المريض فى طور الامراض المستعصية الى أن يموت .

ـ وهل عالجت مثل هذا المرض يا دكتور ؟

ـ لا ، ولكنى أعرف بعض الاطباء الذين عالجوا مثل هذا المرض ، ومنهم طبيب انجليزى كان يرافق « وولتر سكوت » فى رحلته الى فرنسا .

ـ هل قص عليك حالة معينة ؟

ـ نعم ، كتلك القصة التى رواها لنا مضيفنا ، وربما تكون أغرب

ـ طبعا .

ـ وفسرتها أنت من وجهتها المادية ؟

ـ طبعا .

ـ هلا تحكى لنا ذاك الحادث الذى قصه عليك الطبيب الانجليزى؟

ـ دون شك .

ـ آه ! احكها لنا يا دكتور ، هيا !

ـ أمن الضرورى ذلك ؟

وصاح الجميع : دون شك .

ـ حسن ! كان الطبيب الذى رافق « وولتر سكوت » فى فرنسا يدعى دكتور « سمبسون » وهو من أبرز الشخصيات فى كلية ادنبرة ، على صلة وثيقة بأكبر شخصيات المدينة ، ومن تلك الشخصيات قاض فى محكمة الجنايات لم يذكر لى اسمه ؛ فقد رأى من اللائق أن يحتفظ بهذا الاسم سرا ، وكان الطبيب يعود هذا القاضى للعناية بصحته دون أن يشكو القاضى من علة معينة

ظاهرة . ولكن حدث فجاة ان انهارت قوى القاضى بعد ان اعترته كآبة شديدة . واستوضح افراد اسرة القاضى الطبيب مرارا فى شأن المريض ، واستجوب الطبيب مريضه دون أن يستخلص منه أكثر من اجابات غامضة ضاعفت من قلقه وأكدت له أن فى المسألة سرا يكتمه . وذات يوم ألح الطبيب على مريضه بشدة حتى اعترف له بمرضه ، وتناول يديه وقال له وهو يبتسم بحزن :

– نعم ، أنا مريض ، ومرضى يادكتور عضال ، يستحيل علاجه وهو فضلا عن ذلك فى مخيلتى وحدها .

– كيف ! فى مخيلتك ؟

– نعم ، سأصبح مجنونا .

– مجنونا ! ومم ؟ أجبنى . نظرتك نظرة عقلاء ، وصوتك هادىء (يتناول يده) ونبضك رائع .

– وهذا يا دكتور هو السر فى خطورة حالتى ، اننى أشعر بها وأحكم عليها .

– ولكن أخبرنى عن موضوع جنونك .

– اغلق الباب يا دكتور حتى لا يضايقنا أحد ، وسأخبرك بما تريد .

فأقفل الطبيب الباب . ثم عاد وجلس بالقرب من صديقه .

قال له القاضى : أتذكر القضية الجنائية الاخيرة التى كنت مكلفا بالحكم فيها ؟

– نعم ، ضد قاطع طريق اسكتلندى ، حكمت عليه بالاعدام شنقا ، وشنق .

– تماما . حسن ! فى اللحظة التى نطقت فيها بالحكم ، انبثق شعاع من عينيه وهددنى بقبضة يده . ولم أهتم به ، فالمحكوم عليهم كثيرا ما يفعلون ذلك . غير انه فى اليوم التالى لتنفيذ الحكم حضر الجلاد الى منزلى واعتذر فى ذلة عن هذه الزيارة ، وصرح لى بأنه رأى من واجبه أن ينبهنى الى مسألة خاصة : ذلك أن اللص قبل أن يسلم الروح أقسم اننى سوف اسمع خبرا عنه فى الساعة السادسة من مساء اليوم التالى ، أى فى نفس الوقت الذى تم فيه تنفيذ الحكم . وظننت ان فى الأمر اعتداء مفاجئا ، أو انتقاما مسلحا يرتكبه أعوانه ضدى . وفى الساعة السادسة حبست نفسى فى مكتبى ومعى مسدسان على المكتب ،

وكنت طول اليوم مشغول البال بهذا الأمر. وعندما رنت الساعة آخر رنة ، سمعت همهمة لم أعرف مصدرها ، فاستدرت وأبصرت قطا كبيرا أسود مشربا بحمرة كاللهب . ولم أدر كيف دخل هذا القط حجرتى ، فالأبواب والنوافذ كلها مغلقة ، فلا بد انه كان محبوسا بها طول النهار .

ولم أكن قد ذقت أى طعام بعد الظهر ، فقرعت الجرس وأقبل خادمى ولكنه لم يستطع الدخول لأننى كنت قد أغلقت الباب من الداخل ، فقمت الى الباب وفتحته ، وحادثت الخادم عن القط الأسود الضارب الى الحمرة ، وبحثنا عنه عبثا ، فقد اختفى .

ولم أفكر فى الأمر بعد ذلك ، وانقضى المساء وأقبل الليل ثم النهار ، وانقضى اليوم ودقت الساعة السادسة ، واذا بى أسمع نفس الصوت آتيا من ورائى ، وأبصرت القط نفسه الذى وثب هذه المرة على ركبتى . ولم أكن أكره القطط ، ومع ذلك تضايقت من تصرف هذا القط المجرد من أى كلفة فطردته من فوق ركبتى، ولكنه ما ان لمس الارض حتى عاد فوثب فوق حجرى ، فطردته ثانية دون جدوى ، كما حدث فى المرة الاولى . وعندئذ نهضت وطفقت أتجول فى الغرفة والقط يتبعنى . ولما ضقت ذرعا بهذا الالحاح ، قرعت الجرس كما فعلت بالامس فدخل الخادم ، ولكن القط هرب تحت السرير . ورحنا نبحث عنه ، ولكنه كان قد اختفى .

وفى هذا المساء خرجت وزرت اثنين أو ثلاثة من الاصدقاء ، ثم عدت الى المنزل ودخلته مستخدما مفتاحى الخاص . ولما لم يكن معى مصباح فقد صعدت السلم بحذر خوفا من أن أصطدم بأى شىء . وعندما وصلت الى الدرجة الاخيرة ، سمعت الخادم يتحدث مع وصيفة زوجتى ، وسمعت اسمى فتوقفت وأصغيت الى ما يقال عنى ، فسمعت الخادم يقص ما حدث هذا المساء ، والبارحة ، وأضاف قائلا : « لابد أن السيد قد جن. فلم يكن هناك قط أسود مشرب بحمرة اللهب لا فى الغرفة ولا فى يدى».

وأفزعتنى هذه الكلمات القليلة ، فهناك شبح ، حقيقى أو كاذب ، فان كان حقيقيا فأنا فريسة حدث من الخوارق ،وان كان كاذبا ، أى اننى أرى أشياء لا وجود لها ، كما قال خادمى ، فأنا قد جننت .

ولك أن تتصور ياصديقى العزيز حالتى وانا انتظر حلول الساعة السادسة بنفاد صبر يخالطه خوف . وفى اليوم التالى استبقيت خادمى بجوارى بحجة اجراء بعض الترتيبات .

ودقت الساعة السادسة وهو بالقرب منى ، ومع آخر دقة سمعت نفس الصوت ورأيت نفس القط جالسا بالقرب منى .

وبقيت لحظة لا أتكلم ، على أمل أن يلحظ الخادم وجود الحيوان ويحدثنى هو أولا عنه ، ولكنه كان يتمشى فى الغرفة دون ان يبدو عليه أنه يرى أى شىء . وتحينت فرصة ، فأصدرت اليه امرا يضطر لتنفيذه أن يمر فوق القط ، فقلت له : « جون ، ضع الناقوس على المنضدة » . وكان جون واقفا عند رأس السرير ، والناقوس فوق المدفأة ، ولكى يقطع الطريق من رأس السرير الى المدفأة ، كان لزاما عليه أن يخطو فوق الحيوان . وتحرك جون ، وفى اللحظة التى كان فيها على وشك أن يطأ الحيوان بقدمه ، وثب هذا فوق ركبتى . ولم يره جون ، أولعله تظاهر بأنه لم يره . وأعترف أن عرقا باردا سال على جبينى ، وتملئت فى خاطرى عبارة « لابد أن السيد قد جن » بصورة مرعبة .

قلت : جون ، ألا ترى شيئا على ركبتى ؟

ونظر الى جون ، ثم قال بلهجة الرجل الذى قر قراره : نعم ياسيدى ، أرى قطا .

وتنفست الصعداء وتناولت القط وقلت له : فى هذه الحالة ياجون أرجوك أن تحمل القط وتخرجه من الغرفة .

ومد يديه نحوى فوضعت القط على ساعديه وأشرت له فخرج . وهدأ بالى بعض الشىء . ولعشر دقائق جعلت أتلفت حولى ببقية من فضول ، ولما لم أبصر أى كائن حى من فصيلة حيوانية ، عزمت أن أرى ما صنعه جون بالقط . وعلى ذلك خرجت من غرفتى وفى نيتى أن أسأله فى ذلك . وعندما وضعت قدمى على عتبة باب غرفة الاستقبال ، سمعت قهقهة عالية آتية من غرفة زينة زوجتى . واقتربت برفق على أطراف أصابع قدمى فسمعت صوت جون وهو يقول للخادمة :

ــ صديقتى العزيزة ، ليس سيدى على وشك الجنون فحسب ، بل انه قد جن بالفعل ، وينحصر جنونه فى انه يرى قطا أسود ضاربا الى حمرة نارية . وفى هذا المساء سألنى عما اذا كنت ارى القط فوق ركبتيه .

فسألته الخادمة : وبماذا اجبت ؟
فقال جون : لعمرى ، اجبت بأنى أراه . يا لسيدى المسكين ، لم أشأ أن أكذبه . خمنى ما فعله عندئذ ...
ـ كيف تريدنى أن أخمن ؟
ـ حسن ! رفع القط المزعوم من فوق ركبتيه ، ووضعه على ذراعى ، وقال لى : « احمله ! احمله ! » فحملت القط بشهامة ، وارتاح هو .
ـ ولكن ما دمت قد حملت القط ، فهل كان هناك حقيقة قط ؟
ـ كلا ، لم يكن للقط وجود الا فى مخيلته . ولكن ماذا يفيده أن أخبره بالحقيقة ؟ لعله كان يطردنى . لعمرى اننى هنا على ما يرام ، وسأبقى هنا . انه يمنحنى خمسة وعشرين جنيها فى السنة لأرى قطا ! وهأنذا أرى القط ، وفى استعداد لأن أرى قطين اذا أعطانى ثلاثين جنيها .
ولم أجرؤ على سماع المزيد من هذا الكلام ، فتنهدت وعدت الى غرفتى .
وفى الساعة السادسة من مساء اليوم التالى ، كان رفيقى (القط) بالقرب منى كالمعتاد ، ولم يختف الا فى صباح اليوم التالى .
وأردف المريض قائلا : ماذا أقول لك ياصديقى ، تجدد ظهور الشبح نفسه كل مساء لشهر كامل ، وبدأت أعتاد وجوده . وفى اليوم الثلاثين بعد تنفيذ حكم الاعدام ، دقت الساعة السادسة ولم يظهر القط ، وظننت أننى قد تخلصت منه ، ولم أنم من شدة الفرح .
وفى مساء اليوم التالى ، جعلت أتعجل مرور الوقت ، متلهفا على حلول الساعة المشئومة . ولم تبرح عيناى ساعة الحائط منذ الخامسة حتى السادسة ، متتبعا سير العقرب وهو يتقدم دقيقة بعد أخرى حتى وصل الى رقم ١٢ واهتزت الساعة ، ورنت الدقة الاولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة ، وأخيرا السادسة .!
وقال القاضى التعس : وعند الدقة السادسة ، انفتح الباب ، ودخل حاجب يرتدى حلة خاصة بخدم بعض أمراء أسكتلندا . وأول ما تبادر الى ذهنى أن الامير قد بعث الى برسالة ، فمددت يدى نحو الطارق المجهول ، ولكنه لم يعبأ بحركتى ، بل وقف

خلف مقعدى . ولم تكن بى حاجة لأن أستدير لكى أراه ، اذ كنت أمام مرآة فرأيته خلالها . نهضت اذن ومشيت ، فتبعنى بضع خطوات ، ثم عدت الى المنضدة وقرعت الجرس فأقبل خادمى ولكنه لم ير الحاجب كما لم ير القط من قبل. وصرفت الخادم ومكثت فى الغرفة مع ذلك الشخص الغريب ، واتسع أمامى الوقت لأفحصه على مهل . كان مرتديا زى البلاط ، وشعره مصففا ، وسيفه مدلى بجانبه ، ورداؤه مطرزا ، وقبعته تحت ذراعه . وفى الساعة العاشرة رقدت فجلس هو على مقعد مقابل لسريرى ، وكأنه قد اعتزم أن يقضى الليلة فى راحة تامة الى جوارى. وأدرت رأسى ناحية الحائط . ولما كان من المستحيل أن أنام ، فقد استدرت مرتين أو ثلاثا ، ورأيته فى ضوء مصباحى الصغير جالسا على نفس المقعد . ولم ينم هو أيضا . وأخيرا رأيت أول خيوط النهار تنفذ الى غرفتى خلال ضلف النافذة ، فاستدرت لآخر مرة ناحية الرجل ، فلم أره ، كان قد اختفى ، والمقعد خال . وهكذا تخلصت من الشبح حتى المساء . وفى المساء أقيمت حفلة استقبال بمنزل راعى الكنيسة الاكبر . وفى الساعة السادسة الا خمس دقائق ، استدعيت خادمى بحجة اعداد ملابسى الرسمية وأمرته بأن يحكم غلق الباب بالمزلاج . وأطاع الخادم . ولما دقت الساعة السادسة ثبت نظرى على الباب فرأيته ينفتح ويدخل منه الحاجب . فذهبت من فورى الى الباب فوجدته مقفلا ، والمزلاج ثابتا لم يتحرك . وعدت فوجدت الحاجب واقفا خلف مقعدى وجون يتجول فى الغرفة دون أن يبدو عليه أنه يشعر بوجود الحاجب . كان واضحا أن الخادم لم ير الرجل كما لم ير القط من قبل . وارتديت ثيابى .

وحدث عندئذ شىء غريب ، اذ جعل ضيفى يبدى اهتماما شديدا بأمرى فراح يساعد جون فى كل ما يفعله دون أن يدرك جون ذلك . فمثلا أمسك جون ردائى من ياقته ، بينما أمسك الشبح الثوب من ذيله ، وقدم لى جون السروال ممسكا بمنطقته ، فى حين أمسك الشبح بساقى السروال . ولم أر فى حياتى خادما أشد فضولا من هذا الحاجب .

وحانت ساعة الخروج ، وعندئذ لم يتبعنى الحاجب ، بل تقدمنى وانسل خلال الباب وخرج من الغرفة ونزل السلم وراء جون

وقبعته تحت ذراعه . وفتح جون باب العربة ثم أغلقه واتخذ مكانه على المقعد الخلفى بينما صعد الشبح وجلس على مقعد السائق بجواره . وعند باب منزل راعى الكنيسة الاكبر وقفت العربة ففتح جون بابها ، وأسرع الشبح فوقف خلفه . وما كادت قدمى تطأ الارض حتى اندفع الشبح أمامى بين الخدم المحتشدين عند الباب وراح ينظر ما اذا كنت سأتبعه . وعندئذ تملكتنى الرغبة فى أن أجرى مع السائق نفس التجربة التى أجريتها مع جون قبلا فقلت له :

– باتريك ، من الرجل الذى كان بجانبك ؟

فقال السائق : أى رجل يا صاحب السعادة ؟

– الذى كان جالسا على مقعدك ؟

وأدار باتريك عينيه حوله بدهشة .

فقلت له : حسن ، لعلنى أخطأت .

ودخلت بدورى . وكان الحاجب واقفا على السلم فى انتظارى. وما أن رآنى أمضى فى طريقى حتى تقدم هو ايضا فى طريقه فدخل أمامى وكأنه سوف يعلن عن وصولى الى قاعة الاستقبال . ولما دخلت القاعة مضى هو الى غرفة مجاورة واتخذ مكانا مناسبا له . ولما كان الشبح خفيا عن أنظار جون وباتريك فانه كان أيضا خفيا عن أنظار الجميع . وعندئذ تحول خوفى الى رعب وأدركت أن بى جنة بالفعل . ومن تلك الليلة لاحظ الجميع ما طرأ على من تغيير وسألنى كل انسان عما ألم بى ، وأنت منهم . ولم يزل الشبح فى الغرفة المجاورة . وعند الانصراف ركض أمامى كما فعل عند وصولى ، وصعد الى مقعد السائق ودخل معى الى المنزل ، وتبعنى إلى غرفتى ، وجلس على نفس المقعد الذى جلس عليه فى الليلة الماضية . وعندئذ أردت أن أعرف ما اذا كان بهذا الشبح شىء مادى محسوس فغالبت نفسى ، وسرت القهقرى حتى جلست على المقعد . ولم أشعر بأى شىء وانما رأيته فى المرآة واقفا خلفى ورقدت كما رقدت بالامس ، ولكن الساعة كانت الواحدة صباحا. ومن فراشى رأيته جالسا على المقعد وفى الصباح اختفى .

واستمر ظهور الشبح شهرا . وفى نهاية الشهر خالف عادته فتخلف يوما . ولم أتوهم فى هذه المرة ، كما توهمت فى المرة السابقة ، ان الاشباح قد انتهى أمرها معى تماما ، ولكنى توقعت

حدوث نفير رهيب . وبدلا من أن أستمتع بوحدتي ترقبت حلول اليوم التالي في هلع .

ولما دقت الساعة السادسة من اليوم التالي ، سمعت صوتا خفيفا بين ستائر سريري ، ولمحت خلالها ، بينها وبين الحائط ، هيكلا عظميا . وفي هذه المرة يا صديقي كان ما ظهر لي صورة حية للموت . رأيت الشبح واقفا لايريم ، ينظر الى بعينين فارغتين . فنهضت ودرت في الغرفة عدة دورات . فكان الرأس يتبعني بنظرته أينما سرت ، ولم تبرحني العينان لحظة ، مع بقاء الجسم ساكنا بلا حراك .

ولم أجرؤ على الرقاد في تلك الليلة ، ولكني نمت . أو بالاحرى مكثت مغمض العينين وأنا جالس في المقعد الذي كان يجلس عليه الشبح الذي أسفت لفراقه . وفي الصباح اختفى الهيكل. وأمرت جون ان يغير موضع السرير ويغلق الستائر . وفي الساعة السادسة سمعت نفس الحفيف ، ورأيت الستائر تتحرك ، ولمحت أطراف عظام يدين تزيحان الستائر حتى انفرجت وظهر الهيكل واتخذ نفس الوضع الذي اتخذه الليلة الماضية . وفي هذه المرة تشجعت ورقدت ، ومال الرأس ناحيتي كما فعل في الليلة الماضية وثبت نظراته علي كما فعل البارحة ، ولك أن تتصور كيف قضيت تلك الليلة ! والآن ، وقد عرفت ما بي ، هل ما زلت تفكر في علاجي ؟

فأجاب الطبيب : سأحاول على الأقل .

ـ كيف ذلك ؟ أخبرني .

ـ أعتقد أن الشبح الذي تراه لا وجود له الا في مخيلتك .

ـ ما أهمية وجوده أو عدم وجوده ما دمت أراه ؟

ـ أتريد أن أحاول رؤيته بنفسي .

ـ لا أسأل شيئا أفضل من هذا .

ـ ومتى ؟

ـ في أقرب وقت مستطاع . غدا .

ـ حسن ، في الغد ، وحتى يأتي الغد ، تشجع يا صديقي !

وابتسم المريض ابتسامة حزينة . وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي دخل الطبيب غرفة صديقه وقال له : حسن! أين الهيكل ؟

فأجاب هذا بصوت ضعيف : اختفى منذ برهة .

ـ اذن سوف نرتب أمورنا بحيث لا يعود هذا المساء .
ـ فليكن .
ـ أولا .. تقول انه يدخل مع دقة الساعة السادسة ؟
ـ دون شك .
ـ فلنبدأ بايقاف ساعة الحائط .
وأوقف رقاص الساعة .
ـ ماذا تريد أن تفعل ؟
ـ أريد أن أعطل قدرتك على حساب الزمن .
ـ حسن !
ـ والآن ، سوف نحكم اغلاق ضلف النوافذ ونثبت الستائر .
ـ ولم هـذا ؟
ـ للفرض نفسه ، لكيلا تتمكن من معرفة سير الوقت .
ـ فليكن .
وأغلقت الضلف باحكام ، وأسدلت الستائر ، وأضيئت الشموع .

وقال الطبيب لجون : أعد طعام الفداء والعشاء ، فاننا لانريد أن نقدم الوجبات فى أوقات محددة ، ولكن تقدم فقط عندما أطلبها .
وقال المريض : أتسمع يا جون ؟
ـ نعم ياسيدى .
ـ وأحضر لنا ورق اللعب ونردا ودومينو واتركنا .
وأحضر جون الاشياء المطلوبة وانسحب .
وشرع الطبيب يسلى مريضه بقدر ما يستطيع متحدثا اليه حينا ، لاعبا معه حينا آخر ، حتى اذا جاء قرع الجرس . أما جون الذى كان يعلم الداعى الى قرع الجرس فانه أحضر طعام الفداء ، وبعد الانتهاء من تناول الطعام عاد الاثنان الى اللعب ، واستمرا فيه حتى قرع الطبيب الجرس من جديد ، فأحضر جون طعام العشاء ، وأكل الاثنان وشربا ، وتناولا القهوة ، ثم عادا الى اللعب ، وخيل اليهما أن اليوم طويل وهما يزجيانه معا على هذا المنوال . وظن الطبيب انه يقيس الوقت بمخيلته وان الساعة الرهيبة لابد قد انقضت ، فقال وهو ينهض :
ـ حسن ! لقد انتصرنا !
فقال المريض : كيف انتصرنا ؟
ـ بلا شك ، لابد ان تكون الساعة الآن الثامنة أو التاسعة على

الاقل ، ولم يحضر الهيكل العظمى .

– أنظر الى ساعتك يا دكتور ما دامت هى الساعة الوحيدة التى تدور فى المنزل ، فان كانت الساعة قد مرت ، فانى أقسم ان أهتف معك هتاف الانتصار .

ونظر الطبيب الى ساعته وسكت .

وقال المريض : لقد أخطأت يا دكتور ، أليس كذلك ؟ الساعة السادسة تماما .

– نعم ، وبعد ؟

– حسن ! ها هو ذا الهيكل العظمى يدخل .

وارتد المريض الى الخلف وهو يتنهد بقوة . ونظر الطبيب حوله وسأله : أين تراه اذن ؟

– فى مكانه المعتاد بين الحائط والسرير ، خلال الستائر .

ونهض الطبيب ، وسحب السرير ، ومر بينه وبين الحائط ، ومضى بين الستائر فاتخذ المكان المفروض أن الهيكل العظمى يشغله .

– والآن ، أما زلت تراه ؟

– لم أعد أرى الجزء الأسفل من جسمه لأنه قد حجبه بجسمك ، ولكنى أرى جمجمته .

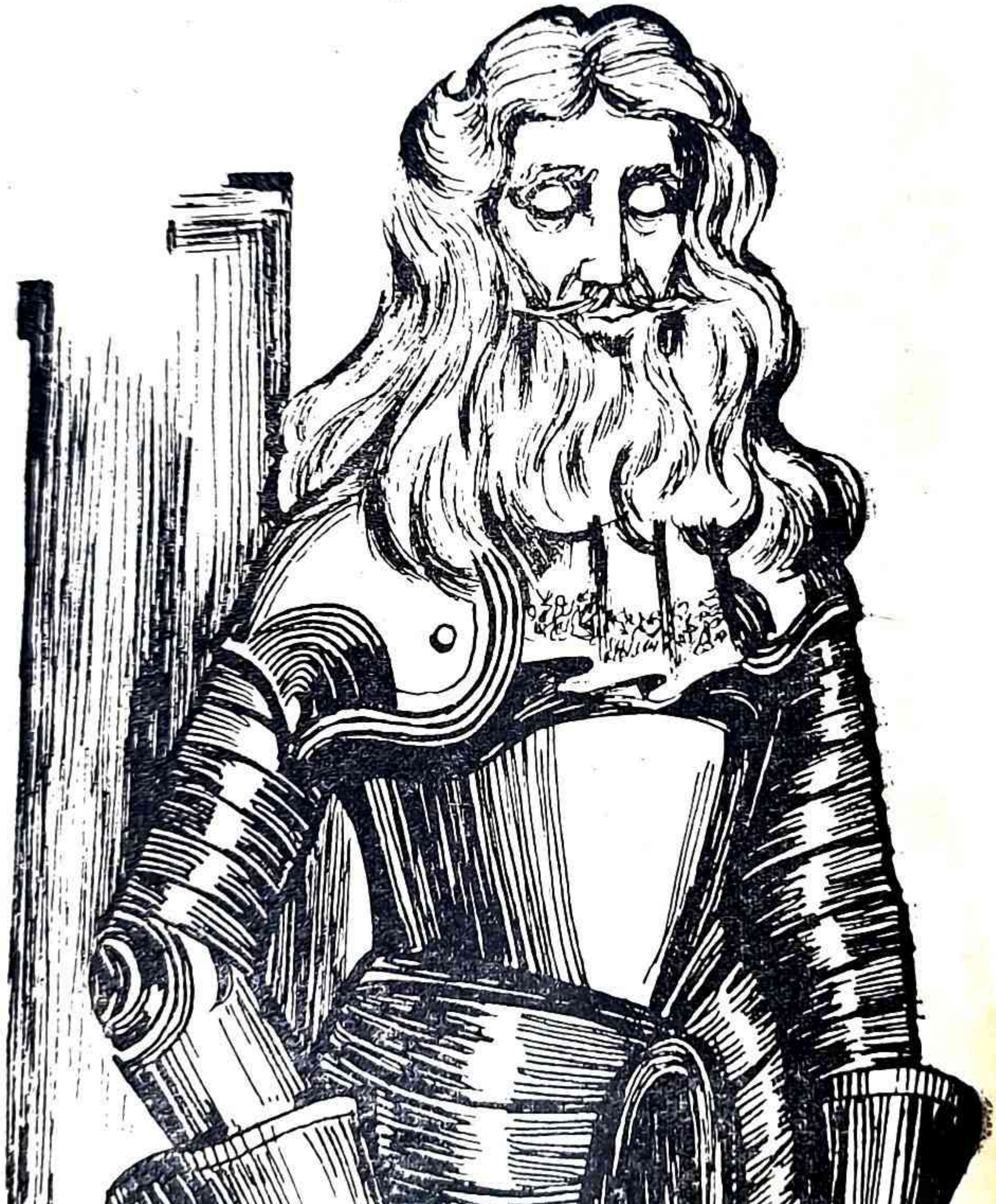
– أين ؟

– فوق كتفك اليمنى ، كما لو كان لك رأسان ، أحدهما حى والآخر ميت .

وعلى الرغم من أن الطبيب لم يصدق شيئا من هذا الكلام ، فانه ارتجف ، واستدار ، ولكنه لم ير شيئا . وعاد الى المريض وقال له بأسى : « ياصديقى ان كان لديك ما توصى به ، فاكتب وصيتك » . وخرج .

وبعد تسعة أيام دخل جون الى غرفة سيده فوجده ميتا على سريره .. وكان قد انقضى ثلاثة أشهر كاملة على تنفيذ حكم الاعدام فى اللص .

مقابرسان دنیس



(٩) مقابر سان دنيس

قال السيد ليدرو : حسن ! ما معنى ذلك يا دكتور ؟

ــ معناه ان الأعضاء التى تنقل الى المخ الاحساسات التى تتلقاها قد تضطرب لسبب من الأسباب فتعرض على النفس صورة غير صحيحة وفى مثل هذه الحالة يرى الانسان أشياء ويسمع اصواتا لا وجود لها . هذى هى المسألة .

فقال الشفالييه لينوار فى حياء ، شأن العالم الطيب القلب : ومع ذلك قد تحدث أشياء معينة تترك بعض الأثر ، أو تكهنات يتحقق بعضها . فكيف تفسر أيها الطبيب قصة أشباح ضربته انسانا فتركت آثارا سوداء على بدنه ؟ وشبح تكهن بالمستقبل منذ عشر سنوات أو عشرين أو ثلاثين سنة مضت ، فصدق تكهنه ، ايستطيع من لا وجود له أن يحدث كدمات فى جسم حى أو يتكهن بما سوف يحدث ؟

فقال الطبيب : آه ! تقصد بذلك شبح ملك السويد ؟

ــ كلا ، بل أقصد ما شهدته بنفسى .

ــ أنت !

ــ نعم أنا .

ــ أين كان ذلك ؟

ــ بسان دينيس .

ــ متى ؟

ــ فى عام ١٧٩٤ ، عندما نبشت القبور .

السيد ليدرو : آه ! نعم ، استمع الى هذه القصة يادكتور .

ــ ماذا ؟ ماذا رايت ؟ تكلم .

ــ اليكم ما رايت . فى عام ١٧٩٣ ، عينت مديرا لمتحف الآثار الفرنسى ، وبصفتى هذه حضرت استخراج الجثث المدفونة فى دير ســان دنيس الذى غير المواطنون المتنورون اسمه فجعلوه «فرانسيال» . واستطيع الآن ، بعد انقضاء اربعين سنة ، ان اروى

لكم الأحداث الغريبة التى ميزت اعمال النبش هذه . ان بذور الحقد التى زرعها البعض فى نفوس الشعب ضد الملك لويس السادس عشر ، والتى لم تستطع أن تروى غليل المقصلة يوم ٢١ من يناير.. هذا الحقد امتد حتى شمل سائر ملوك أسرته . فقد اراد الشعب أن يتعقب الأسرة المالكة حتى منبعها ، والملوك حتى أجداثهم ، وأن يذر فى الرياح رماد ستين ملكا ، ولعلهم كانوا متلهفين لمعرفة ما اذا كانت الكنوز العظيمة التى قيل انها مدفونة فى بعض هذه القبور ما زالت محفوظة وسليمة كما قال البعض.

وعلى هذا انقض القوم على سان دنيس . وبين يومى ٦ و ٨ من أغسطس دمروا واحدا وخمسين قبرا ، أى تاريخ اثنى عشر قرنا. وعندئذ قررت الحكومة أن تنظم هذه العملية ، وتنبش القبور لحسابها الخاص ، وترث الملكية بعد أن ضربتها الضربة القاضية فى شخص آخر ممثليها ، لويس السادس عشر . ثم أصبح الغرض من ذلك محو أسماء الملوك وذكراهم ، حتى عظامهم ، وشطب أربعة عشر قرنا من الحكم الملكى من تاريخ فرنسا . مساكين أولئك المجانين الذين لا يدركون أن فى استطاعة الانسان أن يغير المستقبل، ولكنه لا يستطيع أبدا أن يغير الماضى .

وأعدت فى الجبانة حفرة كبيرة مشتركة ، على نسق مقابر الفقراء. وفى هذه الحفرة التى غطى قاعها بطبقة من الجير ، وكأنها مستودع قمامة ، تفرر القاء عظام الملوك الذين جعلوا من فرنسا أعظم أمة ، من « داجوبير » حتى لويس الخامس عشر .

وهكذا أرتاح الناس ، بل واستمتع بالأمر المشرعون والمحامون والصحفيون الحاسدون . طيور الثورة الجارحة الذين تتألم عيونهم من دلائل المجد والعظمة ، مثلما تتألم عيون اخوانهم ، طيور الليل من الأنوار . ان الذى لايقوى على البناء ، يتباهى بالهدم . وعينته مفتشا للحفائر ، ووجدت فى ذلك فرصة لانقاذ الكثير من التحف الثمينة ، ولذلك قبلت الوظيفة . وفى يوم السبت ١٢ من اكتوبر، وكان التحقيق يجرى فى قضية الملكة ، فتحت سرداب اسرة البوربون من ناحية المصليات الكائنة تحت الارض ، وبدات باستخراج تابوت «هنرى الرابع» الذى مات مقتولا فى ١٤ من مايو عام ١٦١٠ وعمره سبعة وخمسون عاما . أما تمثال (بون نيف) ، تحفة « جان دى بولونى » وتلميذه ، فانه كان قد صهر وصنعت منه نقود كبيرة . ووجدت جثة هنرى الرابع محفوظة بصورة رائعة ،

فملامح الوجه واضحة ، تلك الملامح التى باركها الشعب بمحبته ، وخلدتها ريشة الرسام « ريبان » . رأينا جثته تخرج ، فى مقدمة الجثث ، وظهر فى ضوء النهار فى كفنه السليم ، فتأثرنا غاية التأثر ، وكادت ترتفع صيحة الشعب المعروفة جيدا فى فرنسا « يحيا هنرى الرابع ! » فتدوى تحت أقباء الكنيسة . ولما شهدت آيات الاحترام ، بل الحب هذه ، أمرت بوضع الجثة واقفة، مستندة الى عمود من عمد المحراب . وفى هذا الوضع يستطيع كل انسان أن يأتى ويتأملها . وكان هنرى الرابع ، كما كان فى حياته ، مرتديا سترته القطيفية السوداء التى برزت منها الأكمام والياقة البيضاء ، وجواربه الحريرية السوداء ، وحذاءه القطيفى. وكان شعره الأشيب الجميل يحيط برأسه كالهالة ، وذقنه الأبيض البديع يتدلى حتى صدره .

وبدأ موكب كبير يمر أمامه ، من قبيل المواكب التى تمر أمام مخلفات القديسين : نساء يلمسن يدى الملك الطيب ، ويقبلن أطراف معطفه ، وأخريات يضعن أطفالهن على ركبهن ويتمتمن بصوت خفيض : « آه ! لو كان حيا ، لما رزح الشعب فى مثل هذا البؤس ! » ، وكن خليقات أن يضفن قائلات : « ولا فى مثل هذه الوحشية » لأن البؤس يحيل أفراد الشعب وحوشا .

واستمر مرور الموكب طوال يوم السبت ١٢ والاحد ١٣ والاثنين ١٤ من أكتوبر . وفى يوم الاثنين بدأت أعمال الحفر من جديد بعد طعام الفداء ، أى فى الساعة الثالثة بعد الظهر. وكانت أول جثة خرجت الى النور بعد جثة هنرى الرابع ، جثة ابنه لويس الثالث عشر ، وكانت محفوظة جيـــدا . وعلى الرغم من طموس ملامح الوجه ، فانه كان فى المستطاع التعرف عليه من شاربه . ثم خرجت جثة لويس الرابع عشر ، تميزها ملامحها العريضة التى جعلت من وجه صاحبها نقابا مثاليا لأسرة البوربون ، ولكن الوجه كان أسود كالحبر. ثم خرجت على التوالى جثث مارى دى مديتشى زوجة هنرى الرابع الثانية ، وآن النمساوية زوجة لويس الثالث عشر، ومارى تيريز زوجة لويس الرابع عشر ، وولى العهد ، وكلها متعفنة ما عدا جثة ولى العهد الاكبر فانها كانت فى حالة تحلل سائل.

واستمر فى يوم الثلاثاء ١٥ من اكتوبر استخراج الجثث ، وظلت جثة هنرى الرابع واقفة فى مكانها مستندة الى العمود ، تشهد جامدة انتهاك حرمات الموتى من الأجداد والذرارى. وفى يوم الأربعاء

١٦ ، وفى نفس اللحظة التى فصـــل فيها رأس مارى انطوانيت بميدان الثورة ، اى فى الساعة الحادية عشرة صباحا ، استخرج نعش لويس الخامس عشر من مقبرة البوربون ، وكان موضوعا عند مدخل القبو حسب التقاليـد المتبعة فى فرنسا ، فى انتظار خليفته الذى قدر الا ينضم اليه أبدا . وحمل النعش وفتح داخل المقبرة على حافة الحفرة . ولمـا خرجت الجثة من النعش الرصاصى ، ظهرت سليمة ملفوفة جيـدا بالقماش والأربطـة . ولـكنها ما أن استخلصت مما كان يطوقها حتى ظهرت فى حالة تعفن فظيـع ، وفاحت منهـا رائحة قبيحة للغاية لدرجة أن ابتعد عنها كل الناس ، واضطررنا الى حرق عدة أرطال من البارود لتنقية الجو ، وللحال القينا فى الحفرة ماتبقى من بطل «بارك أوسير» (حديقة الوعول) ، عشيق مدام شاتورو ، ومدام دو بومبادور ، ومدام دوبارى ، على طبقة الجير الحى ، وغطينا هـذه المخلفات البشعة بالجير الحى .

وكنت آخر من بقى لاحراق البارود والقاء الجير ، واذا بى أسمع ضوضاء شـديدة داخل الـكنيسة ، فهرعت اليهـا ولمحت عاملا يناضـل وســط زملائه ، وبعض النسوة يشرن اليه بقبضة أيديهن متوعدات . كان الشقى قد ترك عمله البشع ليشهد منظرا أبشع منه ، منظر اعدام مارى انطوانيت . ولمـا انتشى من الصيحات التى اطلقهـا والتى سمع مثلها من أفواه الحشـــود ، ومن رؤية الدم المهراق ، عاد الى سان دنيس واقترب من هنرى الرابع الذى كان واقفا مسنودا الى العمود وحوله الفضوليون ، بل الخاشعون ، وقال له : بأى حق تظل أنت واقفا هنا بينما الملوك تقطع رءوسهم فى ميـدان الثورة ؟ ثم انتزع ذقن الملك بيده اليسرى وصفع وجهه بيده اليمنى ، فسقطت الجثة على الارض وأحدثت صوتا كالصوت الذى يحدثه سقوط كيس مملوء بالعظام . وللحال انفجرت صيحة هائلة من كل النواحى . قد يجترىء انسان باقتراف هذا الفعل المهين على جثة أى ملك آخر ، ولـكن مع هنرى الرابع ، الملك الذى أحبه شعبه ، فان هذا الفعل يعد اهانة للشعب نفسه .

وعلى هـذا كان العامل عرضة لخطر شـــديد حين بادرت الى نجدته . وما أن أدرك أننى جئت لمعونته ، حتى لجأ الى حمايتى . ولـكنى أردت مع ذلك أن أشـعره بفداحة الجرم الذى اقترفه ، فقلت للعمال : « يا أبنائى ، اتركوا هـذا الشقى ، ان لذلك الذى اهانه هـذا الرجل مكانة كبيرة فى العالم الاخروى ، فهو قادر على

أن يجلب له من لدن الله مايستحقه من العقاب» . ثم أخذت منه الذقن التى انتزعها من الجثة ، وكان ممسكا بها فى يده اليسرى ، وطردته من الكنيسة ، وأعلنت أنه لم يعد من عمالى ، وظلت صيحات زملائه وتهديداتهم تطارده حتى الشارع .

ولما كنت أخشى أن تتكرر اهانة جثة هنرى الرابع ، فقد امرت بنقلها الى الحفرة المشتركة . وفى الطريق ، شيعت الجثة بآيات التكريم والتبجيل ، ولم نرمها فى الحفرة كما فعلنا بسائر الجثث ، بل أنزلناها برفق وأرقدناها بعناية فى أحد الأركان وغطيناها باحترام بطبقة من التراب بدلا من الجير .

وانصرم اليوم ، وانصرف العمال ، ولم يبق سوى الحارس ، وهو رجل طيب أقمته فى هذا المكان حتى لا يتسلل احد الى الكنيسة فى جنح الظلام للسرقة أو الاعتداء على الجثث . وكان الحارس ينام نهارا ويسهر ليلا من السابعة مساء حتى السابعة صباحا ، ويقضى الليل واقفا أوماشيا ليتدفأ ، أو جالسا بالقرب من نار موقدة بجوار أحد العمد القريبة من الباب .

كان كل ما فى الكنيسة يمثل الموت ، وقد ضاعف التخريب من بشاعة المنظر . وكانت الأقباء مفتوحة ، وبلاطات القبور مرتكزة على الحوائط ، والتماثيل المحطمة مبعثرة على أرضية الكنيسة ، وهنا وهناك توابيت مفتوحة ، خرج منها الموتى الذين كانوا يعتقدون انهم لن يؤدوا الحساب عن اعمالهم الا يوم الحساب ، وكل شيء يبعث العقول المفكرة على التأمل ، ويولد الرعب فى النفوس الضعيفة .

ولم يكن الحارس لحسن الحظ روحا ذكية ، بل آلة منتظمة ، ينظر الى هذه الحطام كلها بنفس العين التى ينظربها الى غابة اجتثت أشجارها ، أو حقل جنى زرعه ، ولم يكن له من عمل سوى عد ساعات الليل والاصغاء الى دقات الساعة الرتيبة ، وهى الشيء الوحيد الذى بقى حيا فى هذه الكنيسة المنعزلة . وفى اللحظة التى دقت فيها الساعة مؤذنة منتصف الليل ، وحين رنت الدقة الاخيرة فى أعماق الكنيسة المظلمة ، سمع الحارس صرخات قوية صادرة من ناحية الجبانة فى صورة استغاثات طويلة شاكية ناحبة . ولما تبددت دهشته الاولى ، تسلح بفأس وتقدم نحو الباب الذى يوصل الكنيسة بالجبانة ، فلما فتحه تأكد له أن الأصوات صادرة من حفرة الملوك ، فلم يجرؤ على التقدم ، وقفل الباب وبادر الى ايقاظى فى الفندق الذى كنت مقيما فيه .

ولم أصدق فى البداية صدور صيحات من حفرة الملوك . وكنت مقيما فى مواجهة الكنيسة تماما ، ومن ثم فتح الحارس نافذة غرفتى . وخلال السكون الذى لم يعكره سوى هفيف نسائم الشتاء ، اعتقدت اننى سمعت أصواتا شاكية خلاف أصوات الريح النائحة ، فنهضت ، وسرت مع الحارس حتى الكنيسة . ولما اغلق باب الرواق خلفنا ، سمعت الأصوات الشاكية التى حدثنى عنها الحارس بمزيد من الوضوح . وكان من السهل معرفة مصدر هذه الأصوات حين انفتح باب المقبرة الذى لم يحكم الحارس غلقه ، اذ كانت آتية من الجبانة . وأوقدنا مشعلين وسرنا نحو الباب ولكن تيار الهواء المار من الخارج الى الداخل اطفأ النار ثلاث مرات . وأدركت انه من العسير عبور هذا الممر على هذه الحال ، على أننا لن نعانى مثل هذه الصعوبة اذا وصلنا الى الجبانة وأشعلت مصباحا بالاضافة الى المشعلين . وانطفأ المشعلان وبقى المصباح مضيئا . واجتزنا الممر الضيق . ولما أصبحنا فى المقبرة أوقدنا المشعلين فلم تطفئهما الريح بعد ذلك . غير اننا كلما تقدمنا خفتت الصيحات وجعلت تتلاشى. وفى اللحظة التى وصلنا فيها الى حافة الحفرة كانت قد سكتت تقريبا . وحركنا المشعلين فوق الفتحة الواسعة . وفى وسط العظام ، وفوق طبقة الجير والتراب المختلطة بها ، لمحنا شيئا ليس له شكل معين، يتحرك ويناضل ، كان هذا الشكل شبيها بالانسان ، فناديته قائلا : « يا هذا ، ماذا دهاك ؟ وماذا تريد ؟ » فتمتم قائلا : ياحسرتاه ! انا العامل البائس الذى صفع هنرى الرابع .

– ولكن كيف جئت الى هنا ؟

– اخرجنى أولا أيها السيد لينوار ، فأنا أكاد اموت ، وستعرف كل شيء فيما بعد .

ولما اقتنع الحارس بأنه ازاء كائن حى ، زال من نفسه الرعب الذى اخذه أول الأمر ، فأقام سلما كان ملقى على كلأ الجبانة وامسك به عموديا فى انتظار أوامرى . عندئذ امرته بأن ينزل السلم فى الحفرة ، وطلبت من العامل أن يصعد ، فزحف حتى قاعدة السلم ، ولما وصل اليها ، وأصبح مضطرا للوقوف لكى يرتقى السلم ، ادرك انه مصاب بكسر فى رجله وذراعه ، فالقينا اليه بحبل بطرفه أنشوطة ، فلف الحبل تحت كتفيه ، وامسكت بالطرف الآخر للحبل . وهبط الحارس درجات السلم ، وأمكننا بهذه

المحاولة الثنائية أن نخلص هـذا المخلوق الحى من صحبة الموتى . وما أن خرج من الحفرة حتى أغمى عليه ، فأخذناه بجوار النـار وأرقدناه على فراش من القش ، وأرسلت الحارس ليحضر جراحا. وعاد الحارس ومعه طبيب قبل أن يسترد الجريح وعيه ، فلم يفتح عينيه الا فى أثناء اجراء العملية . ولمـا تم تضميد الجرح شكرت الطبيب .

ولمـا كنت أريد أن أعرف الظروف الغريبة التى أتت بهذا الرجل الآثم الى مقبرة الملوك ، صرفت الحارس الذى رحب بالانصراف لينام بعد تلك الليلة المليئة بالمؤثرات ، ومكثت وحدى بالقرب من العامل ، وجلست على حجر بجوار القش الذى كان راقدا عليه ، فى مواجهـة النـار التى كانت شعلتها المذبذبة تضىء ركن الكنيسة التى كنا بها ، تاركة باقى المـكان فى ظلام دامس . عندئذ استجوبت الجريح . واليكم ما قصه على :

لم يكن طرده من العمل بالأمر الذى يشغل باله فقد كان معه بعض النقود ، وكان يعلم آنئذ أن الانسان لا يعوزه شىء اذا كان معه نقود . وعلى ذلك ذهب ليجلس فى حانة ليلية ، وهناك راح يشرب زجاجة من الخمر . وبينما هو يشرب الـكأس الثالثة أبصر صاحب الحانة آتيا اليه يسأله : ألم تنته بعد ؟

ــ ولم ؟

ــ لأننى سمعت انك انت الذى صفع هنرى الرابع .

فأجاب العامل بوقاحة : حسن ! نعم أنا ، وبعد ؟

ــ وبعد ؟ اننى لا أقدم شرابا لوغد لئيم مثلك سـوف يجلب اللعنة على حانتى .

ــ حانتك انت ؟ انها للجميع ، وما دمت ادفع فهى بمثابة بيتى

ــ نعم ، ولـكنك لن تدفع .

ــ لمـاذا ؟

ــ لأننى لا أريد ان المس نقودك ، وحيث أنك لن تدفع فانك لن تـكون فى هـذا المحل كما لو كنت فى بيتك ، بل تكون فى بيتى أنا ، ومن ثم يكون من حقى أن ألقى بك الى الخارج .

ــ نعم ، اذا كنت أقوى منى .

ــ ان لم اكن أقوى منك فسأدعو خدمى .

ــ حسن ! هيا نادهم وسنرى .

ونادى صاحب الحانة ، فدخل للتو ثلاثة من الخدم الذين كانوا

على علم بالأمر ، وفى يد كل منهم عصا ، وانسحب العامل صامتا رغما عن رغبته فى المقاومة . وهكذا خرج من الحانة ، وتجول بعض الوقت فى أرجاء المدينة . ولما حان وقت العشاء دخل مطعما حقيرا اعتاد العمال أن يتنالوا طعامهم فيه . ولم يكد يفرغ من النهام حسائه حتى دخل العمال الذين انتهوا من عملهم اليومى . فلما أبصروه توقفوا عند عتب الباب ، ودعوا اليهم صاحب المحل وأفهموه انهم سوف يتركون محله اذا بقى هذا الرجل يأكل فيه. ولما استفسر صاحب المحل عما فعله الرجل ، حتى أصبح هكذا مغضوبا عليه من الجميع ، أخبروه انه هو الذى صفع هنرى الرابع. عندئذ تقدم منه صاحب المطعم وقال له : اذن اخرج من هنا وليكن ما أكلته سما زعافا . وكانت فرصة المقاومة فى هذا المطعم أضعف منها فى الحانة ، فنهض العامل الملعون وهو يتهدد زملاءه الذين أفسحوا له الطريق لا خوفا من تهديداته ، ولكن بسبب ما اقترفه من جرم قبيح .

وهكذا خرج الرجل والحقد يغلى فى صدره ، وجال فى شوارع سان دنيس شطرا من الليل دون هدف ، وهو يلعن الأديان ، ويقسم بأفحش الايمان . وفى حوالى العاشرة توجه الى منزله . وعلى خلاف المعتاد ، وجد الأبواب مغلقة ، فقرع الباب ، وظهر المؤجر فى النافذة . ولما كانت الليلة حالكة الظلام فانه لم يستطع التعرف عليه فسأله : من أنت ؟

فذكر العامل اسمه .

فقال المؤجر : آه ! انت الذى صفعت هنرى الرابع . انتظر.

فأجاب العامل وقد عيل صبره : ماذا ! ماذا انتظر ؟

وفى نفس اللحظة سقطت ربطة بجوار قدميه .

ـ ما هـذا ؟

ـ كل ما يخصك فى هذا المنزل .

ـ كيف ذلك ! كل ما يخصنى فى المنزل ؟

ـ نعم ، عليك أن تنصرف وترقد فى أى مكان يحلو لك ، فانا لا أريد أن أرى المنزل يسقط فوق رأسى .

فاستشاط العامل غضبا وتناول حجرا ورمى به باب المنزل .

فقال المؤجر : انتظر ، سأوقظ رفاقك وسوف نرى ما يحدث .

وفهم العامل انه لن يلقى أى خير اذا انتظر ، فانسحب . وعلى بعد مائة خطوة وجد بابا مفتوحا فدخل منه ووجد نفسه تحت

سقيفة ، ووجد قشا فرقد عليه ونام . وقبل منتصف الليل بربع ساعة خيل اليه أن شخصا يمس كتفه ، فاستيقظ ورأى امامه جسما أبيض فى شكل امرأة أشارت اليه أن يتبعها . فظن أنها من أولئك النسوة اللاتى يقدمن المأوى والمتعة لمن يدفع لهن الثمن. ولما كان معه نقود ، ويود أن يقضى ليلته فى مكان مغلق ، ويرقد على سرير بدلا من أن يرقد على قش تحت سقيفة ، فقد نهض وسار وراء المرأة . ومشت المرأة بعض الوقت بحذاء المنازل القائمة على الجانب الأيسر من الشارع الكبير ، ثم عبرت الشارع، وسارت فى حارة الى اليمين ، وأشارت الى العامل ان يتبعها . ولما كان هذا قد اعتاد مثل هذه المناورات الليلية ، ويعرف بالتجربة الطرقات التى يقطن فيها مثل هؤلاء النسوة ، فانه لم يبد أى اعتراض ، وسار فى الطريق الذى انتهى الى الحقول ، فظن أن المرأة تقطن فى بيت منعزل فتبعها . وبعد مسيرة مائة خطوة اجتاز ثغرة فى الطريق ، ثم رفع عينيه فرأى أمامه فجأة كنيسة سان دنيس القديمة بناقوسها الضخم ونوافذها الملونة قليلا باللهب الداخلى الذى كان الحارس ساهرا بجواره . وجال ببصره يبحث عن المرأة ، ولكنها كانت قد اختفت . ووجد نفسه فى المقبرة . وأراد أن يعود أدراجه فيمر من الثغرة ، ولكن خيل اليه انه يرى على الثغرة شبح هنرى الرابع مادا اليه ذراعه يتهدده . وتقدم الشبح منه خطوة فتقهقر العامل خطوة ، ثم أخرى . وعند الخطوة الرابعة أو الخامسة مادت الارض تحت قدميه فسقط فى الحفرة . وعندئذ ابصر كل هؤلاء الملوك من أجداد هنرى الرابع وأحفاده ينتصبون حوله . وخيل اليه أن بعضهم يرفع عليه صولجاناتهم ، والبعض الآخر يمد نحوه يد العدالة ، والكل يصيحون: « تعسا لك أيها المعتدى الاثيم » . وخيل اليه أنه يلمس أيدى العدالة والصولجانات الثقيلة الملتهبة ، فتتهشم أعضاء جسمه الواحد بعد الآخر .

وفى تلك اللحظة دقت الساعة مؤذنة نصف الليل ، وسمع الحارس صيحات الألم .

وفعلت كل ما بوسعى لتهدئة هذا التعس ، ولكنه فقد الصواب . وبعد ان استمر بهذى ثلاثة أيام قضى نحبه وهو يصيح : الرحمة !

قال الطبيب : عفوا ، ولكن لا افهم تماما نتيجة قصتك هذه ،

فما حدث لهذا العامل يثبت الآتى : ان ذهنه كان منشغلا بما حدث له نهارا سواء وهو فى الحالة اليقظة او وهو يسير نائما ، فقد راح يتجول ليلا حتى دخل المقبرة ، ولما كان ينظر فى الهواء بدلا من أن ينظر تحت قدميه فانه سقط فى الحفرة بطبيعة الحال فانكسر ساقه وذراعه . والآن وقد تحدثت عن نبوءة تحققت ، فاين ياترى النبوءة فى كل ماقصصت ، حتى ولو كانت نبوءة صغيرة ؟

فقال الشفاليه : انتظر يا دكتور . ان القصة التى حكيتها الآن ، وهى حدث واقعى ومادى كما تقول ، تؤدى مباشرة الى النبوءة التى سوف أرويها لكم والتى هى سر غامض . واليكم هذه النبوءة :

فى حوالى ٢٠ من يناير عام ١٧٩٤ ، بعد أن هدمت مقبرة فرنسوا الاول ، فتح ضريح الكونتس دى فلاندر ابنة فيليب الطويل ، وكان هذان القبران هما الاخيران اللذان بقيا وفتحا بعد أن تهدمت كل الأقبـاء ، وأصبحت الأضرحة كلها خاوية والعظام كلها فى مستودع العظام . وبقى ضريح أخير لا يعرف مكانه ، هو ضريح الكردينال ريتز الذى قيل انه دفن فى سان دنيس .

وأعيد غلق الأقباء كلها ، او معظمها ، قبو أسرة فالوا ، وقبو أسرة شارل ، ولم يبق سوى قبو أسرة البوربون الذى كان يجب غلقه فى اليوم التالى . وقضى الحارس ليلته الاخيرة فى الكنيسة التى لم يبق فيها ما يستلزم حراسة ، ومن ثم أذن له بالنوم ، فنام . وفى منتصف الليل أيقظه عزف الارغون وصوت الترانيم الدينية ، فنهض وفرك عينيه وادار رأسه نحو المحراب حيث مصدر الأصوات . وعندئذ أبصر لدهشته مقاعد جوقة المرتلين وقد احتلها قسس كنيسة سان دنيس ، وأحد رؤساء الاساقفة يؤدى الطقوس الدينية ، والمصباح الجنائزى مضاء وتحته بساط الرحمة القطيفى المذهب الذى لا يغطى عادة سوى أجداث الملوك . وفى اللحظة التى استيقظ فيها الحارس كانت الصلاة قد انتهت وبدأت طقوس الدفن . فتسلم رسل الحرب الصولجان والتاج ويد العدالة ، وكانت موضوعة على وسادة من القطيفة الحمراء ، وقدموها الى ثلاثة امراء تناولوها . وفى الحال تقدم اشراف المجلس فلم يسمع لوقع اقدامهم فى القاعة اى صوت ، وكأنهم ينزلقون ، وتناولوا الجثة وحملوها الى قبو البوربون ، القبو الوحيد المفتوح ، بينما كانت الاقباء الاخرى قد أعيد غلقها . عندئذ نزل الى القبو

قائد الاسلحة ونادى على رسل الحرب أن ينزلوا ليؤدوا مهمتهم، وكانوا خمسة . ومن قاع القبو نادى قائد الاسلحة على الرسول الاول الذى نزل حاملا المهاميز ، ثم الثانى الذى نزل حاملا القفازات الحديدية ، ثم الثالث الذى نزل حاملا الدروع ، ثم الرابع الذى نزل حاملا الخوذات المدموغة ، ثم الخامس الذى نزل حاملا السترة المدرعة . وبعد ذلك نادى على الوصيف الأول الذى أحضر العلم ، ثم ضباط الحرس السويسرى ورماة الحرس ومائتين من أشراف القصر وحامل الأسلحة الذى أحضر سيف الملك ، والأمين الاول الذى أحضر علم فرنسا ، ثم كبير الخدم الذى مر أمامه كل خدم المائدة بالقصر وهم يلقون بعصيهم البيضاء فى القبو . ويحيون عند مرورهم الأمراء الثلاثة حاملى العلم والصولجان ويد العدالة .

عندئذ صاح قائد الأسلحة ثلاثا بصوت مرتفع : « مات الملك ، يحيا الملك » وردد النداء الثلاثى واحد من رسل الحرب كان قد بقى فى المحراب .

وأخيرا كسر رئيس الخدم عصاه رمزا لانتهاء الخدمة فى القصر الملكى. وفى الحال دقت الطبول وارتفع صوت الارغون . وبينما كانت دقات الطبول تضعف وصوت الارغون يخفت أخذت أضواء الشموع تبهت وأجسام الحاضرين تختفى . ومع آخر ذبذبة فى صوت الارغون وآخر دقة من دقات الطبول ، تلاشى كل شىء .

وفى اليوم التالى قص الحارس وهو يبكى ما شهده فى حفل الدفن الملكى ، وكان الرجل الوحيد الذى حضره ، وتنبأ ان هذه القبور المشوهة سوف ترمم ، وانه على الرغم من قرارات المؤتمر الوطنى، وأعمال المقصلة ، سوف تشهد فرنسا أسرة مالكة جديدة ، وترى سان دنيس ملوكا جددا . وأدت هذه النبوءة بصاحبها الى السجن ، وكادت تنتهى به الى المقصلة . وبعد ثلاثين عاما ، أى فى ٢٠ من سبتمبر عام ١٨٢٤ ، قال لى ذلك المسكين ، خلف العمود الذى شهد عنده تلك الرؤيا ، قال وهو يجذب طرف ردائى . حسن ، ياسيد لينوار . هل كنت مخطئا حينما قلت لك ان ملوكنا المساكين سوف يعودون يوما الى سان دنيس ؟

وبالفعل ، دفن فى ذلك اليوم نفسه لويس الثامن عشر ، بنفس الطقوس التى رآها حارس القبور منذ ثلاثين عاما خلت ..

— فسر لنا هذا أيها الطبيب .

لارتيفـــاى



(١٠) لارتيفاى

وسكت الطبيب ، اما لأنه اقتنع ، واما لأنه لم يجرؤ أن يعارض شخصا مثل الشفاليه لينوار . وأفسح صمت الطبيب مجالا للتفسيرات ، فتقدم الأب مول فى هذا الميدان وقال :

ـ كل هذا يؤيد وجهة نظرى .

فسأله الطبيب وقد سره عودة الجدل مع مبارز أقل صلابة من السيد ليدرو أو الشفاليه لينوار : وما هى وجهة نظرك ؟

ـ اننا نعيش بين عالمين غير منظورين ، أحدهما آهل بالأرواح الشريرة ، والثانى آهل بالارواح الربانية . ففى اللحظة التى يولد فيها كل منا ، يأتى روحان فيتخذان مكانيهما الى جانبيه ، ويظلان برفقته طوال حياته ، احداهما روح طيبة تهمس له بالخير ، والاخرى شريرة توعز له بالشر . وفى ساعة الموت تستولى عليه الروح التى تنتصر على الاخرى . وعلى ذلك تغدو أجسامنا فريسة لشيطان أو مقرا لملاك . ولنعتبر حالة سولانج المسكينة . لقد انتصر معها ملاك الخير ، وكان هو الذى ودعك يا ليدرو ، خلال شفاه الضحية الصامتة . وفى حالة اللص الذى حكم عليه القاضى الاسكتلندى بالاعدام ، كان الشيطان هو الذى استمر متسلطا على المكان ، وجعل يتردد على القاضى فى صورة قط . ثم ساع ، ثم هيكل عظمى . وفى القصة الاخيرة كان ملاك الأسرة المالكة هو الذى انتقم من المجرم الذى انتهك حرمة الموتى ودنس القبور ..

وهو الذى كشف لبصيرة الحارس المسكين عما هيأه المستقبل لعودة الملكية ، كما يتجلى المسيح للناس المساكين . وقد تكشفت له النبوءة ، فخيل اليه انه يشهد حفلة رائعة حضرها كل رجال المستقبل من بلاط لويس الثامن عشر .

فقال الطبيب : ولـكن ياسيدى القس ، كل نظرية لابد على اية حال أن تقوم على عقيدة .

ـ دون شك .

ـ وهذه العقيدة ، لابد أن تعتمد على حدث ، حتى تكون حقيقية .

ـ وعقيدتى هذه تعتمد على واقعة .

ـ قصها عليك شخص تثق به ؟

ـ بل حدثت لى بالفعل .

ـ آه ! أيها القس ، الينا بالواقعة .

ـ بكل سرور . ولدت فى ذلك الجزء من ضياع الملوك السابقين الذى يسمى الآن مقاطعة «ليزن» ، وكان يسمى فيما مضى « ايل دوفرانس » . وكان أبى وأمى يعيشان فى قرية صغيرة تسمى « فليرى » وسط غابة « فيلير كوتيريه » . وكان لأبى ، قبل أن أولد ، خمسة أبناء ، ثلاثة ذكور ، وبنتان ، ماتوا جميعا ، ومن ثم نذرت أمى ، حين حملتنى ، أن تلبسنى ثيابا بيضاء حتى أبلغ السابعة ، ونذر أبى أن يحج الى « نوتردام دو لييس » . ولم يكن هذان النذران بالشىء النادر فى الاقليم ، وبينهما علاقة مباشرة ، فاللون الابيض هو اللون الذى تختص به العـــذراء ، ولم تكن « نوتردام دو لييس » سوى العذراء مريم .

ولسوء حظى مات أبى وأنا فى بطن أمى ، وكانت أمى سيدة متدينة ، ولذلك صممت على الوفاء بالنذرين كاملين ، فما أن ولدت حتى ألبستنى الثياب البيض من رأسى الى قدمى . وما أن أصبحت قادرة على السير حتى أدت الحج المقدس المنذور سيرا على الاقدام . وكانت كنيسة « نوتردام دو لييس » لحسن الحظ على بعد خمسة عشر أو ستة عشر فرسخا من قرية فليرى ، فوصلت اليها والدتى على ثلاث مراحل . وهناك أدت صلواتها ، واستلمت من يد راعى الكنيسة أيقونة فضية علقتها على عنقى .

وبفضل هذين النذرين أصبحت بمأمن من علل الطفولة . وعندما ادركت سن البلوغ وجدتنى أميل الى البيئة الكنسية ، اما بسبب ثقافتى الدينية التى تلقيتها ، واما بتأثير الايقونة . ولما أتممت دراساتى بمدرسة « سواسون » الاكليريكية ، تخرجت عام ١٧٨٠

وعينت قسيسا فى « ايتامب » . وشاءت الصدفة ان الحق بكنيسة نوتردام ، احـدى كنائس ايتامب الاربع ، وهى من الروائـع التى خلفها العصر الرومانى للقرون الوسطى ، شيدها « روبير القوى » ولم يتم بناؤها الا فى القرن الثانى عشر ، وما زال بها الى الآن لوحات زجاجية مدهشة لابد انها كانت ، وقت بناء الـكنيسة ، متناسقة مع الرسوم والنقوش الذهبية التى كانت تغطى أعمدتها وتحلى تيجانها . وكنت فى طفولتى مغرما بتلك المجموعات الزاهرة من الجرانيت التى استخرجت من باطن الارض ، بقوة الايمان ، لتغطى أرض فرنسا ، من القرن العاشر حتى السادس عشر ، فرنسا ابنة روما الـكبرى ، بغابة من الـكنائس ، التى توقف بناؤها حين زال الايمان من القلوب ، بعد أن قتلته سموم لوثر وكلفن .

وكنت وأنا طفل ألعب فى أطلال « سان جان دوسواسون » وأمتع النظر بجمال هـذه النقوش التى تشبه الزهور الذابلة . فلمـا رأيت « نوتردام دى أتامب » شعرت بالسعادة ، لأن الصـدفة أو العناية الربانية قد وهبتنى مثل هـذا العش البـديع اللائق بعصفور الجنة ، أو السفينة اللائقة بالـكيون (١) .

وهكذا كانت أوقاتى السعيدة هى تلك التى أمضيها فى الكنيسة ــ ولا أقول ان الشعور الدينى الخالص هو الذى يبقينى بها ، لا ، انما هو الشعور بالراحة ، شعور الطائر الذى يخرجه انسان من جهاز بدأ تفريغ الهواء به فيطلقه فى الهواء ويمنحه الحرية . وكان عالمى محدودا بأبواب الـكنيسة ، وحريتى أن أستغرق فى التأمل لساعتين ، جاثيا على ركبتى أمام قبر ، أو معتمدا بمرفقى على عمود . فيم كنت أتأمل ؟ ليس بالطبع فى دقائق علوم الدين ، كلا ، بل فى الصراع الابدى بين الخير والشر ، الصراع الـذى يتجاذب الانسان منذ أن زل .

كنت أتأمل الملائكة الجميلة ذوات الاجنحة البيضاء ، والشياطين البشعة ذوى الوجوه الحمراء التى تلمع صـــورها على اللوحات الزجاجية كلما وقع عليها شعاع الشمس ، فبعضها يتألق بالانوار الربانية ، والبعض الآخر يشتعل بنـــار جهنم . كانت كنيسة

---

(١) من شخوص الاساطير الاغريقية ــ المترجم .

« نوتردام » هى مقامى ، فيها عشت وفكرت وصليت . اما البيت الصغير الذى خصص لى فلم يكن بالنسبة الى اكثر من مسكن وقتى ، أطعم وأنام فيه فحسب . ولم اك أبرح كنيستى الجميلة « نوتردام » فى أغلب الاحيان الا فى منتصف الليل ، أو فى الساعة الواحدة صباحا . وكان الناس كلهم يعلمون اننى اذا لم أكن فى بيتى الكهنوتى فاننى أكون فى الكنيسة ، فيأتون ثمة لزيارتى .

ولم يكن يطرق مسامعى الا القليل من ضجيج العالم ، وأنا محبوس فى هذا المحراب ، محراب الدين ، ومحراب الشعر بنوع خاص . ومن بين هذا الضجيج ، برز أمر واحد كان يشغل أذهان الناس كلهم ، صغيرهم وكبيرهم ، أهل الدين وأهل الدنيا : فقد تعرضت مجاورات ايتامب لاعتداءات أحد خلفاء « كارتوش وبولاييه » أو بالاحرى أحد منافسيهما ، اقتفى بجرأته آثار أسلافه ، لص كان يسطو على كل شىء ، وبخاصة على الكنائس ، واسمه « لارتيفاى » .

وثمة شىء جعلنى أهتم بمغامرات هذا اللص بنوع خاص ، ذلك أن زوجته التى تعيش فى بلدة ايتامب السفلى ، كانت تواظب على زيارتى والاعتراف لى ، وهى امرأة شجاعة فاضلة . وكان ضميرها يؤنبها بسبب ما يرتكبه زوجها من آثام تعتبر نفسها مسئولة عنها أمام الله بصفتها زوجته . لذلك كانت تمضى أوقاتها فى الصلاة والاعتراف ، لعلها تخفف بأعمالها الصالحة من أوزار زوجها . أما هو ، فقد قلت لكم انه لص لايخاف الله ولا الشيطان ، ويزعم أن المجتمع فاسد ، وأنه مبعوث الى الارض ليصلحه ، وان التوازن فى توزيع الثروات سوف يتم على يديه ، وانه ليس الا بشيرا لشيعة سوف تظهر ذات يوم فتدعو الى ما يطبقه هو الآن ، أى اشتراكية المال .

وقد قبض عليه مرارا ، وسيق الى السجن ، وفى كل مرة تقريبا ، يجدون غرفة سجنه ، بعد الليلة الثانية أو الثالثة ، خاوية . ولما لم يتمكن أحد من كشف سر هذا الفرار المتكرر ، قيل انه اكتشف العشب الذى يقطع الحديد.

وعلى ذلك كان فى هـذا الرجل اعجوبة من الاعاجيب ، واقر انى لم أفـكر فى هـذا الا عندما جاءتنى المراة المسكينة تعترف لى بجرائمه الفظيعة وتلتمس نصيحتى . وعندئذ أشرت اليها أن تستخدم كل نفوذها على زوجها لترده الى طريق الصواب ولـكن نفوذ المرأة المسكينة عليه كان ضعيفا للغاية ، فلم يبق لها سوى طريق واحد أبدى ، طريق الصلاة ، والتماس العفو والغفران .

واقتربت أعياد الفصح عام ١٧٨٣ ، وكانت ليلة الخميس قبل الجمعة المقدسة . وفى يوم الخميس سمعت الـكثير من الاعترافات حتى شعرت بالتعب فى حوالى الثامنة مسـاء ، ففغوت فى مكان الاعتراف . ورآنى أمين مخزن الـكنيسة وأنا أنام ، وكان على علم بعاداتى ، ويعرف أن معى مفتاحا لباب الـكنيسة ، ولذا لم يفكر فى ايقاظى ، فقد حدث لى مثل هـذا مئات المرات . وهكذا نمت. وبينا أنا نائم سمعت رنينا مزدوجا ، أحـدهما رنين مطرقة الناقوس البرونزية تدق الثانية عشرة ليلا والثانى وقع أقدام تدب على البلاط .

وفتحت عينى وتأهبت للخروج من مكان الاعتراف . وعنـدئذ خيل الى أننى أرى خلال أشعة القمر التى كانت تنفذ من زجاج احدى النوافذ رجلا يمشى بحذر متلفتا حوله عند كل خطـوة يخطوها ، ومن ثم أدركت أنه ليس من معـاونى الـكنيسة ، أو القواس أو المرتل أو أحد المترددين ، ولـكنه دخيل جاء بنيـة شريرة .

واتجه الزائر الليلى نحو المحراب ، ولمـا بلغه توقف لحظة ، ثم سمعت ذلك الصوت الجاف الذى ينتج من احتكاك الحديد بحجر النار، ورأيت وميض شرارة والتهاب قطعة من الصوفان اضاءت شمعة موضوعة على المذبح . وفى ضـوء الشمعة أمكننى ان ارى رجلا متوسـط القامة ، فى منطقته مسدسان وخنجر ، له وجه ساخر أكثر منه مخيف . وبدا عليه أنه قد اطمأن تماما بعد أن القى نظرة فاحصة على كل المساحة التى تضيئها الشمعة ، ومن ثم أخرج من جيبه شيئا كحزمة الآلات التى تقوم بعمل المفاتيح ، واستعان بها فى فتح دولاب المحراب ، فأخرج أولا صندوق المخلفات

المقدسة ، وهو قطعة جميلة من الفضة القديمة المنقوشة فى عهد هنرى الثانى ، ثم شعاع القربان المقدس الذى اهدته الملكة مارى انطوانيت الى المدينة . ثم قنينتين من الفضة المذهبة . ولما كانت هذه الاشياء هى كل محتويات الدولاب ، فقد أعاد غلقه بعناية، وركع على ركبتيه ليفتح الجزء الاسفل من المحراب ، الذى يضم المخلفات المقدسة ، وبه تمثال من الشمع للعذراء عليه تاج من الذهب والماس ، يلفه رداء مطرز بالاحجار الكريمة . وبعد خمس دقائق فتح الجزء السفلى من المحراب بمفتاح مزيف ، وكان فى مقدوره على أية حال أن يحطم جدرانه الزجاجية . وحين شرع فى ضم الرداء والتاج الى شعاع القربان المقدس والقنينتين ووعاء القربان المقدس ، خرجت من مكانى وتقدمت صوب المحراب ، وفى عزمى أن أمنع هذه السرقة .

وتلفت اللص حين سمع صوت الباب وهو ينفتح ، ومال ناحيتى وحاول أن يخترق ببصره ظلام الكنيسة ، ولكن مقصورة الاعتراف كانت خارج نطاق الضوء ، فلم يرنى الا حينما دخلت فى الدائرة التى ينيرها لهب الشمعة المتذبذب . ولما لمحنى ، اتكأ على المحراب وأخرج من حزامه مسدسا صوبه نحوى . ولكنه ادرك من ردائى الاسود الطويل أننى لست سوى قسيس بسيط لا خطر منه ، لا يحميه الا الايمان ولا سلاح له غير الكلام. وعلى الرغم من تهديد المسدس ، تقدمت حتى درجات المحراب ، وقلبى يحدثنى أنه اذا أطلق النار فاما أن تخيب الرصاصة أوتنحرف. ووضعت يدى على الايقونة وشعرت بحب العذراء القدسى يغمرنى

وبدا اللص كأنه قد تأثر من هدوء القس المسكين ، وقال لى بصوت حاول أن يجعله ثابتا : ماذا تريد ؟

ــ هل أنت لارتيفاى ؟

ــ بلا شك ، ومن غيرى يجرؤ على اقتحام الكنيسة وحده ؟

ــ يا لك من آثم جبار ، يتباهى باثمه ، الا تعلم أنك بما تقترف تخسر جسمك كما تخسر روحك ؟

فقال ساخرا : آه ! اما جسمى فقد انقذته مرارا ، وآمل أن انقذه مرات أخرى ، وأما روحى ..

ــ حسن ! وروحك ؟

ــ هــذا من شــأن زوجتى ، فهى قديسة ، فى مقدورها أن تنقذ روحى وروحها فى وقت واحد .

ــ صدقت ، فزوجتك يا صديقى امرأة صالحة ، ولا شك أنها سوف تموت كمدا اذا علمت أنك ارتــكبت الجرم الذى كنت على وشك ارتــكابه .

ــ أوه ! أوه ! أتظن أن زوجتى المسكينة ستموت كمدا ؟

ــ أنا واثق من ذلك .

فانفجر اللص ضاحكا ومد يده الى الأدعيـــــة المقدسة قائلا :

ــ حسن ! سوف أرتل اذن ؟

ولــكنى صعدت درجات المحراب الثـلاث وقبضت على ذراعه وقلت : « لا ، لن ترتــكب هــذا الاثم » .

ــ ومن ذا الذى يمنعنى من ارتــكابه ؟

ــ أنا .

ــ بالقوة ؟

ــ كلا ، بل بالاقناع ، ان الله لم يبعث رســـله الى الارض ليستعملوا القوة ، وهى من خصـــــائص البشر ، بل ليستعينوا بالاقنــاع الذى هو فضيلة سماوية . ياصديقى ، ان الأمر لايعنى الكنيسة التى تستطيع أن تقتنى أوانى أخرى ، ولــكنه يعنيك أنت الذى لا تستطيع أن تنال الغفران عن آثامك . اياك وهــذا الاثم ياصديقى !

ــ آه ! هـــذا الاثم ! اتظن اذن أيها الرجل الطيب أنه هو الأول ؟

ــ لا ، بل أعلم انه العاشر أو العشرون أو الثلاثون ، ما أهمية ذلك ؟ ان عينيك كانتا مغلقتين حتى اليوم ، وسوف تتفتحان هذا المســاء ، هــذا كل ما فى الأمر . ألم تسمع عن رجل يدعى «بول» كان يحرس معاطف أولئك الذين رجموا القــديس « ايتين » ؟ حسن ! كان على عين هذا الرجل غشاوة ، على حد قوله . وذات يوم سقطت الغشاوة عن عينيه فأبصر ــ وأصبح القديس «بول» ، نعم القديس بول العظيم المشهور .

ـ قل لى اذن ياسيدى القس ، الم يشنق القديس بول ؟
ـ نعم .
ـ حسن ! ماذا أفاد من ابصاره ؟
ـ لقد آمن بأن الخلاص قد يكون أحيانا فى التعذيب ، وترك على الارض اسما موقرا ، وهو الآن يتمتع بجمال الأبدية فى السماء .
ـ فى أى سن استطاع بول أن يبصر ؟
ـ فى الخامسة والثلاثين .
ـ لقد تخطيت هـذا السن فأنا فى الأربعين .
ـ ما زال فى الوقت متسـع للتوبة . قال المسيح للص الأثيم وهما مصلوبان : « صل بكلمة واحدة ، وأنا أخلصك » .

فقال اللص وهو ينظر الى : آه ، انت اذن متشبث بفضياتك ؟

ـ كلا ، بل أتشبث بروحك التى أريد أن أنقذها .

ـ روحى ! انت تدخل ذلك فى روعى ، بل وتسخر منى !

ـ اتريد أن أثبت لك أن روحك هى التى أريد أن أخلصها ؟
ـ نعم ، آتنى بهذا الاثبات ، يسرنى ذلك .
ـ بكم تقدر قيمة المسروقات التى سوف تستولى عليها الليلة ؟
فقال اللص وهو ينظر باستحسان الى القنينة والـكأس وشعاع القربان المقدس وثوب العذراء : ايه ! ايه ! بألف دينار (١) .
ـ الف دينار ؟
ـ اعرف ان هـذا هو ضعف الثمن ، ولـكن لابد من ضيـاع ثلثى القيمة ، فهؤلاء اليهود الشياطين لصوص .
ـ تعال معى الى المنزل .
ـ منزلك ؟
ـ نعم ، فعندى الف فرنك ، سوف أعطيها لك تحت الحساب .
ـ والألفان الآخران ؟
ـ الألفان الآخران ؟ حسن ! اعدك وعد قسيس بان أذهب الى بلدتى حيث تملك أمى بعض المـال ، فأبيع ثلاثة أو أربعة أفدنة من ارضها لأحصل على الألفى فرنك الاخرى ، فأعطيها لك .
ـ نعم ، تضرب لى موعدا ، وتوقعنى فى فخ ؟

---

(١) écu ـ عملة فرنسـية قديمة كانت تساوى ثلاثة جنيهات ـ المترجم

فقلت له وأنا أبسط يدى نحوه : انت لا تؤمن بهذا الذى تقوله.

فقال واجما : هــذا صحيح ، فأنا لا أومن بذلك . ولكن أمك اذن غنية ؟

ـ امى فقيرة .

ـ سوف تفدو معدمة ؟

ـ اذا قلت لها اننى سأخلص روحا فى مقـــابل خرابها ، فانها سوف تباركنى ، ثم اذا لم يبق معها شىء ، فسوف تأتى وتقيم معى ، ويكون عندى ما يكفى لاثنين .

ـ قبلت ، هيا الى منزلك .

ـ هيا ، ولــكن انتظر .

ـ ماذا ؟

ـ ضع فى الصنــدوق كل الاشياء التى أخذتها منه واغلقـــه بالمفتــاح ، فسوف يأتيك ذلك بالحظ السعيد .

وقطب اللص حاجبيـــــه كمن داخله الايمان رغم أنفه ، وأعاد الوعاءين المقدسين الى الصندوق وأغلقه بعناية شديدة ، وقال : هلم !

فقلت له : ارسم أولا علامة الصليب .

وحاول أن يضحك ساخرا ، ولــكن الضحكة انقطعت من تلقائها. ورسم علامة الصليب .

فقلت له : والآن ، اتبعنى .

وخرجنا من الباب الصغير ، وفى أقل من خمس دقائق ، كنا فى منزلى . وفى الطريق ، على قصره ، بدت على اللص اشد حالات القلق ، فقد جعل ينظر حوله كأنه يخشى أن أوقعه فى كمين . ولما بلغنا المنزل توقف بالقرب من الباب وســألنى : حسن ! الألف فرنك .

فأجبته : انتظر ..

واشعلت شمعة من نار موقدى التى كانت تخبو ، وفتحت دولابا واخذت منه كيسا ، وقلت له : ها هى ذى .

واعطيته الــكيس .

ـ والآن ، متى أحصل على الألفى فرنك ؟

ـ امهلنى ستة أسابيع .
ـ حسن .. اعطيك ستة اسابيع .
ـ والى من أسلمهما ؟
وفكر اللص برهة ثم قال : الى زوجتى .
ـ حسن !
ـ ولكن هل ستعرف من أين جاءت النقود أو كيف حصلت عليها ؟
ـ لن يعرف ذلك أحد ، لا هى ولا سواها . ولن تحاول أنت أن تقوم بأى عمل ضد كنيسة نوتردام دى اتامب أو سواها من كنائس العذراء .
ـ أبدا .
ـ اتعد بذلك ؟
ـ اقسم بشرف لارتيفاى .
ـ انصرف يا أخى ، ولا تأثم بعد الآن .
وحييته باشارة من يدى تأذن له بالانصراف . وبدا عليه التردد برهة ، ثم فتح الباب بحذر واختفى . وركعت وصليت من أجل هذا الرجل . ولم أكد أتم صلاتى حتى سمعت قرعا على الباب ، فقلت دون أن ألتفت : أدخل . كان ثمة شخص قد رآنى أصلى فتوقف عندما هم بالدخول ، وظل واقفا خلفى. ولما اتممت صلاتى ، استدرت فرايت لارتيفاى واقفا ثابتا لا يتحرك بجوار الباب ، وهو يضم حقيبته تحت ذراعه .
قال لى : هاك : اننى ارد لك الألف فرنك .
ـ الألف فرنك ؟
ـ نعم ، واعفيك من الألفين الآخرين .
ـ ولكن ، أما زلت عند وعدك ؟
ـ نعم .
ـ لقد تبت اذن ؟
ـ لا أدرى ان كنت قد تبت ام لا ، ولكنى لا اقبل نقودك ، هذا كل ما هنالك .
ووضع الكيس على حافة الخوان . ثم توقف ، وبدا كأنه يريد

أن يسأل شيئا ، وشعرت انه يلقى صعوبة فى أن يخرج سؤاله من بين شفتيه ، وساءلتنى عيناه ، فقلت له : ماذا تريد ؟ تكلم ياصديقى ، ان مافعلته الآن شىء طيب ، فلا تخجل من أن تعمل شيئا أفضل منه .

فسألنى : اتخلص فى تعبدك للعذراء ؟

ــ اخلاصا شديدا .

ــ وتؤمن بأنه بفضل وساطتها وشفاعتها ، يستطيع رجل مذنب أن ينال الغفران ، مهما كبر ذنبه ؟ حسن ! عوضا عن الثلاثة آلاف فرنك التى أعفيتك من دفعها ، اعطنى شيئا من المخلفات المقدسة ، مسبحة أو صندوق مخلفات أو ما شابه ، شيئا أستطيع أن الثمه ساعة موتى .

عندئذ فككت الأيقونة والسلسلة الذهبية التى كانت أمى قد أحاطت بهما عنقى يوم ولادتى ، والتى لم تفارقنى منذ ذلك الحين ، وأعطيتها للص .

ووضع اللص شفتيه على الايقونة وانصرف .

وانقضى عام دون أن أسمع شيئا عن لارتيفاى . لقد غادر ايتامب بلا شك ليواصل نشاطه فى جهة أخرى . وفى هذه الأثناء وصلنى خطاب من زميلى قس « فليرى » ينبئنى فيه أن أمى الطيبة فى شدة المرض وانها تدعونى الى جوارها . فحصلت على اجازة وسافرت اليها ، وأمضيت ستة أسابيع ، أو شهرين أصلى وأعتنى بأمى حتى استردت صحتها ، وافترقنا بعد ذلك ، أنا مسرور وهى فى صحة جيدة . وعدت الى ايتامب ، ووصلت اليها فى مساء الجمعة ، ووجدت المدينة كلها مضطربة ، فقد قبض على اللص الشهير لارتيفاى فى نواحى أورليانز ، وحوكم فى محكمة المدينة التى أدانته وارسلته الى ايتامب ليشنق فيها ، اذ كانت ايتامب هى المسرح الرئيسى لجرائمه . وتم تنفيذ الحكم فى صباح هذا اليوم . هذا ما عرفته فى الشارع . ولكن عندما دخلت منزلى علمت شيئا آخر : فقد جاءت امرأة من البلدة المنخفضة صباح امس ، أى فى الوقت الذى وصل فيه لارتيفاى الى ايتامب لينفذ فيه الحكم ، واستفهمت أكثر من عشر مرات عن موعد

عودتى . ولم يكن الحاحها هذا يدعو الى الدهشة . اذ كنت قد ارسلت خطابا أعلن فيه عودتى . وكان وصولى متوقعا من لحظة الى أخرى .

ولم أك أعرف فى البلدة المنخفضة سوى تلك المرأة المسكينة التى سوف تترمل ، فعزمت على أن اذهب الى بيتها قبل أن أزيل الأتربة العالقة بحذائى . وكانت المسافة بين بيتى وبين البلدة المنخفضة قصيرة للغاية . ودقت الساعة العاشرة مساء ، ومع ذلك كنت متيقنا من أن المرأة المسكينة لن تنزعج من زيارتى لها فى مثل هذا الوقت لشدة رغبتها فى رؤيتى . وعلى ذلك نزلت الى الضاحية واستعلمت عن بيتها . ولما كان الجميع يعرفونها بتقواها ، فان أحدا لم يحملها ذنوب زوجها ولم يلصق بها العار لأعماله الشريرة . ووصلت الى باب بيتها ، وكانت ضلفته مفتوحة ، ولمحت خلال اللوحة الزجاجية تلك المرأة المسكينة راكعة تصلى عند قدم السرير ، وكان واضحا ، من حركة كتفيها أنها تنتحب . وقرعت الباب ، فنهضت المرأة وأقبلت مسرعة ، وفتحت الباب وصاحت : آه ياسيدى القس! صدقظنى انه أنت : حين طرقت الباب فهمت انك الطارق . يا لسوء الحظ ، لقد جئت متأخرا فقد مات زوجى دون أن يعترف .

– مات اذن وهو فى ضلال ؟

– لا ، بل بالعكس ، أنا واثقة بأنه مات مسيحيا تقيا فى أعماق نفسه ، ولكنه أعلن انه لن يقبل قسا سواك ، ولن يعترف الا لك ، أو للعذراء وحدها .

– أقال لك ذلك ؟

– نعم ، قال ذلك وهو يقبل أيقونة للعذراء معلقة بسلسلة ذهبية فى رقبته . وأوصى بنوع خاص الا ينزع منه أحد هذه الأيقونة ، وقال انه اذا دفن ومعه هذه الايقونة فان الشيطان لن يتمكن من جسمه .

– اكان هذا كل ما قاله ؟

– لا ، بل قال لى أيضا ، عندما تركنى متجها الى المشنقة ، انك سوف تصل هذا المساء ، وتأتى لرؤيتى حال وصولك . ولهذا انتظرتك .

فقلت لها مندهشا : أقال لك ذلك ؟

ـ نعم ، وكلفنى فوق ذلك بصلاة أخيرة .

ـ أؤديها أنا ؟

ـ نعم أنت .. قال لى ان أرجوك فى أية ساعة تصل .. يا الهى ! كيف أجرؤ أن أقول لك هذا الشىء الذى سوف يسبب لك ألما شديدا ؟

ـ قولى ياسيدتى الفاضلة ، قولى ..

ـ حسن ! طلب منى أن أرجوك أن تذهب الى ساحة الاعدام ، وتصلى هناك تحت جثته ، من أجل روحه ، خمس صلوات ربانية وخمسا للعذراء ، وقال انك لن تخيب رجائى هذا ياسيدى القس.

ـ صدق فى هذا لأنى سوف أفعل ذلك

ـ آه .. كم أنت طيب .

وتناولت يدى وأرادت أن تقبلهما ، فسحبتهما وقلت : لا عليك أيتها المرأة الطيبة ، تشجعى .

ـ ليمنحنى الله الشجاعة ، ولن أشكو ياسيدى .

ـ ألم يطلب شيئا آخر ؟

ـ كلا ..

ـ حسن ! اذا كانت هذه الرغبة هى الكفيلة وحدها بتهدئة روحه ، فان روحه سوف تنعم بالهدوء .

وخرجت . وكانت الساعة العاشرة والنصف تقريبا ، وكنا فى أواخر شهر ابريل ، ولم تزل ريح الشمال باردة ، ومع ذلك فالسماء جميلة ، جميلة على الاخص فى عينى الرسام ، والقمر سابح فى بحر من الظلمات التى تملأ الافق . ودرت حول الأسوار القديمة التى تحيط بالمدينة ، ووصلت الى بوابة « باريس » ، وكانت هى البوابة الوحيدة فى ايتامب التى تبقى مفتوحة بعد الساعة الحادية عشرة مساء . وكانت وجهتى فى هذا التجوال ساحة كانت ولم تزل الى اليوم تشرف على المدينة كلها . ولم يبق اليوم من آثار المشنقة التى كانت قائمة وقتئذ على تلك الساحة الا ثلاث قطع من البناء الذى يدعم الأعمدة الخشبية التى كانت موصلة فيما بينها بكمرتين تكونان المشنقة .

وللوصول الى هـذه الساحة التى تقع الى يسار السائر فى الطريق من ايتامب الى باريس ، ويمين السائر من باريس الى ايتامب ، كان لابد من المرور عند قاعدة برج « جينيت » ، وهو بناء مرتفع يظهر أنه أقيم منعزلا فى هـذا السهل لحراسة المدينة . هـــذا البرج - الذى لابد انك تعرفه أيها الشـفاليبه لينوار - حاول لويس الحادى عشر أن ينسفه فلم ينجح ، غير ان الانفجار قد شق جوف البرج فبدا كأنه يتطلع خـلال فتحة واسعة فيه ، كالعين التى لا حدقة فيها ، الى المشنقة التى لايبدو منها سوى أطرافها. والبرج مأوى للغربان نهارا ، وقصر للبوم ليلا .

مضيت فى طريقى الى الساحة وسط صرخات البوم ، متبعـا دربا ضيقا وعرا يخترق الصخر خلال شجيرات العوسج.

ولا يمكن أن أقول ان الخوف تملـكنى ، فالانسان الذى يؤمن بالله ، ويتوكل عليه لايخاف شيئا ، ولكنى كنت مضطرب المشاعر. ولم تـكن ثمة أصوات تسمع سوى الدقات الرتيبة الصادرة من طاحونة البلدة المنخفضة ، وصرخات البوم ، وصفير الريح خلال شجيرات العوسج . ودخل القمر فى سحابة قاتمة أضـاء أطرافهـا بهالة بيضاء . ثم اختفى فيها . وخفق قلبى وخيـل الى اننى سوف ارى شيئا خلاف الذى جئت من أجلـه ، شـيئا لا أتوقعه .

وأخذت أصعد الطريق ، ولمـا وصلت الى ارتفاع معين بدأت أميز الاطراف العليا للمشنقة المـكونة من ثلاثة أعمدة وكمرتين من خشب الأرو كما وصفتها آنفا . ومن الـكمرتين تتدلى صلبـان حديدية يربط بها المحكوم عليهم .

وأبصرت جثة اللص التعس لارتيفاى ، كشبح متحرك تؤرجحه الريح فى الفضاء . وفجأة وقفت ، فقد شهدت المشنقة كلها من أطرافها العليا حتى قاعدتها السفلى ، ولمحت كتلة لا شـكل لهـا تتحرك كأنها حيوان من ذوات الأربع ، فرقدت خلف صخرة ، وبدا لى هذا الحيوان أكبر من الـكلب وأضخم من الذئب .

وعلى حين غرة نهض الحيوان على قائمتيه الخلفيتين ، فأدركت أنه ليس الا ذلك المخلوق الذى قال عنه أفلاطون انه « حيـوان خال من الريش وله قدمان » أى انه انسـان . ترى ماذا يأتى

برجـل تحت المشنقة فى هـذه الساعة ؟ اللهم الا اذا جاء بنفس طاهـرة ليصلى ، او نفس شريرة ليرتكب اثما . وعلى أية حال فقـد قررت الصمت والانتظار . وفى هـذه اللحظة خرج القمر من الغمام الذى حجبه لحظة وأطل على المشنقة بكامل ضيائه .

ورفعت عينى ، وعندئذ رأيت الرجل بوضوح ، واستطعت أن أميز الحركات التى يؤديها ، فقد تنـاول سلما ملقى على الارض وأسنـده الى العمود القريب من الجثة المدلاة ، ثم ارتقى السلم ، والتصق بالجثة فـكون معها شكلا عجيبا اختلط فيه الميت بالحى وكأنهما يتعانقان . وعلى حين غرة دوت فى الجو صرخـة هائلة ، ورأيت الجسدين يهتزان ، وسمعت صوت استغاثة مختنقة ما لبثت أن أصبحت مبهمة . ثم انفصل أحد الجسدين من المشنقة ، بينما ظل الثانى معلقا فى حبلها يهز ذراعيه وساقيه .

كان من المستحيل أن أفسر ما حدث تحت هذه الآلة البشعة .. لقد حدث أمر خارق للعادة ، من فعل الانسان ، أو الشيطان ، أمر يتطلب المعونة والنجدة . وهرعت الى المشنقة ، وعند ظهورى اشتدت حركات الجثة المعلقة . أما الجثة التى انفصلت فقد ظلت ممدة تحت المشنقة بلا حراك . وأسرعت أولا الى الرجل الحى ، فارتقيت درجات السلم وقطعت الحبل بمطواتى ، فسقط الجسم المعلق ، وقفزت أنا الى الارض . وراح المشنوق يتلوى بتشنجات فظيعة ، أما الجثة الاخرى فقد ظلت ساكنة لا تريم .

وأدركت أن عقدة الحبل ما زالت تضغط على رقبة التعس ، فرقدت فوقه لأمنعه من الحركة ، وحللت بصعوبة العقدة التى كانت تخنقه . وفى هـذه الأثناء ، اضطررت الى تأمل وجه الرجـل ، ودهشت حين عرفت انه نفس الجلاد . وقد جحظت عيناه ، وازرق وجهه ، والتوى فـكه ، وجعل يتنفس بصعوبة تنفسا شـبيها بالحشرجة . على ان الهواء اخذ يدخل شيئا فشيئا الى رئتيه فتدخل معه الحياة الى جسمه . واسندته الى حجر كبير . وبعد لحظة بدا انه يستعيد حواسه ، فسـعل وادار رقبته وراح ينظر فى وجهى ، ولم تكن دهشته باقل من دهشتى .

ــ أوه ! أوه ! هذا انت ياسيدى القس ؟

ـ نعم ، هو أنا .
ـ ماذا جئت تفعل هنا ؟
ـ وماذا تعمل أنت هنا ؟

وبدا عليه أنه يستعيد حواسه ، وراح مرة أخرى ينظر حواليه، ولكن عينيه توقفتا هذه المرة على الجثة الميتة ، فحاول النهوض قائلا : آه ، لننصرف ياسيدى القس ، بحق السماء لنرحل .

ـ انصرف انت ياصديقى اذا شئت ، أما أنا فأمامى واجب أؤديه .

ـ هنا ؟ ..
ـ نعم هنا ! ..
ـ ما هو اذن ؟

ـ هذا التعس الذى شنقته اليوم ، طلب منى أن آتى لأصلى عند قاعدة المشنقة خمس صلوات ربانية وخمس صلوات للعذراء لكى تهدأ روحه .

ـ لكى تهدأ روحه ؟ آه ، ياسيدى القس ، ان أمامك مهمة شاقة اذا أردت أن تنقذ تلك الروح ، انه ابليس بعينه .

ـ كيف ! ابليس بعينه ؟
ـ بلا شك ، ألم تر ما فعله بى ؟
ماذا فعل بك ؟
ـ يا الهى ! لقد شنقنى !

ـ شنقك ؟ ولكن يبدو لى انك انت الذى أديت له هذه الخدمة المؤلمة !

ـ هذا صحيح ! ومع ذلك فانى ظننت اننى شنقته بالفعل ، ويبدو اننى أخطأت ! ولكن لماذا لم ينتهز فرصة ربطى أنا أيضا فى المشنقة فيهرب ؟

وذهبت الى الجثة ورفعتها قليلا فوجدتها باردة متصلبة .

فقلت : ذلك لأنه ميت .

فقال الجلاد : ميت ! ميت ! آه ، يا للشيطان ، هذا أمر اسوأ ، لنهرب اذن أيها القس ، لنهرب .

ونهض ، ثم قال : لا والله ، أنا أفضل أن أبقى . اما هو نسوف ينهض ويجرى خلفى . ولكنك على الأقل هنا ، وانت رجل تقى ، سوف تدافع عنى .

فقلت للجلاد وأنا أمعن النظر فى وجهه : ياصديقى ، هناك سر وراء كل هذا . سألتنى منذ برهة عن السبب الذى دعانى الى الحضور هنا فى هذه الساعة . وأنا بدورى أسـألك عما جاء بك الى هنا .

ــ آه ! حقا ياسيدى القس ، يجب أن أقول لك ذلك ، سواء كاعتراف ، أو كأى شىء آخر . حسن ! سأقص عليك ذلك بشكل آخر . ولـكن انتظر حتى ..

وأتى بحركة الى الوراء .

ــ ماذا اذن ..

ــ الا يتحرك هناك ؟

ــ لا ، اطمئن ، ان الشقى ميت تماما .

ــ اوه ! ميت تماما .. ميت تماما .. وما أهمية ذلك ! سأقول لك على أية حال السبب فى مجيئى ، واذا لم أقل لك الحقيقة يكذبنى هو .. هـذا كل شىء .

ــ قل ..

ــ يجب أن أقول لك ان هذا الـكافر لم يقبل أن يعترف لأحد ، فـكان يقول من وقت لآخر : « هل وصل القس مول ؟ » فكنا نرد عليه : « كلا لم يصل بعد » ، فيتنهد . وعرضنا عليه قسا آخر فأجاب : « لا ، القس مول ، ولا أحد غيره » .

ــ نعم ، أعلم ذلك ..

ــ وعنـد قاعدة برج جينيت ، توقف عن السـير وقال لى : « انظر اذن ، ألا ترى الأب مول قادما الينا ؟ » فقلت له : «لا» ، وواصلنا المسير . وعنـــد قاعدة السلم توقف أيضا وقال : الم يحضر الأب مول ؟

ــ قلت لك لم يحضر !

وليس هناك ما يفقد الانسان صبره ، مثل الرجل الذى يكرر لك دائما نفس الشىء .

قال : هيا !

ولففت الحبل حول عنقه ، ووضعت قدميه على السلم وقلت له : « اصعد » . وصعد دون أن أكرر له الأمر ، وما أن وصل الى ثلثى السلم حتى قال :

ــ انتظر حتى أتأكد من عدم وصول الأب مول ..

— آه ! انظر ، هذا غير ممنوع .
ونظر لآخر مرة فى الجمع المحتشد ، ولما لم يرك تنهد . وظننت أنه قد اقتنع ، وأنه لم يبق لى الا أن أدفعه ، ولكنه لمح حركتى فقال : انتظر .
— ماذا أيضا ؟
— أريد أن أقبل أيقونة للعذراء معلقة فى عنقى .
— آه ! هذا عمل طيب ، قبلها .
ووضعت الايقونة على شفتيه وسألته : ماذا أيضا ؟
— أريد أن أدفن ومعى هذه الايقونة .
— هيه! هيه! أظن ان كل مخلفات المشنوق تصبح ملكا للجلاد.
— لا شأن لى بذلك ، ولكنى أريد أن أدفن مع أيقونتى .
— أريد ، أريد ! ما هذه اللهجة ؟
— هذا ما أريده ، ما شأنك أنت ؟
ونفد صبرى ، كان كل شىء معدا ، فالحبل يطوق عنقه ، وطرفه مربوط فى الحلقة .
فقلت له : « الى الجحيم » ، ودفعت به الى الفضاء .
— أيتها العذراء ، ارحمى ...
وأقسم ان هذا هو كل ما قاله ، اذ خنقه الحبل وقطع كلامه. وفى اللحظة نفسها ، وأنت تعرف ذلك ، أمسكت الحبل وقفزت فوق كتفى المشنوق ، فتأوه مرتين وانتهى الأمر ، ولم يكن هناك ما يشكوه منى ، وأقسم انه لم يتألم .
— ولكن كل هذا لا يفسر السبب فى مجيئك هنا هذا المساء .
— اوه ! هذا هو الشىء الذى يصعب الافضاء به .
— حسن ! سأقوله لك بنفسى ، انك أتيت لتأخذ الايقونة .
— نعم ، أغرانى الشيطان ، فقلت لنفسى : حسن ، حسن ! انت تريدها ، ما أسهل أن تقول ذلك . ولكن صبرا حتى يأتى الظلام . فلما جن الليل خرجت من المنزل ، وكنت أعرف مكان السلم فقد تركته فى مكان قريب ، وتجولت قليلا ، ثم عدت مجتازا أطول الطرق ، ولما لم أعد أسمع أى صوت ، اقتربت من المشنقة وأقمت السلم وارتقيته وجذبت المشنوق وانتزعت سلسلته ، و..
— وماذا ؟
— يا الهى ! صدقنى اذا شئت : فى اللحظة التى فارقت الأيقونة

عنقه امسكنى المشنوق واخرج راسه من العقدة المربوطة ، ووضع راسى فى العقدة مكان راسه ، ودفعنى كما دفعته من قبل هذا ما حدث .

– مستحيل ، انت مخطىء .

– ألم تجدنى مشنوقا ؟ تكلم .

– بلى ..

– حسن ! أؤكد لك اننى لم أشنق نفسى بنفسى ، هذا كل ما أقوله لك .

وفكرت لحظة ثم سألته : والايقونة ، أين هى ؟

– يا الهى ! ابحث على الارض ، فلا بد أن تكون قريبة ، اذ تركتها عندما شعرت بأننى مشنوق .

ونهضت ، ونظرت الى الارض التى أضاءها شعاع من القمر كأنه يرشدنى فى بحثى . ووجدت الايقونة فالتقطتها وذهبت الى جثة لارتيفاى وثبت الأيقونة على عنقه . وفى اللحظة التى مست فيها الايقونة صدره أخذته رعشة هزت كل جسمه ، وخرجت من صدره صرخة حادة مؤلمة ، فارتد الجلاد الى الوراء . وأضاءت هذه الصرخة بصيرتى ، وتذكرت ما جاء بالكتاب المقدس عن طرد الشياطين بالصلوات ، والصرخة التى تطلقها الشياطين عندما تخرج من الاجسام الآدمية التى تسكنها . وأخذ الجلاد يرتجف كريشة فى مهب الريح . فقلت له :

– تعال يا صديقى ولا تخش شيئا .

فاقترب مترددا وقال : ماذا تريد منى ؟

– هذه الجثة يجب أن تعود الى مكانها .

– أبدا ، سوف يشنقنى ثانية .

– ليس هناك أى خطر ياصديقى ، اننى مسئول عما قد يحدث .

– ولكن ياسيدى القس ! ياسيدى القس !

– أقول لك تعال .

وتقدم خطوة أخرى وتمتم : هيه ! أنا غير مطمئن .

– انت مخطىء ياصديقى ، لا تخش شيئا طالما استردت الجثة أيقونتها .

– وما السبب فى ذلك ؟

– لأن الشيطان لن يتمكن منه ، فهذه الايقونة كانت تحميه ،

ولما انتزعتها أنت منه ، دخلت جسمه فى اللحظة نفسها تلك الروح الشريره التى كانت تدفعه الى الاثم ، والتى كانت روحه الطيبه قد ابعدتها . وقد رايت بنفسك ما صـــــنعت بك تلك الروح الشريره .

ـ اذن فهذه الصيحة التى سمعناها الآن ..

ـ هى صيحة الروح الشريرة عندما أحست أن ضحيتها قد أفلتت منها .

فقال الجلاد : حقا ، أمن الممكن أن يحدث هذا ؟

ـ نعم ..

ـ اذن أعيده الى حبل المشنقة .

ـ نعم ، ارجعه ، من الواجب أن تأخذ العدالة مجراها ، ويتم تنفيذ حكم الاعدام .

وتردد التعس مرة أخرى فقلت له : لا تخش شيئا ، أنا مسئول عن كل شىء .

ـ ومع ذلك لا تصرف نظرك عنى ، فاذا صحت تقدم لنجدتى .

ـ كن مطمئنا .

واقترب من الجثة ورفعها برفق من كتفيها وسحبها الى السلم وهويحدثها قائلا :

لا تخف يا لارتيفاى ، اننى لا أفعل هذا لآخذ أيقونتك . انك تنظر الينا ياسيدى القس ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، اطمئن .

واستمر الجلاد يقول بلهجة مسـالمة : لا أفعـل هـذا لآخـذ أيقونتك ، لا ، اطمئن ، سوف تدفن معها ما دامت هذه رغبتك. حقا ياسيدى القس ، انه لا يتحرك .

ـ أنت ترى ذلك .

ـ ســوف تدفن معها ، وحتى ذلك الحين ، سأردك الى مكانك كما يريد القس المحترم ، أما بخصوصى ، فأنت تفهم ..

فقلت له وأنا لا أتمالك نفسى من الابتسام : نعم ، نعم ، ولكن أسرع .

ـ بالتأكيد ، لقد تم الأمر .

قال ذلك ، وترك الجثة التى علقهـا ثانية فى حبـل المشنقة وقفز للحال الى الارض . وأخذت الجثة تتأرجح فى الفضـــاء ،

جامدة ميتة . وجثوت على ركبتى وشرعت أصلى الصلوات التى طلبها منى لارتيفاى . وجثا الجلاد بجانبى وقال : سيدى القس ، أتسمح أن تقرأ الصلوات بصوت مرتفع وببطء ، حتى أستطيع أن أرددها معك ؟

— كيف ذلك أيها التقى ، هل نسيتها ؟

— أعتقد اننى لم أعرفها على الاطلاق .

وقرأت الصلوات الربانية الخمس ، وصلوات العذراء الخمس ، ورددها الجلاد خلفى بكل دقة .

ولما انتهت الصلاة نهضت وقلت للمشنوق بصوت منخفض : لارتيفاى ، لقد فعلت كل ما فى استطاعتى لتهدئة روحك ، وعلى سيدتنا العذراء أن تتكرم باتمام الباقى .

فقال رفيقى : آمين !

وفى هذه اللحظة أضاء الجثة شعاع من القمر ، كالسيل الفضى ، ودقت ساعة كنيسة العذراء مؤذنة منتصف الليل ، فقلت للجلاد : هيا بنا ، لم يعد لدينا ما نعمله هنا .

فقال المسكين : سيدى القس ، هل تتفضل وتسدى الى معروفا آخر ؟

— أى معروف ؟

— ترافقنى حتى منزلى ، فلن أطمئن حتى أرى بابى يغلق على دون هذا الشيطان .

— هلم ياصديقى ..

وغادرنا الساحة ، وكان رفيقى يستدير كل بضع خطوات ليستوثق من ان المشنوق لم يبرح مكانه . ولكن المشنوق كان ساكنا لايريم . وعدنا الى المدينة ، وسرت مع الرجل حتى منزله ، وانتظرت حتى أضاء مسكنه وأقفل بابه وودعنى شاكرا من خلف الباب . وعدت الى بيتى هادىء الجسم والبال . ولما صحوت فى اليوم التالى ، قيل لى ان زوجة اللص تنتظرنى فى غرفة الطعام . وكان وجهها هادئا مبتهجا . وقالت لى :

— سيدى القس ، جئت لأشكرك ، فقد ظهر لى زوجى بالأمس عندما دقت ساعة كنيسة العذراء الثانية عشرة ليلا وقال لى : « اذهبى فى صباح الغد وقابلى القس مول ، وقولى له ان روحى قد نجت بفضله وبفضل سيدتنا العذراء » .

سوار من شعر



(١١) سوار من شعر

قال أليبت : سيدى القس ، اننى أقدرك كل التقدير وأبجل « كازوت » أعظم تبجيل ، وأعجب كل الاعجاب بقوة الروح الشريرة التى ذكرتها . ولكن فاتك شيء ، شيء أنا من أمثلته ، ذلك ان الموت لاينهى الحياة ، فالموت أسلوب لتحول جسم الانسان ، انه يعدم الذاكرة فحسب ، فاذا لم تنعدم الذاكرة ، فسوف يتذكر الانسان تنقلات روحه كلها منذ نشأة العالم حتى وقتنا هذا . وما حجر الفلاسفة الا هذا السر نفسه ، السر الذى اكتشفه فيثاغورس ، واكتشفه أيضا الكونت سان جرمان ، وكاليوسترو ، السر الذى أملكه أنا بدورى ، ومضمونه ان جسدى سوف يموت ، كما أذكر انه مات من قبل أربع أو خمس مرات ، وأخطىء اذا قلت انه سيموت ، فهناك أجسام لاتموت ، منها جسمى أنا .

فقال الدكتور : ياسيد أليبت ، أتسمح لى أولا بشيء ؟

— أى شيء ؟

— أن نفتح قبرك بعد أن ينقضى شهر على وفاتك !

— شهر ، شهران ، سنة ، عشر سنوات ، وقتما تريد يادكتور ، ولكن حذار .. لأن أى أذى تحدثه فى جثتى قد يضر الجسد الآخر الذى سوف تسكنه روحى .

— انت اذن تؤمن بهذه الخرافة ؟

— لقدنلت جزائى بهذا الايمان ... فقد رأيت .

— ماذا رأيت ؟.. أحد هؤلاء الموتى الاحياء ؟

— نعم .

فقال الدكتور : ياسيد أليبت ، احك لنا قصتك ما دام كل منا قد حكى قصته ، فمن العجيب أن تكون هذه المسألة ظاهرة اجتماعية حقيقية .

ـ حقيقية أو غير حقيقية ، اليكم القصة بحذافيرها . كنت مسافرا من ستراسبورج الى ميـــاه لوتش . أتعرف الطريق يادكتور ؟

ـ لا ، ولـكن لا أهمية لذلك . استمر .

ـ سافرت اذن من ستراسبورج الى مياه لوتش ومررت طبعا بمدينة بال حيث يجب أن أغادر المركبة العامة لأستقل عربة أجرة ولما وصلت الى فنـدق « لاكورون » الذى أوصـانى البعض بالنزول فيه . بحثت عن عربة وحوذى ، ورجوت صاحب الفندق أن يستفسر عما اذا كان فى المدينة من يتأهب للسفر فى نفس الطريق الذى سوف أسلـكه ، فيعرض عليه أن يرافقنى ، حتى تهون مشاق السفر ، وتقل مصاريفه . وفى المساء عاد الرجل وقد عثر على ضالتى : زوجة تاجر من بال ، فقـدت طفلهـا وعمره ثلاثة أشهر ، وكانت ترضعه بنفسها ، فمرضت مرضا شديدا نصح لها البعض بسببه أن تستشفى بمياه لوتش . وكان هـذا الطفل هو أول ثمرة لهذا الزواج الذى انعقد منذ عام .

وأخبرنى صاحب الفندق انه كان من العسير حمل هذه المرأة على فراق زوجها ، فقد صممت على أن تبقى فى بال ، أو يسافر معها زوجها الى لوتش . على أن حالتها الصـحية كانت تدعو الى الاستشفاء بمياه لوتش ، فى حين ان تجارة الزوجين تتطلب بقاءها فى بال . وأخيرا قر قرارها وسافرت معى فى صباح اليوم التالى، ومعها خادمتها . وكان معنا أيضا قسيس كاثوليكى ملحق بكنيسة قرية صغيرة مجاورة ، شغل المحل الرابع بالمركبة .

وفى حوالى الثامنة صباحا جاءت العربة الى الفندق وبها القس، وصعدت اليها ، فانطلقت لأخذ السيدة وخادمتها . وشـهدنا ونحن بداخل المركبة وداع الزوجين، وداعا بدأ من داخل مسكنهما ، واستمر فى متجرهما ، ولم ينته الا فى الطريق . ولاشك ان المرأة كان عندها احساس مسبق بما سيحدث ، لأنها لم تستطع أن تتمالك شعورها ، كأنها ستقوم برحلة حول العالم ، لا برحـلة لا تتجاوز الخمسين فرسخا . وبدا زوجها أكثر هدوءا منها ، ومع ذلك فان تأثره أقوى مما يقتضيه المنطق لمثل هذا الفراق . ورحلنا أخيرا . وتركنا بطبيعة الحال ، انا والقسيس ، افضـل مكانين بالعربة للسيدة وخادمتها ، أى جلسنا فى المقدمة ، وتركنا لهما

المؤخرة . واتخذنا طريق « ســولير » ، وبتنا الليلة الاولى فى « منديشويل » . وظلت رفيقتنا طول النهار قلقة مضطربة . وفى المساء رأت عربة عائدة فأرادت أن تعود فيهــا الى بال ، ولــكن خادمتها تمكنت من اقناعها بمواصلة السفر . وفى صبــاح اليوم التالى بدأنا المسير فى حوالى التاسعة ، وكان النهار قصيرا ، ولم يكن فى عزمنا الذهاب الى أبعد من « سولير » . وفى المساء ، بدأنا نلمح المدينة فارتعدت المريضة وقالت :

ـ آه ! قفوا ! هناك من يتعقبنا .

ونظرت من خارج النافذة وقلت : أنت مخطئة ياســيدتى ، فالطريق خال تماما .

ولــكنها أصرت قائلة : عجيب ! اننى أسمع وقع حوافر حصان .

وظننت أننى لم أنظر جيــدا ، فأخرجت رأسى من النافذة أكثر من ذى قبل ، ونظرت ، ثم قلت لها : لا أحد ياسيدتى .

ونظرت هى بنفسها ، ورأت مثلما رأيت أن الطريق خال . وقالت وهى تلقى بنفسها الى داخل العربة : « لقد أخطأت » . وأغلقت عينيها كما تفعل المرأة حين تريد أن تركز أفــكارها فى نفسها . وفى اليوم التالى ، رحلنا فى الخامسة صباحا . وطال النهار يومئذ ، ومضى بنا السائق لنبيت فى « بيرن » فى نفس الساعة التى بتنا فيهــا فى اليوم السابق ، أى فى حوالى الخامسة . واستيقظت رفيقتنا من سبات كانت مستغرقة فيه ، ومدت يدها الى السائق قائلة :

ـ أيها الســائق . قف . فى هــذه المرة أنا واثقة بنفسى : فهناك شخص يجرى وراءنا .

فأجاب السائق : أنت مخطئة ياسيدتى ، فأنا لا أرى ســوى الفلاحين الثلاثة الذين مررنا بهم منذ برهة ، وهم ســائرون فى طريقهم فى هدوء .

ـ أوه ! ولــكنى أسمع صوت حصان يركض .

قالت ذلك بلهجة ملؤها الثقة والايمان ، حتى انى لم أتمالك من النظر ورائى . ورأيت الطريق خاليا كما كان بالامس .

قلت لها : مستحيل ياسيدتى ، فانى لا أرى أى فارس .

ـ كيف لا ترى أى فارس فى حين أرى بنفسى ظل رجل وحصان؟ ونظرت فى الاتجاه الذى تشير اليه يدها ورأيت بالفعل ظل حصان

وفارس ؟ ولكنى بحثت بعينى عبثا عن الأجسام التى تشكل هذه الظلال . وأدليت بملحوظتى عن هذه الظاهرة الطبيعية الى القس ، فرسم علامة الصليب . وأخذ الظل ينقشع تدريجيا وتزول معالمه لحظة بعد أخرى حتى اختفى تماما . ودخلنا بيرن .

وبدت هذه الدلالات شؤما على المرأة ، وأخذت تقول مرة بعد اخرى انها تريد العودة . ومع ذلك واصلت السفر .

ولما وصلنا الى « تون » وجدنا المريضة قد ساءت صحتها ، اما لاضطراب نفسيتها واما بسبب استفحال المرض ، حتى أصبح من الضرورى أن تواصل طريقها على محفة وهكذا اجتازت خاندرتال ، وجيمى . ولما وصلت الى لوتش ، ظهرت عليها أعراض الحمرة ، فقضت أكثر من شهر لا ترى ولا تسمع . ثم أن احساساتها السابقة لم تخدعها ، اذ ما كادت تقطع عشرين فرسخا (منذ بدء رحلتها) حتى كان زوجها قد أصيب بحمى مخية . واستفحل مرضه سريعا ، ولما شعر بخطورة حالته ، بعث فارسا ليخطر بالأمر زوجته ويدعوها للعودة . ولكن الحصان نفق فى الطريق بين « لوفن » و « برنتنباش » ، ووقع الفارس فارتطم راسه بحجر ، واضطر الى البقاء فى فندق ، فلم يستطع أن ينجز من الرسالة التى كلف بأدائها سوى أن يخطر من بعثه بما حدث له وعندئذ أرسل البعض رسولا آخر ، الا أن القدر كان للجميع بالمرصاد ، فعند مشارف خاندرتال ، ترك الرسول حصانه ، واستصحب دليلا لاجتياز سهل « شوالباش » الذى يفصل « اوبرلاند » عن « فاليه » . وفى منتصف الطريق انحدر سيل من قمة جبل « اتل » وجرفه الى أعماق هاوية . ولم ينج الدليل نفسه الا بأعجوبة .

وفى هذه الاثناء ، اشتد المرض بصورة مزعجة ، واقتضى الأمر حلاقة رأس المريض ، لشعره الطويل ، حتى يتسنى وضع الثلج على جمجمته . ومن هذه اللحظة بدأ الرجل المحتضر يفقد كل أمل فى الشفاء . وفى لحظة هدوء كتب لزوجته يقول : « عزيزتى برتا — اننى أموت ، ولكنى لا اريد أن أفترق عنك بالكلية — اصنعى سوارا من الشعر الذى اجتثه البعض من راسى ، والذى احتفظت به ، وليكن فى معصمك على الدوام . ويبدو لى بهذه الطريقة اننا سنكون دائما معا . زوجك فردريك » . وسلم

هذه الرسالة الى رسول ثالث كلفه أن يرحل بها بمجرد أن يسلم الروح .

وتوفى فى المساء نفسه ، ورحل الرسول بعد وفاته بساعة واحدة . وكان أسعد حظا من سابقيه ، فقد وصل الى لوتش فى نهاية اليوم الخامس ، ولكنه وجد المرأة صماء عمياء . ولكنها بدأت تبرأ من هاتين العلتين بعد شهر واحد بفضل مياه الاستشفاء . ومر شهر آخر قبل أن يجرؤ أحد على أن يخطر العليلة بهذا النبأ المؤلم ؟ ولكنها من جهة أخرى كانت متأهبة لسماع مثل هذا الخبر بما رأته من خيالات . ومر بها شهر آخر قبل أن يتم شفاؤها . وأخيرا عادت الى بال بعد غياب استمر ثلاثة أشهر .

ولما كنت أنا أيضا قد أكملت استشفائى ، وخفت وطأة الروماتيزم الذى جئت بسببه أستشفى بالمياه ، فقد استأذنتها فى أن أصاحبها فى السفر ، فأذنت شاكرة ، وراحت تحدثنى عن زوجها الذى رأيته قبلا ، برهة قصيرة ، وقت الرحيل .

وغادرنا لوتش ، ووصلنا بال فى مساء اليوم الخامس . ولم يكن هناك ما هو أشد ايلاما للنفس من عودة الأرملة المسكينة الى دارها . ولما كان الزوجان وحيدين فى هذه الدنيا ، وقد مات الزوج ، فقد أغلق المحل ، وتوقفت التجارة كما تتوقف الساعة عندما يتوقف الرقاص . وأحضر بعضهم الطبيب الذى كان يعالج المريض ، والأشخاص الذين شهدوا اللحظات الأخيرة فى حياته ، وجعلوا يستعيدون ذكراها ، وقد كادوا ينسونها . وطلبت منهم الأرملة على أقل تقدير ، ذلك الشعر الذى أوصى به لها زوجها . وتذكر الطبيب انه كان قد أمر بقص شعر المريض ، كما تذكر الحلاق أنه حلق رأسه ، وانتهى الأمر عند هذا الحد ، فالشعر كان قد ألقى به الى الرياح تذروه ، فضاع . وقنطت المرأة اذ استحال تنفيذ الرغبة الوحيدة التى أبداها زوجها المتوفى بأن تلبس سوارا من شعره .

وانقضت ليال ، حالكة تثير الشجن ، كانت الأرملة تجوس خلالها فى أنحاء المنزل ، كأنها شبح ، لا كائن حى . وكانت كلما رقدت ، وداعب الكرى أجفانها ، شعرت بخدر فى ذراعها اليمنى ، فلا تصحو الا فى اللحظة التى يخيل اليها فيها أن الخدر قد وصل

الى القلب . وكان هـذا الخدر يبدأ فى المعصم ، اى فى المكان الذى كان يجب أن تلبس عنده سوار الشعر ، فتشعر بضغط فى هـذا الموضع يماثل ضغط سوار ضيق من الحديد ، وينتقل الخدر كما قلنـا من المعصم حتى يصل الى القلب . وكان واضـحا أن الميت يبدى أسـفه لعدم تنفيـذ رغبـاته . وأدركت الأرملة هذا الأسف الذى يبديه زوجها ، ويشعرها به من قبره . فاعتزمت أن تفتح قبره ، حتى اذا وجـدت أن رأس زوجـها لم يحلق تماما جمعت كمية من الشعر تكفى لتحقيق رغبته الأخيرة . وبناء على ذلك استدعت اللحاد ، ولم تخبر أحـدا بما اعتزمت أن تفعله . ولـكن اللحاد الذى دفن زوجها ، قد توفى هو أيضا . أما اللحاد الجديد الذى باشر عمله منذ خمسة عشر يوما فقط فانه لم يكن يعرف مكان المقبرة . وكانت تأمل أن يهبط عليها وحى ، فقد آمنت بالمعجزات بعد أن شهدت أشبـــاح الحصان والفارس ، وأحست بضغط السوار على معصمها ، ومن ثم ذهبت وحدها الى الجبانة، وجلست فوق أكمة مغطاة بالعشب الأخضر المعمر ، من ذلك النوع الذى ينمو على القبور ، وراحت تتذكر بعض العلامات التى يمكن أن تسترشـد بها فى بحثها . وكانت على حائط الجبانة صورة تمثل رقصـة جنـائزية ، وتوقف نظرها عند صـورة الموت ، وثبتت عيناها على تلك الصـورة الساخرة المرعبة . وعندئذ خيـل اليها ان الموت يرفع ذراعه المجرد من اللحم ويشير بعظمة اصبعه الى مقبرة وسط المقابر الأخيرة ، فاتجهت مباشرة الى تلك المقابر، ولما صـارت عندها خيل اليها أنها ترى الموت نفسه بوضـوح ، وقد ترك ذراعه تهوى الى موضعه الاصلى، فرسمت علامة على المقبرة ، ومضت تبحث عن اللحاد حتى وجدته واتت به الى الموضـع الذى عينته وقالت له : احفر ، انه هنا .

وحضرت هـذه العملية . فقد أردت أن أتابع هـــذه المغامرة الغريبة حتى نهايتها . وحفر اللحاد . ولـما وصل الى النعش رفع الغطاء . وتردد ، ولكن الأرملة قالت له بصوت حازم : «ارفع، هذا نعش زوجى » . فأطاع ، اذ كانت المراة قادرة على اقناع الآخرين بما تريد . وعندئذ حدثت معجزة شهدتها بعينى. ففضلا عن ان الجثة كانت لزوجها ، وتشبهه حال حياته ، مع شيء من

الاصفرار ، فانه منذ أن حلق رأسه ، يوم وفاته ، نما شعره حتى خرج كالجذور من جميع شقوق التابوت .

عندئـــذ مالت المرأة المسكينة على الجثة التى بدت كأنها نائمة فقط ، فقبلت جبينها ، واجتثت خصلة من الشعر الطويل النامى بشكل عجيب على رأس الميت وصنعت منها ســوارا . ومن ذلك اليوم توقف التخدير الليلى . غير أنها كلما أقدمت على عمل فيه خطورة ، كانت تشعر بضغط خفيف من السوار ينبهها الى أن تأخذ حذرها من الأمر . حسن ! أتظنون ان هــذا الميت ، ميت بالفعل، وان الجثة جثة ميت ؟ ... أما أنا فلا أعتقد ذلك .

فسألته السيدة الشاحبة الوجه بنغمة غريبة أرسلت رعدة فى أوصالنا فى تلك الليلة المظلمة التى مرت بنا : ألم تسمع بأن تلك الجثة خرجت من قبرها ؟ وان أحدا قد تعـــــــذب من رؤيتها وملامستها ؟

فقال أليبت : لا ، لقد غادرت البلد .

وقال الطبيب : آه ، أخطأت ياسيد أليبت ، فألفت قصتك بهذه الدرجة من البساطة ... هذى هى السيدة « جريجوريسكا » ، على أتم استعداد لأن تجعل من تاجر « بال » بسويسرا مصاص دماء بولندى أو هنغارى أو رومانى .

وسأل الطبيب السيدة متضاحكا : أرأيت أثناء اقامتك فى جبال « كربات » بعض مصاصى الدماء ؟

فقالت السيدة الشاحبة بلهجة جدية غريبة : اسمعوا ، ما دام كل منكم قد روى قصة ، فأنا أيضا أريد أن أروى لـكم قصة . ولن تقول يا دكتور انها قصة غير حقيقية لأنها قصتى . وسوف تعرفون لمـاذا أنا شاحبة اللون هكذا ...

وفى هذه اللحظة تسلل شعاع من ضوء القمر خلال النـــافذة والستائر وتلألأ على الأريكة حيث اضطجعت الســـيدة ، فغمرها بضوء ضـارب الى الزرقة جعلها تبدو كتمثال من المرمر الاسـود ممدد على قبر . ولم يرتفع صـوت واحد يرحب بهذا العرض ، ولـكن السكون العميق الذى سـاد غرفة الاستقبال كان يفصح عن أن كلا منا ينتظر فى لهفة .

جبال الكربات



(١٢) جبال الكربات

أنا بولندية ، ولدت فى « ساندومير » ، وهى بلد ، الأساطير فيه معتقدات ، بلد نؤمن فيه بتقاليد أسرنا بقدر ما نؤمن بالانجيل أو أشد . ولم يكن ثمة قصر من قصورنا ، أو كوخ من أكواخنا ، يخلو من شبح . وفى منزل الغنى ، ومنزل الفقير ، فى القصر وفى الكوخ ، يؤمن الناس بمبدأ الخير ومبدأ الشر . وفى بعض الأحيان يشتبك هذان المبدآن ، فيتصارعان ، وعندئذ ترتفع جلبة مبهمة فى دهاليز القصر ، ويسمع زئير فى الأبراج القديمة ، وتهتز الجدران بدرجة مخيفة ، فيفر النـــاس من القصور والأكواخ ، ويهرع الفلاحون والأشراف الى الكنيسة ساعين الى الصليب المبارك أو المخلفات المقدسة ، وهى الأشياء الوحيدة التى تستطيع أن تحميهم من الشياطين التى ترعبهم .

على أن ثمة مبدأين آخرين أشد عنفا وقسوة : الطغيان والحرية .

وشـــهد عام ١٨٢٥ بين روسيا وبولندة معركة من المعارك التى اعتقد النـاس أن دماء شعب بأسره قد استنزفت فيهـــا كما تستنزف فى كثير من الأحيـان دماء أسرة بأكملها . وحارب أبى وأخواى ضد القيصر الجديد ، وانتظموا تحت لواء الاســتقلال البولندى ، ذلك اللواء الذى كان يسقط حينا ويرتفع أحيـانا . وعلمت ذات يوم أن أخى الأصغر قد قتل ، وقيل لى فى يوم آخر ان أخى الأكبر قد جرح جرحا مميتـا . وانقضى يوم آخر كنت استمع خلاله وأنا فزعة الى دوى المدفع الذى جعل يقترب ولايكفه عن القصف . وفى نهاية هـذا اليوم رأيت أبى عائدا ومعه مائة فارس ، هم ما تبقى من ثلاثة آلاف مقاتل كانوا تحت قيادته ، اقبلوا لاجئين الى قصرنا ، وصمم أبى أن يدفن تحت الخرائب .

كان أبى يرتجف من أجلى ، وهو الذى لم يكن يخاف على نفسه من أى شىء . وكانت المسألة بالنسبة اليه موتا أكيدا ، اذ كان واثقا بأنه لن يقع حيا فى أيدى أعدائه .. ولكن مشكلتى كانت مشكلة العبودية والعار اللذين كانا فى انتظارى .

واصطفى أبى من بين المائة الباقين معه عشرة رجال ، فدعا رئيسهم وسلمه كل ما يملكه من ذهب وجواهر . ولما تذكر أن أمى قد لجأت وهى طفلة الى دير « ساهاسترو » وسط جبال الكربات أبان التقسيم الثانى لبولندة ، أمر رئيس الرجال أن يمضى بى الى ذلك الدير الذى كان خليقا أن يكرم وفادتى كما فعل مع أمى من قبل .

وعلى الرغم من أن أبى كان يحبنى حبا شديدا ، فان وداعه لى لم يستغرق وقتا طويلا ، فقد توقع أن يظهر الروس أمام القصر فى اليوم التالى ، فلم يكن أمامنا وقت نضيعه . وارتديت بسرعة ثوبا للركوب اعتدت أن أرتديه كلما خرجت مع اخوتى للصيد . وتم تجهيز أحسن جواد فى الاسطبل ، ووضع أبى فى جرابى طبنجاته الخاصة ، وهى من روائع مصنع « تولا » ، وقبلنى ، وأصدر أمره بالرحيل .

وفى غضون الليل ثم فى النهار التالى قطعنا عشرين فرسخا ، وكنا نتبع ضفاف أحد تلك النهيرات التى لا اسم لها ، والتى تصب فى نهر الفستولا . وأبعدتنا هذه المرحلة الأولى السريعة عن مواقع الروس . ومع زوال الشمس الغاربة ، شاهدنا تلألؤ قمم جبال الكربات الثلجية . وفى ختام نهار اليوم التالى بلغنا قاعدة الجبال . وأخيرا ، فى صبيحة اليوم الثالث بدأنا المسير فى بعض شعابها .

وليس ثمة شبه بين جبالنا وجبال الكربات ، وبين جبالكم الغربية المهذبة . فالطبيعة عندنا تتجلى لعين الرائى فى أتم عظمتها وروعتها ، وقمم الجبال العالية تختفى داخل السحب ، تكسوها الثلوج الدائمة ، وتنحدر غاباتها الهائلة نحو صفحة البحيرات المصقولة كالمرآة ، وهى بحيرات شاسعة كالبحار ، لم تتفضن صفحتها يوما بمرور قارب ، ولم تعكر شبكة صياد سطحها البللورى الأزرق ، زرقة السماء ، ولايسمع فى تلك الأرجاء صوت انسان ، الا فى النادر ، ومن حين الى حين ، عندما تنساب فى الجو أغنية

« مولدافية » ، تجاوبها الحيوانات بصرخاتها الوحشـــية .. أغان وصيحات توقظ الطبيعة الموحشة ، وتشعرها بكيانها .

واجتزنا ألوف الأميال تحت أقباء الغابات المظلمة التى تتخللها تلك العجائب التى لا يتوقعها أحد والتى تتـكشف لنا فى كل خطوة نخطوها فى تلك العزلة الموحشة ، فتثير دهشتنا ثم اعجابنا . هناك يكمن الخطر فى كل مكان ، ألوف الأخطار المختلفة الأنواع . ولكن الانسان لا وقت عنده للخوف ، فالاخطـار كلها رهيبة ، تتمثل حينا فى سيـول مفاجئة ناتجة من ذوبان الجليد ، تندفع جامحة من صخرة الى أخرى ، وتغزو على حين غرة الممر الضيق الذى نجتـازه ، والذى شقته الحيوانات المتوحشة عند مرورها فرارا من الصيادين الذين يطاردونها ، وتتمثل أحيـانا أخرى فى أشجار أخنى عليهـا الدهر ، فاذا بها تنفصل عن التربة وتسقط بدوى هائل كهدير الزلازل . وتتمثل أخيرا فى زوابع تلفك فى غمائم كثيفـة تلمح من ثناياها البرق وهو يسطع ويتطاول ويتلوى كحية نارية .

وبعد هـذه القمم العالية الشبيهة بقمم الالب ، والغابات البدائية والجبال الشامخة ، والغابات الشاسـعة ، تجد برارى لا آخر لها ، كأنها البحر اللجى بأمواجه وعواصفه ، وسافانا (سهول) قاحلة متموجة ، يمتد فيهـا البصر الى أفق مترامى الحدود . والانسان لا يشعر هنا بخوف ، بل بشجن عميق شامل لا سبيل الى تبديده ، لأن منظر الاقليـم المترامى الى مدى البصر ، ثابت لايتغير . وانك لتصعد وتهبط مئات المرات ، منحدرات متماثلة ، وتبحث دون طائل عن طريق مرسوم . وحين تجد نفسك فى هذه الحال ، تائها فى عزلتك وسط الصحارى ، تعتقد أنك وحـدك فى هـذه الطبيعة ، ويستحيل ضيقك كربا ، ويبدو لك السير بلا طائل لأنه لن ينتهى بك الى شيء ، فلن تصادف قرية أو قصرا أو كوخا، أو أثرا لآدمى . على انك قد تجد وسط هذه الطبيعة الـكئيبة بحيرة خالية من البوص أو العشب كائنة عند طرف نهير ، وكأنها البحر الميت ، تعترض طريقك بمياهها الخضراء ، وعلى سطحها تحلق بعض الطيور المائية ، وترتفع فى الجو عند دنوك منها ، وهى تطلق صرخات طويلة متنافرة . ثم انك تدور بعد ذلك دورة ترتقى بعدها تلا قائما أمامك ، ثم تهبط الى واد آخر ، ثم ترتقى تلا ثانيا ،

وهكذا دواليك حتى تنتهى من السلسلة الجبليـة التى تتناقص بالتدريج .

ولكنك متى اجتزت هـذه السلسلة وتقدمت صوب الجنوب ، عاد المنظر الطبيعى الى جلاله ، وحينئذ تلمح سلسلة أخرى من جبال أكثر ارتفاعا وأبدع منظرا وأروع مظهرا ، تحف بها الغابات وتتخللها جداول المياه . وهكذا تتولد الحياة بعودة الظلال والمياه ، فيسمع الانسان أجراس دير ، ويرى قافلة تسير متعرجة على سفوح الجبال . وأخيرا ، ومع أشعة الشمس الغاربة ، يستطيع المرء أن يميز منازل بعض القرى ، كأنها زمرة من طيور بيضاء متساندة ، منازل تبدو كأنها قـد تجمعت لتحمى نفسـها من بعض الغزوات الليلية ، فالخطر يظهر مع عودة الحياة . كان الخطر فى الجبال الاولى التى اجتزناها يتمثل فى جماعات الدببة والذئاب ، ولكنه الآن يتجلى فى عصب اللصوص قطاع الطرق المولدافيين الذين لامفر من الاشتباك معهم فى قتال .

وجعلنا نتقدم . وقد مرت بنا عشرة أيام ولم يقع لنا حادث . ولمحنا قمة جبل « بيون » التى تفوق بارتفاعها كل هذه السلسلة من الجبال الماردة ، والتى يقع على سـفحها الجنوبى دير « ساهاسترو » الذى كنا نقصده . وبقى أن نسير ثلاثة أيام حتى نصل اليه . وكنا فى أواخر شهر يولية ، والجو حار نهارا . وفى الساعة الرابعة بدأنا نستنشق بتلذذ لا مثيل له أولى نسـمات الليل المنعشة وكنا قد تجاوزنا أبراج « نيـامتسـو » المتهدمة . وانحدرنا نحو سهل كنا قد لمحناه خلال ثغرات الجبال. واستطعنا من مكاننا أن نلمح مجرى نهر « بسترتزا » بضفافه التى تزينها النباتات الحمراء والأزهار البيضاء . وسرنا بحذاء أخدود تسيل فى أعماقه ميـاه النهر ، ولم تجد دوابنا الا حيزا ضيـقا من الارض يكفى بالكاد لمسير دابتين متجاورتين . وتقدمنا الدليل ، راقدا على جواده يغنى أغنيـة « مورلية » رتيبة النغم ، رحت اتتبع كلماتها باهتمام كبير .

وكان المغنى هو الشاعر ، أما اللحن فلم يكن أحد خلاف هؤلاء الجبليين يستطيع أن يؤديه بكل ما فيه من وحشة مشجية وبساطة كئيبة . وها هى كلمات الأغنية :

فى مستنقع ستافيلا .
حيث سالت دماء المحاربين ،
هل ترى تلك الجثة ؟
انها ليست لأحد أبناء ايلليرى (١) :
انها للص شرس ،
خدع مارى الرقيقة ،
فقتل وخدع وأحرق

***

رصاصة فى قلب اللص ،
مرقت كالسهم ،
واستقرت فى حنجرته ،
ولكن ، يا للسر العميق ، فمنذ ثلاثة أيام ،
وتحت شجرة الصنوبر الكئيبة المنعزلة ،
تروى الثرى دماؤه الدافئة ،
وتسود أرض « أوفيجان » الباهتة .

***

وتلك عيونه الزرقاء على الدوام ،
فلنهرب منه جميعا ،
يا لسوء حظ كل من يمر بالمستنقع بالقرب منه ،
انه مصاص للدماء ، وحتى الذئب المتوحش ،
يهرب بعيدا عن جثته النجسة ،
وعلى الجبل الأجرد ،
هرب النسر المشئوم .

***

وعلى حين غرة ، سمعت طلقة نارية ، ومرقت رصاصة تصفر ، فانقطع الغناء ، اذ أصيب الدليل برصاصة أردته ، وانقلب يتدحرج الى قاع الهوة ، بينما توقف حصانه وهو يرتجف ، وقد مال برأسه الذكى نحو قاع الهوة حيث اختفى سيده . وفى الوقت نفسه ارتفع صوت قوى ، وأبصرنا على جوانب الجبل ثلاثين لصا منتصبين ،

---

(١) ايلليرى منطقة جبلية ، على الشاطىء الشرقى للبحر الادرياتيكى - المترجم

فأصبحنا مطوقين ، وأمسك كل منا سلاحه . وعلى الرغم من أننا اخذنا على غرة فان رفاقى وهم من قدامى الجنود الذين اعتادوا النيران ، لم يتطرق الخوف الى قلوبهم ، وردوا على العدوان . أما أنا فقد أمسكت بمسدسي لأكون قدوة لرفاقى . ولما شعرت بحرج موقفنا صحت فيهم : الى الأمام ! ووخزت جوادى فانطلق فى اتجاه السهل . ولكننا كنا نواجه رجالا جبليين أشداء ، يقفزون من صخرة الى أخرى كالشياطين ، ويطلقون النيران وهم يقفزون محتفظين على الدوام بمركزهم الذى اتخذوه من البداية بالنسبة الينا . ثم انهم كانوا من جهة أخرى يتوقعون حركتنا . ففى موضع يتسع فيه الطريق ، ويستوى الجبل سهلا ، كان شاب فى انتظارنا على رأس اثنى عشر رجلا يمتطون الجياد . ولما لمحونا ارخوا الأعنة لجيادهم ، وأقبلوا علينا يصدمون جبهتنا ، بينما راح مطاردونا الآخرون يتدحرجون على جوانب الجبل ، فقطعوا علينا خط الرجعة وحاصرونا من جميع الجهات .

وأصبح الموقف خطيرا . على اننى وقد اعتدت مشاهد الحرب منذ طفولتى ، استطعت أن أواجه الموقف دون أن يغيب عنى شيء من دقائقه . كان أولئك الرجال يلبسون جلود الخراف ، وعلى رءوسهم قبعات كبيرة مستديرة مزينة بالأزهار الطبيعية ، كقبعات الهنفاريين ، وفى يد كل منهم بندقية تركية يطلقها ويهزها وهو يطلق صرخات وحشية ، وفى نطاقه سيف مقوس وزوج من المسدسات . أما زعيمهم فهو شاب لايزيد عمره عن الثانية والعشرين ، شاحب اللون ، له عينان سوداوان عريضتان وشعر بضفائر تتدلى على كتفيه . وتتكون بزته من رداء مولدافى مزين بالفرو ومشدود عند الخصر بعصبة من جدائل ذهبية وحريرية . وفى يده يلمع سيف مقوس ، وفى نطاقه أربعة مسدسات براقة . وكان خلال المعركة يطلق صيحات خشنة متنافرة ليست من طبيعة البشر ، ولكنها تفصح مع ذلك عن ارادته ، اذ كان رجاله يستجيبون لها فيستلقون على بطونهم ليتجنبوا رصاص جنودنا ، ثم ينهضون ويطلقون النار بدورهم فيصرعون الواقفين منا ، أو يجهزون على المجروحين ، ويقلبون المعركة الى مجزرة .

وشهدت ثلثى المدافعين عنى يتساقطون الواحد بعد الآخر ، حتى بقى منهم أربعة التفوا حولى ، لا يطلبون الرحمة ، وهم على يقين

من أنهم لن ينالوها ، ولا يفكرون الا فى شىء واحد : أن يبيعوا حياتهم بأغلى ثمن مستطاع .

وحينئذ أطلق الزعيم صيحة أقوى من سائر الصيحات ، وأشار بطرف سيفه ناحيتنا ، يقصد بالتأكيد تطويقنا بدائرة من النيران واطلاق كل الرصاص على مجموعتنا ، فقد انخفضت البنادق المولدافية كلها بحركة واحدة . وادركت أن ساعتنا الاخيرة قد حانت ، فرفعت عينى ويدى الى السماء فى صلاة أخيرة ، وتلبثت فى انتظار الموت .

وفى هذه اللحظة أبصرت شابا يهبط المنحدر متدافعا ، واثبا من صخرة الى صخرة ، ثم يتوقف على حجر يشرف على المشهد كله ، وكأنه تمثال قائم على قاعدة ، ومد يده الى الساحة ونطق بكلمة واحدة : « كفى ! » . وعند سماع هذا الصوت ارتفعت كل الأعين ، وبدا على الجميع الامتثال لأمر هذا السيد الجديد . على أن لصا واحدا فقط أسند بندقيته الى كتفه وأطلقها، فصرخ أحد رجالنا وقد هشمت الرصاصة ذراعه اليسرى ، واستدار للفور ليهجم على الشخص الذى أصابه ، ولكن قبل أن يخطو جواده أربع خطوات ، سطع بريق فوق رءوسنا وسقط اللص العاصى ، وقد حطمت رصاصة رأسه .

وأنهكت كل هذه الأحداث المؤثرة قواى فرحت فى غيبوبة . ولما استعدت حواسى ، كنت راقدة على العشب ورأسى معتمد على ركبتى رجل لم أر منه الا يده البيضاء المغطاة بالخواتم ، وهى تطوق خصرى ، فى حين وقف أمامى الزعيم المولدافى الشاب الذى قاد الهجوم ضدنا ، وقد عقد ذراعيه فوق صدره . وحمل سيفه تحت ابطه . وقال ذلك الذى كنت مستندة اليه بالفرنسيه بلهجة آمرة :

— كوستاكى ، انصرف حالا ، واسحب رجالك واترك لى أمر العناية بهذه الفتاة .

فرد عليه الرجل المقصود بهذا الأمر والذى بدا أنه يتمالك نفسه بمشقة : أخى ، أخى ، حذار أن تستنفد صبرى ، اننى أترك لك القصر فاترك لى الغابة . انت سيد القصر ، ولكنى هنا صاحب السيادة والنفوذ ، بكلمة واحدة ألزمك الطاعة .

– كوستاكى ، أنا الأخ الأكبر ، فاعلم لذلك اننى السيد فى كل مكان ، فى الغابة وفى القصر ، هنا وهناك ، أوه ! اننى مثلك تجرى فى عروقى دماء « برانكوفان » ، دماء ملكية اعتادت اصدار الأوامر ، ولذا فانى آمر فأطاع .

– جريجوريسكا ، لك أن تحكم خدمك ، لا جنودى .

– جنودك لصوص ياكوستاكى ، سوف أشنقهم فى أبراج قصرنا اذا لم يطيعونى للحال .

– حسن ! جرب اذن أن تسيطر عليهم .

وشعرت حينئذ ان ذلك الذى كان يسندنى قد سحب ركبته ووضع رأسى برفق على حجر ، فأرسلت نظرى اليه فى فضول ، فوجدته نفس الشاب الذى هبط الينا من السماء وسط المعمعة، والذى ما كدت ألمحه وما كاد يتكلم حتى أغمى على .

كان شابا فى نحو الرابعة والعشرين ، طويل القامة ، له عينان واسعتان زرقاوان ، تنطقان بعزم وارادة لا نظير لهما . وكان شعره الطويل الاشقر الذى يميز الجنس السلافى يغطى كتفيه ، كأنه الملاك ميكائيل ، ويطوق خدين ناضرين . وكانت شفتاه مرتفعتين فى ابتسامة ساخرة تلمح من بينهما صفين من اللؤلؤ . أما نظرته فتحاكى نظرة النسر فى سنا البرق . وكان يرتدى قميصا من القطيفة السوداء ، وعلى رأسه قلنسوة صغيرة ، كقلنسوة « رافائيل » مزينة بريش النسر ، وسروالا ضيقا يكاد يلتصق بجلده ، وزوجا من الأحذية المطرزة ، ويحيط بخصره حزام مثبت به خنجر صيد، ويحمل فى جراب معلق بكتفه بندقية صغيرة ذات طلقين ، وهى البندقية التى خبر أحد اللصوص دقة تصويبها .

ومد يده ، كأنها تأمر أخاه ، ونطق ببضع كلمات باللغة المولدافية ، وظهر لهذه الكلمات وقع عميق فى نفس اللصوص . وعندئذ تكلم الزعيم الاصفر ، بنفس اللغة ، وحزرت ان كلماته تتخللها تهديدات ولعنات . ولم يرد الاخ الاكبر على كل هذه الخطبة الطويلة الحارة الا بكلمة واحدة ، انصاع لها اللصوص .

وتكلم كوستاكى ثانية بالفرنسية فقال : فليكن ياجريجوريسكا ، هذه المرأة لن تذهب الى الكهف ، ولكنها مع ذلك تخصنى ،

وأنا أراها جميلة ، وقد استوليت عليها ، وأريدها لنفسى . قال هـذا وهجم على ، ورفعنى بين ذراعيه . فأجاب ذلك الذى شملنى بعنايته : سنأخذ هـذه المرأة الى القصر ، ونسلمها الى أمى ، ولن أتركها حتى تصل الى هناك .

فصاح كوستاكى بالمولدافية : الى بحصانى .

وأسرع عشرة من اللصوص ينفذون الأمر ، فأحضروا لسيدهم الحصان الذى طلبـه . والتفت جريجوريسكا حوله وقبض على زمام جواد لا صـاحب له فقفز على ظهره دون أن يلمس ركاب السرج . وقفز كوستاكى على ظهر الجواد بخفة لا تقل عن خفة أخيه ، مع انه كان يحملنى بين ذراعيه . وانطلق بالجواد . وكأن جواد جريجوريسكا قـد تلقى نفس النخزة التى تلقاها جواد كوسـتاكى ، فانطلق هو أيضا حتى تحاذى الجوادان والتصقت الرأس بالرأس ، والجنب بالجنب .

وكان من العجب العجاب أن يشاهد المرء هذين الفارسين وهما ينطلقان جنبا الى جنب صامتين عابسين لا تفوت أى منهما حركة تصدر من الآخر ، رغم انه لا يبـدو على أى منهما أنه ينظر الى الآخر . وترك الاثنان الأعنة للجوادين اللذين انطلقا بهما خـلال الغابات بين الصخور والوهاد .

واستطعت أن أرى برأسى الذى كان فى وضـع مقلوب ، عينى جريجوريسكا الجميلتين ترنوان الى . ولمح كوسـتاكى ذلك فرفع رأسى ، ولم أعد أرى غير نظرته القـاتمة التى كانت تلتهمنى ، فنكست جفونى . على ان ذلك لم ينفعنى شيئا ، فقد ظللت أرى تلك النظرة النافذة التى كانت تخترق صدرى وتنفذ الى أعمـاق قلبى . وحينئذ تملكنى جنون غريب ، فقد خيل الى أننى «لينور» بطلة قصـيدة « بيرجر » يحملنى فارس على جواد ، والفـارس والجواد كلاهما من الأشباح . ولمـا شعرت اننا قد توقفنا عن السير فتحت عينى وأنا مرتعبة ، فقد توهمت أننى ان أرى حولى الا صلبانا مكسورة ومقابر فاغرة . على ان ما رأيتـه لم يكن أبهج مما توقعت : فقد وجدت نفسى فى الفنـاء الداخلى لقصر مولدافى مبنى فى القرن الرابع عشر .

قصر برانكوڤان



(١٣) قصر برانكوفان

عندئذ تركنى كوستاكى أنزلق من بين ذراعيه الى الأرض ، وفى نفس اللحظة تقريبا نزل بجوارى . وكان ، مع حركته السريعة ، يتابع حركة جريجوريسكا الذى كان ، على حد قوله ، السيد المطاع فى قصره . وهرع الخدم حين رأوا الشابين ومعهما المرأة الغريبة التى أحضراها . ومع أن عناية الخدم كانت موزعة بالتساوى بين كوستاكى وجريجوريسكا ، الا أنه كان من الواضح أن القسط الأكبر من التبجيل كان من نصيب الثانى .

واقتربت امرأتان ، فأصدر اليهما جريجوريسكا أمرا بالمولدافية ، وأشار الى بأن أتبعهما . وتضمنت تلك الاشارة قدرا كبيرا من الاحترام ، فلم أتردد فى الامتثال لأمره . وبعد خمس دقائق كنت فى غرفة قد تبدو للانسان العادى عارية مهجورة ، ولكنها كانت فى الواقع أجمل غرفة فى القصر : فهى مربعة الشكل بها أريكة مكسوة بقماش صوفى خشن أخضر اللون ، تستعمل مقعدا بالنهار، وفراشا بالليل ، وخمسة أو ستة مقاعد ذات مساند من خشب الأرو ، وصندوق كبير ، وفى أحد أركانها منضدة على شكل مظلة كأنها أريكة كبيرة فاخرة من أرائك الكنائس . ولم يكن على النوافذ أو السرير ستائر على الاطلاق . ويصل الانسان الى هذه الغرفة صاعدا على سلم ، بحوائطه تجاويف تقف بداخلها ثلاثة تماثيل ، أكبر من الحجم الطبيعى ، لأفراد أسرة برانكوفان. وبعد لحظة ادخلت الخادمتان الأمتعة بالغرفة ، ومعها حقائبى، وعرضتا على خدماتهما . وشرعت أصلح ما أفسدته الحوادث الأخيرة من زينتى ، ومع ذلك احتفظت بحلة الركوب التى كانت تتواءم مع ثياب مضيفاتى أكثر من أى زى آخر أستطيع تجهيزه .

وماكدت أفرغ من هـذه التغييرات البسيطة حتى سمعت قرعا خفيفا على باب غرفتى فقلت : « أدخـل » ، بالفرنسية طبعا ، فالفرنسية كما هو معلوم هى لغة أمهاتنا نحن البولنديات .

ودخل جريجوريسكا ، وقال : آه ياسيدتى ، اننى سعيد لأنك تتكلمين الفرنسية .

ــ وأنا أيضا ياسيدى سعيـدة لأنى أتـكلم بهذه اللغة ، وقد أتاحت لى هـذه الصـدفة أن أقدر تصرفك الـكريم معى ، وبهذه اللغة دافعت عنى ضد نوايا أخيك . وبهذه اللغة أعبر لك عن خالص شكرى وامتنانى .

ــ شكرا ياسيدتى ، كان من الطبيعى أن أهتم بشأن امرأة فى مثل الموقف الذى كنت فيه ، فقـد كنت أصيـد فى الجبال حين سمعت طلقـات متواترة غير منتظمة ، فأدركت ان فى الأمر عدوانا مسلحا ، واتجهت الى مصدر النيران ، كما يقولون بلغة الحروب ، فوصلت فى الوقت المنـاسب بحمد الله . ولـكن اسمحى لى ياسـيدتى أن أستوضحك أمرا ... ما هى الظروف التى حملت سيدة راقية مثلك على أن تغامر بنفسها فى جبالنا ؟

ــ أنا ياسيدى بولندية ، قتل أخواى منـذ قليـل فى الحرب ضـد روسيـا ، ولابد أن أبى قد لحق بهما ، فقد تركته يستعد للدفاع عن قصرنا ضـد العدو . أما أنا فقد هربت من هـذه المذابح كلها ، كما أمرنى أبى ، وجئت ألتمس المـأوى فى دير « ساهاسترو » الذى لجأت اليه أمى فى طفولتهـا ، وفى ظروف تشبه ظروفى الحاضرة ، فوجدت فيه الملجأ الأمين .

فقال الشاب : أنت اذن عدوة الروس ، عظيم ! فسوف تكون صفتك هذه سـندا قويا لك فى قصرنا هـذا ، ونحن فى حاجة الى كل قوانا حتى نعد العدة للمعركة القادمة . والآن وقد علمت من تكونين ، فاعلمى ياسيدتى من نكون .

ان اسم « برانكوفان » ليس غريبـا عنك بالمرة ، أليس كذلك ياسيدتى ؟

فحنيت رأسى مؤيدة .

ــ وأمى آخر أميرة تحمل هـذا الاسم ، وهى آخر سلالة ذلك

الزعيم المشهور الذى قتله رجال « الـكانتيمير » الأشقياء ، بطانة بطرس الأول. وتزوجت أمى فى أول الأمر أبى «سيربان وبفادى» وهو أمير مثالها ، ولـكنه من سلالة أقل شهرة من سلالتها . وكان أبى قد تربى فى فيينا حيث استطاع أن يتذوق مزايا المدنية ، واعتزم أن يجعلنى أوربيا ، فرحلنا الى فرنسا وايطاليا وأسبانيا وألمانيا.

اننى أعلم انه ليس من واجب الابن أن يقص عليك كل الذى سوف أقصه الآن ، ولـكن يجب أن تعرفينا حق المعرفة ، وهذا لصالحنا جميعا ، وسوف تقدرين البواعث التى تدفعنى الى هذا الافضاء .

ففى أثناء رحلات أبى الاولى ، عندما كنت أنا طفلا رضيعا ، كانت أمى على علاقة أثيمة بأحـــــــد زعماء « الشيعة » ـ وأردف جريجوريسكا باسما : وتطلق هـذه التسمية فى بلادنا على أولئك الرجال الذين هاجموك . أقول كانت أمى على علاقة أثيمة بالكونت « جورداكى كوبرولى » وهو نصف يونانى ونصف مولدافى ، فكتبت الى أبى تعترف له بكل شىء ، وتطلب منه الطلاق متعللة لذلك بأنها وهى من أسرة برانكوفان لا تستطيع أن تظل زوجة لرجل أصبح بالتدريج أجنبيا عن وطنها . ولـكن وا أسفاه ، فلم يكن ثمة داع لأن يوافق أبى على هـذا الطلب الذى قد يبدو لك غريبا ، ولكنه عندنا طبيعى وشائع للغاية ، اذ مات أبى من تضخم الشرايين الذى كان يشكو منه منذ أمد طويل . واستلمت أنا رسالتها بدلا منه ، واكتفيت بأن أعبر لها عن أخلص تمنياتى بحياة سعيدة ، وأبلغتها فى نفس الرسالة بأنها قد ترملت ، وطلبت منها الاذن فى أن أواصل رحلاتى ، فأذنت لى بذلك .

وكان هدفى المبـاشر أن أستقر فى فرنسا أو ألمـانيا حتى لا أواجه رجلا يكرهنى ولا أستطيع أن أحبـه ، وأعنى به زوج أمى. على اننى علمت فجأة ان الـكونت جورداكى كوبرولى قد قتـل ، قتله على ماعلمت رجال أبى من قدامى القوزاق وبادرت بالعودة ، فقد كنت أحب أمى ، واستشعرت وحدتها وحاجتها فى هـذا الظرف الى أن تجد بجوارها الأشخاص الذين يمكن أن يكونوا عونا لها . ومع أنها لم تـكن تشعر نحوى بأى حب أو عطف ، فاننى كنت ابنها .. وعدت ذات صبـاح على غير انتظار الى قصر أجدادى ،

فوجدت شابا حسبته فى أول الأمر أجنبيا عنا ، ولكنى علمت بعد ذلك انه أخى ، كوستاكى ، ابن الزنا الذى أصبح ابنا شرعيا بعد زواج أمى الثانى ، كوستاكى ، ذلك المخلوق الذى رأيته ، والذى يصعب ترويضه ، قانونه الوحيد أهواؤه وشهواته ، ولا يقدس شيئا فى الدنيا غير أمه ، ولا يطيعنى الا كما يطيع النمر اليد التى روضته ، ولكنه يزأر زئيرا متواصلا ، يغذيه أمل غامض فى أن يلتهمنى يوما من الأيام. وهو ما زال يخضع لسلطتى داخل القصر وفى مسكن أسرة برانكوفان وايفادى ، ولكن خارج هذا الحصن ، فى قلب الريف ، ينقلب ابن الغابة والجبال المتوحش الذى يريد أن يطوى كل شيء تحت ارادته الحديدية . وانى لأعجب ، كيف أذعن اليوم كما أذعن رجاله ! لا أدرى ، قد يكون ذلك أثرا متخلفا من عادة قديمة ، أو بقية من توقير قديم .

ولكنى لا أريد أن أفاجأ بتجربة جديدة . ابقى هنا ولا تبرحى هذه الغرفة ، وهذا الفناء وكل ما بداخل هذه الأسوار، وأنا المسئول عن كل شيء . أما اذا خطوت خطوة واحدة خارج القصر فان أكون مسئولا عن أى شيء ، اللهم الا اذا واجهت القتل دفاعا عنك .

– ألا أستطيع اذن أن أنفذ ارادة أبى فأواصل طريقى الى دير ساهاسترو ؟

– افعلى ما تشائين ، حاولى ذلك ، أؤمرى ، وأنا أرافقك ، ولكنى سوف أواصل طريقى .. أما أنت .. أما أنت فلن تبلغى غايتك .

– ما العمل اذن ؟

– ابقى هنا ، وانتظرى، واعتبرى بما يحدث ، وتحينى الفرص، افترضى انك سقطت فى وكر من أوكار اللصوص وان شجاعتك وحدها هى الخليقة بأن تخلصك من ورطتك ، ورباطة جأشك وحدها هى التى تنقذك . ان أمى طيبة وكريمة على الرغم من ايثارها ابنها كوستاكى ثمرة عشقها . وهى فوق ذلك من أسرة برانكوفان ، أى انها أميرة حقيقية ، وسترين أنها سوف تحميك من اهواء كوستاكى الشريرة . ضعى نفسك تحت حمايتها . أنت

جميلة وسوف تحبك ، ومن جهة أخرى ... (ونظر الى نظرة لايمكن التعبير عنها) من يستطيع أن ينظر اليك ولا يحبك ؟ تعالى الآن الى غرفة الطعام حيث تنتظرنا أمى ، ولا تظهرى لها أى ارتباك أو ارتياب ، وتكلمى باللغة البولندية ، فلا يوجد هنا من يعرف هذه اللغة ، وسوف أترجم أحاديثك الى أمى ، واطمئنى فلن أترجم منها الا ما يصح قوله ، ولا تقولى بنوع خاص أية كلمة عما كشفته لك الآن من أسرار حتى لايظن أحد اننا متواطئان ، فانت تجهلين أساليب المكر والخداع عند أشدنا اخلاصا . تعالى .

وتبعته فى ذلك السلم المضاء بمشاعل الراتنج المثبتة فى أذرع حديدية بارزة من الحوائط وكان من الواضح أن هذه الاضاءة غير العادية قد عملت من أجلى . ووصلنا الى غرفة الطعام وما أن فتح جريجوريسكا الباب ونطق بكلمة مولدافية عرفت من وقتها أنها تعنى « الاجنبية » حتى أقبلت علينا امرأة طويلة القوام ، هى الأميرة برانكوفان ، وكان شعرها الأبيض معقودا حول رأسها الذى تعلوه طاقية صغيرة من فرو السمور تعلوها قنبرة ، اشارة الى أصلها النبيل ، وترتدى قميصا من الجوخ المذهب مرصعا عند صدره بالجواهر ، فوق جلباب طويل من قماش تركى محلى بفرو شبيه بفرو الطاقية . وبيدها مسبحة لها حبات من الكهرمان جعلت تديرها بسرعة كبيرة بين أصابعها . والى جانبها كوستاكى مرتديا حلة عظيمة فاخرة بدا لى فيها فى غاية الغرابة ، وهى حلة ماجيارية من القطيفة الخضراء ذات أكمام طويلة ، تنحدر تحت الركبة وسراويل من الكشمير الاحمر وخفين من جلد الماعز المرصع بالذهب وكان عارى الرأس ، تنحدر شعوره الطويلة السوداء المائلة للزرقة على رقبته العارية ، تلامسها فقط شبكة خفيفة بيضاء مثبتة فى قميص حريرى .

وحيانى بارتباك ونطق ببضعة الفاظ مولدافية لم أفهمها ، فقال جريجوريسكا :

ــ تستطيع يا أخى أن تتكلم الفرنسية ، فالسيدة بولندية وتفهم هذه اللغة .

وعندئذ تفوه كوستاكى ببعض الكلمات الفرنسية ، ثم أفهمها

كما لم أفهم ما قاله بالمولدافيــــــة . ولـكن الأم قاطعتهما ومدت أليهما ذراعها بوقار . وتبين لى أنها قالت لولديها ان مهمة الحفاوة بى من شــأنها وحدها . وعندئذ طفقت تلقى بالمولدافية عبارات الترحيب

وأضفت أســارير وجهها على عباراتها معنى يسهل فهمه ، فأشارت الى المنضدة ، وقدمت لى مقعدا قريبا منها ، وأشــارت الى المنزل كله بما يفهم انه تحت تصرفى . وجلست هى قبل الجميع فى عظمة يخالطها شىء من العطف ، فرسمت علامة الصــليب ، وشرعت فى صلاة . وعندئذ جلس كل منا فى مكانه حسب قواعد السلوك ، وبجوارى جريجوريسكا ، ولما كنت أنا الاجنبية ، فقد جعلت لكوستاكى مكان الصدارة الى جوار والدته « سميراند » ، وهــذا هو اسم الأميرة . وكان جريجوريسكا قد بدل هو أيضا ثيابه ، ولبس حلة ماجيارية كحلة أخيه ، والاثنتان من القطيفــة العنابية اللون ، وسروالا من الــكشمير الأرزق ، ويتدلى من عنقه وسام بديع : نيشان السلطان محمود . وجلس ســائر المؤاكلين يتناولون طعام العشاء على نفس المــائدة ، واتخذ كل منهم المكان المناسب لمركزه بين الأصدقاء أو بين الخدم والحشم . وكان جو العشاء مقبضا . ولم يوجه كوستاكى الحديث الى مرة واحدة ، بينما اهتم أخوه بالتحدث معى بالفرنسية . أما الأم فانها كانت تقدم الى كل شىء بنفسها بذلك الأسلوب الرسمى الذى تلتزم به. لقد صدق جريجوريسكا حين قال انها أميرة حقا . وبعد انتهاء العشاء تقدم جريجوريسكا من أمه ، وشرح لها بالمولدافية حاجتى الى العزلة للاستجمام مما عانيته من الانفعالات فى هــذا اليوم ، فأشــارت ســميراند برأسها بالموافقة ومدت الى يدها ، وقبلت جبينى كأنها تقبل ابنتها ، وتمنت لى ليلة سعيدة فى قصرها . ولم يخطىء جريجوريسكا ، فقد كنت فى حاجة شــديدة الى الانفراد بنفسى بعض الوقت ، ولذا شكرت الأميرة التى سارت معى حتى البــاب حيث كان فى انتظارى المرأتان اللتان رافقتانى من قبلحتى غرفتى . وحييت الأميرة بدورى : كما حييت ولديهــا ، ودخلت نفس الغرفة التى خرجت منها منــذ ســاعة . ولم يتغير بهــذه

الغرفة شيء ، سوى ان الأريكة قد انقلبت سريرا . وشكرت المرأتين وأشرت اليهما بما معناه انني سوف أخلع ملابسي وحدي ، فخرجتا في الحال بمظاهر الاحترام التي تدل على أنهما مأمورتان باطاعتي في كل شيء . وبقيت في الغرفة الفسيحة التي لم تستطع شمعتان أن تضيئاها كلها ، فلم يكن يضاء منها سوى الأجزاء التي أمر بها وأنا حاملة الشمعة . وتلاعبت الأنوار بصورة غريبة ، فكان هناك ما يشبه النزال بين ضوء شمعتي وبين أشعة القمر التي انسابت الى الغرفة من نافذتي الخالية من الستائر . وكان بالغرفة خلاف الباب الذي دخلت منه ، والذي يفتح على السلم ، بابان آخران لكل منهما مصراع هائل يفتح الى داخل غرفتي فيبعث في نفسي شعورا بالطمأنينة . واتجهت الى باب الدخول وفحصته ، فوجدت به من وسائل الدفاع ، ما بالبابين الآخرين . وفتحت نافذتي : كانت تطل على هاوية ، وأدركت أن جريجوريسكا قد اختار لي هذه الغرفة بعد تفكير عميق . وعندما عدت أخيرا الى أريكتي ، وجدت على منضدة موضوعة بالقرب من رأس سريري بطاقة صغيرة مطوية فتحتها وقرأت فيها بالبولندية : « نامي هادئة ، ليس هناك ما تخشينه ما دمت في داخل القصر »

جريجوريسكا

وأتبعت هذه النصيحة . ولما تغلب التعب على مشاغلي الذهنية رقدت ونمت .

الأخـوان



(١٤) الاخوان

من تلك اللحظة ، استقر بى المقام فى القصر ، وبدأت المأساة التى سأقصها عليكم الآن . أصبح الأخوان مغرمين بى ، كل حسب طبيعته . ففى اليوم التالى ، قال لى كوستاكى أنه يحبنى ، واننى سأكون له وحده دون غيره ، وانه يفضل أن يقتلنى على أن يتركنى الى أى كائن من كان . أما جريجوريسكا فانه لم يقل شيئا . ولكنه راح يغمرنى برعايته واهتمامه ، مستخدما كل ما تلقاه من تعليم وتربية ممتازة وكل ما يذكره من شباب أمضاه فى أرقى بلاطات أوروبا لكى يرضينى . غير ان الأمر لم يكن شاقا الى هذا الحد ، اذ كنت أشعر بنغمات صوته تداعب روحى ، ونظراته تنفذ الى سويداء قلبى .

وبعد ثلاثة أشهر كان كوستاكى قد قال لى مائة مرة انه يحبنى ، وكنت أكرهه .. وفى هذه الفترة لم يكن جريجوريسكا قد قال لى كلمة حب واحدة ، ولكنى كنت أشعر بأننى سوف أكون ملك يديه اذا طلب منى ذلك .

وكف كوستاكى عن جولاته فى الخارج ، ولم يعد يغادر القصر ، وترك القيادة مؤقتا لجندى برتبة ملازم كان يعود من حين الى آخر ليتلقى منه الأوامر ثم يختفى . وكانت سميراند هى أيضا تحبنى حبا شديدا ، تخيفنى دلائله . وكان واضحا أنها تحمى كوستاكى ، ويبدو أنها تغار على أكثر مما تغار على ابنها . ولما كانت لا تفهم البولندية أو الفرنسية ، وأنا لا أفهم المولدافية ، فانها لم تستطع أن تكلمنى كثيرا لصالح ابنها . ولكنها تعلمت أن تقول لى بالفرنسية ثلاث كلمات ، ترددها كلما مست شفتاها جبهتى ، وهذه الكلمات هى « كوستاكى يحب هدفيج » .

وذات يوم بلغنى نبأ مفجع ضاعف ما أنا فيه من كرب : فقد اطلق سراح رجالى الاربعه الذين بقوا على قيد الحياة فى المعركه، وعادوا الى بولنده بعد ان أقسموا بشرفهم أن يعود احدهم قبل انقضاء شهور ثلاثة لينهى الى اخبار ابى . فذات صباح وصل واحد منهم وأخبرنى ان قصرنا قد حرق ودمر ، وان ابى قتل وهو يدافع عن القصر . ومنذ تلك اللحظه أصبحت وحيدة فى هذا العالم .

وازداد الحاح كوستاكى ، وازدادت رقة سميراند وسماحتها . ولكنى تذرعت هذه المرة بالحداد على أبى . وألح كوستاكى قائلا أنه كلما اشتدت وحدتى زادت حاجتى الى من يشد أزرى . وألحت على الأم معه ، ومثله ، وربما أكثر منه .

وحدثنى جريجوريسكا عن قوة ارادة المولدافيين وتحكمهم فى نفوسهم اذا أرادوا اخفاء شعورهم عن الناس ، وكان هو مثلا حيا لهذه القوة . وليس فى مقدور امرأة أن تتأكد من حب رجل لها كما تأكدت أنا من حبه لى ، على اننى لم أكن لأستطيع أن أبرهن على وجود هذا الحب ، فلم يبصر أحد فى القصر يده تمس يدى أو عينيه تبحثان عن عينى . ولم يكن هناك ما يكشف لكوستاكى عن هذه المنافسة سوى الغيرة ، ولم يكن ثمة ما يكشف لى عن هذا الحب سوى حبى . ولكنى أعترف مع ذلك أن سيطرة جريجوريسكا على نفسه كانت تقلقنى . كنت أومن بسيطرته هذه ، انما كان يعوزنى الدليل المقنع . وذات مساء دخلت غرفتى فسمعت قرعا خفيفا على أحد البابين اللذين ذكرت انهما مقفلان من الداخل، وحزرت من طريقة القرع ان الطارق صديق ، فاقتربت وسألت : من الطارق ؟

فأجاب بصوت تدل نبراته على الصدق الذى لا مراء فيه : جريجوريسكا .

فسألته وأنا أرتجف : ماذا تريد ؟

فقال : اذا كنت تثقين بى ، وتؤمنين بأنى رجل شريف ، أجيبينى الى طلبى .

— ما طلبك ؟

ـ أطفئى النور كأنك راقدة ، وبعد نصف ساعة افتحى لى بابك

وكان جوابى الوحيد : بعد نصف ساعة .

وأطفأت النور وانتظرت . وكان قلبى يدق بشدة اذ أدركت ان فى الأمر حدثا خطيرا . وانقضى نصف الساعة . وسمعت قرعا أرق من الاول ، وكنت قد رفعت المزاليج ، ولم يعد أمامى سوى أن أفتح الباب . ودخل جريجوريسكا ، ولم أنتظر منه أمرا فقد أغلقت الباب وراءه وأغلقت المزاليج . وظل لحظة صامتا ، لايتحرك ، وأشار الى بالسكوت . ولما تأكد انه ليس هناك أى خطر ، سار بى الى منتصف الغرفة الواسعة ، ولما أدرك من ارتجافى اننى لا أستطيع أن أبقى واقفة ، أحضر لى كرسيا ، فجلست ، أو بالأحرى تهاويت على الكرسى وقلت له :

ـ اوه ! يا الهى ! ما هناك ، ولم كل هذه الاحتياطات ؟

ـ ذلك لأن حياتى وحياتك ـ حياتى التى قد لا تساوى شيئا من غير حياتك ـ تتوقفان على الحديث الذى سيجرى بيننا الآن . وأمسكت بيده وأنا خائفة ، فرفع يدى الى شفتيه وهو ينظر الى كمن يطلب الصفح عن جرأته هذه ، وأرخيت عينى دليل الموافقة .

قال لى بصوته الموسيقى الشبيه بالغناء : أنا أحبك ، هل تحبيننى ؟

فأجبته : نعم .

ـ أتوافقين على أن تكونى زوجتى .

ـ نعم .

ومرر يده على جبهته متنهدا تنهد السعادة .

ـ اذن فأنت لا ترفضين أن تتبعينى ؟

ـ سأتبعك الى أى مكان .

ـ ذلك لأننا ـ كما تعلمين ـ لا نستطيع أن نكون سعيدين الا اذا هربنا .

فصحت قائلة : أوه ! نعم ، فلنهرب .

فأجاب وهو يرتجف : صمتا .

ـ الحق معك .

واقتربت منه وأنا أرتجف ، فقال لى : اليك ما فعلته ، اليك

السبب الذى جعلنى أبقى طول هــذا الوقت دون أن أبوح لك بحبى.. ذلك لأنى أردت أن أستوثق أولا من حبك ، فلا يمكن أن يقف بعد ذلك شيء فى سـبيل زواجنا . اننى غنى ياهدفيج غنى فاحشا ، على طريقة أشراف مولدافيا : غنى بالأراضى وقطعـان الماشية ورقيق الأرض . حسن ! لقد بعت فى دير هانجو مايساوى مليونا من الأراضى والمواشى والقرى ، واستلمت فى مقابلها أحجارا كريمة تساوى ثلاثمائة ألف فرنك ، وذهب بثلاثمائة ألف فرنك ، والباقى كمبيالات على فيينا . هل يكفيك المليون ؟

فضغطت على يده قائلة : يكفينى حبك ياجريجوريسكا ، والأمر لك

ـ حسن ! استمعى الى . سأذهب غدا الى دير هانجو لأجرى الترتيبات الأخيرة مع رئيس الدير . انه يحتفظ لى بجياد مطهمة تنتظرنا ابتـداء من الساعة التاسعة مختبئة على بعد مائة خطوة من القصر . وبعد العشاء اصعدى الى غرفتك كما فعلت اليوم ، واطفئى النور ، وسـأدخل غرفتك كما فعلت اليوم ، ولـكنى لن أخرج وحدى ، بل معك ، فنصل الى الباب الذى يفتح على الخلاء ونجد جيـادنا فنثب على ظهورها . وفى النهـار ، بعد غد ، نـكون قد قطعنا ثلاثين فرسخا .

ـ متى يأتى بعد الغد !

ـ عزيزتى هدفيج ...

وضمنى جريجوريسكا الى صدره والتقت شفاهنا . أوه ! ما أصدق حديثه ، لقد فتحت باب غرفتى لرجل نبيل النفس ، صادق الوعد ، فهم اننى له بروحى ان لم أكن بجسدى .

ومضى الليل دون أن أستطيع النوم لحظة واحدة . تصـورت نفسى هاربة مع جريجوريسكا ، وشعرت به وهو يحملنى كما حملنى كوستاكى . ولـكن فى هـذه المرة تحولت المسيرة المخيفة الى عناق رفيق ساحر ، أضفت عليه السرعة لذة حسية ، لأن للسرعة أيضا لذة .

وأقبل النهـار . ونزلت . وخيل الى ان كوستاكى حيانى بكآبة اشد من المعتاد . ولم تعد ابتسامته ساخرة بل اصبحت متهددة . اما سميراند ، فقد بدت كعادتها ، لم تتغير . وفى أثناء تنـاول

الطعام ، أمر جريجوريسكا بتجهيز جياده . ولم يبد على كوستاكى أى اهتمام بهذا الأمر . وفى حوالى الحادية عشرة حيانا جريجوريسكا وأبلغنا أنه لن يعود فى المساء ، ورجا أمه ألا تنتظره وقت الغداء . ثم استدار نحوى ورجانى أن أقبل اعتذاره .

وخرج . وتبعته عين أخيه حتى اللحظة التى غادر فيها الغرفة . وفى هذه اللحظة لمع فى عينيه بريق قوى من الكراهية بعث الرعدة فى أوصالى . وانقضى النهار فى ألوان من الرعب لكم أن تتصوروها . ولم أكن قد أفضيت بمشروعاتنا الى أى مخلوق ، حتى فى صلواتى لم أجرؤ أن أحدث بها ربى . ومع ذلك توهمت أن هذه المشروعات يعرفها الجميع ، وأن كل نظرة تقع على ، تنفذ الى أعماق قلبى ، وتقرأ أفكارى

وكان الغداء بالنسبة لى عذابا ، فقد كان كوستاكى متجهما صامتا فلم يتكلم الا فى النادر ، واكتفى هذه المرة بأن يوجه الكلام الى أمه بالمولدافية مرتين أو ثلاثا ، وفى كل مرة كانت نبرات صوته تبعث الرعدة فى أوصالى . ولما نهضت لأصعد الى غرفتى قبلتنى سميراند كالمعتاد وقالت لى تلك العبارة التى لم أسمعها تخرج من فيها منذ ثلاثة أيام : « كوستاكى يحب هدفيج » .

لقد قال لى جريجوريسكا ان حب كوستاكى انما هو الموت نفسه

وفى حوالى السابعة حيث شرع النهار يولى الادبار رأيت كوستاكى يعبر الفناء ، ثم يستدير ، لينظر ناحيتى ، فتراجعت الى الوراء حتى لايرانى ، وكنت قلقة ، اذ أبصرته من مكانى بالنافذة يتجه صوب الاسطبلات ، ففامرت ورفعت مزاليج باب غرفتى ، وانسللت الى الغرفة المجاورة حيث أمكننى أن أراقب ما سوف يفعله .

رأيته بالفعل يسير نحو الاسطبلات ، ثم يخرج منها جواده المفضل ، فأسرجه بعناية الرجل الذى يهتم بأدق التفاصيل . وكان يرتدى نفس الحلة التى ظهر لى بها لأول مرة ، ولكنه لم يحمل فى هذه المرة سوى سيفه . ولما أتم تجهيز الجواد ألقى نظرة أخرى الى نافذتى ، ولما لم يرنى وثب الى ظهر الجواد وفتح نفس الباب الذى خرج منه أخوه ، والذى سيدخل منه عند عودته وابتعد الجواد راكضا فى اتجاه دير هانجو .

عندئذ انقبض قلبى بشكل مزعج ، وانتابنى شعور مسبق مشئوم بأن كوستاكى قد مضى ليواجه اخاه . وبقيت عند النافذة حيث أستطيع أن أميز الطريق الذى ينحرف بزاوية على بعد ربع فرسخ من القصر ثم يختفى عند مشارف غابة . ولكن الظلام أخذ يشتد كثافة لحظة بعد أخرى ، وامسى الطريق فى النهاية وقد تلاشت معالمه .

وبقيت مكانى . وأخيرا اشتد قلقى لدرجة تجمعت معها قواى. ولما كانت القاعة السفلى على ما يبدو هى المكان الذى اتوقع أن أتلقى عنده الأخبار الاولى عن كلا الأخوين ، فقد نزلت اليها . ورقعت أنظارى أول ما وقعت على سميراند ، ولحظت من هدوء وجهها انها لا تدرك شيئا عن الموضوع . وقد أمرت باعداد طعام العشاء كالمعتاد ، وكانت أدوات طعام الأخوين فى مكانهما .

ولم أجرؤ على الاستفسار من أى انسان . ومن عساى أسأل على أية حال ؟ فلم يكن فى القصر من يتكلم أيا من اللغتين اللتين أتكلم بهما وكنت أرتجف لأقل صوت أسمعه .

كان من المعتاد أن نجلس الى المائدة فى الساعة التاسعة لتناول طعام العشاء . وقد نزلت فى الساعة الثامنة والنصف ، وأخذت أتبع بناظرى عقرب الدقائق الذى يبدو بوضوح وهو يدور على وجه ساعة الحائط . وعبر العقرب الدوار المسافة التى تفصله عن ربع الساعة . ودقت الساعة دقة الربع ، برنين أجوف يثير الشجن . وواصل العقرب دورانه الصامت ، ورأيته يجتاز ثانية المسافات ببطء وانتظام .

وقبل التاسعة ببضع دقائق خيل الى اننى أسمع صوت حوافر جواد فى الفناء . وسمعت سميراند الصوت ، لأنها أدارت رأسها ناحية النافذة ، ولكنها لم تستطع أن ترى شيئا لشدة الظلام .

أوه ! انها لو نظرت الى فى هذه اللحظة ، لاستطاعت أن تخمن ما كان يصطرع فى نفسى من الانفعالات . ولم نسمع سوى دبيب اقدام جواد واحد . وكانت المسألة عندى بسيطة ، اذ كنت على يقين من أنه لن يعود الا فارس واحد ، ولكن أى الفارسين ؟

وارتفع دبيب خطوات فى الردهة المجاورة ، خطوات بطيئة ، ولكنها ثقيلة على قلبى .

وانفتح الباب ، ورأيت ظلا ينتصب وسط الظلام . وتوقف الظل لحظة عند الباب ، وتوقفت دقات قلبى . وتقدم الظل، وأقبل حتى دخل فى دائرة النور .. فتنفست الصعداء .. لأنى عرفته، جريجوريسكا . لو طال عذابى لحظة أخرى لانفجر قلبى . انه جريجوريسكا ، شاحب الوجه كالموتى . وكان من السهل التخمين بنظرة واحدة ، ان شيئا رهيبا قد حدث .

سألته سميراند : أهذا أنت يا كوستاكى ؟

فأجاب جريجوريسكا بصوت أجوف : كلا يا أماه ..

ـ آه ! هذا أنت . ومنذ متى تضطر أمك الى انتظارك ؟

فقال جريجوريسكا وهو يلقى بنظرة الى عقرب الساعة : الساعة لم تتجاوز التاسعة يا أماه .

وبالفعل دقت الساعة فى نفس اللحظة التاسعة .

فقالت سميراند : هذا صحيح . أين أخوك ؟

وعلى الرغم منى ، خطر لى أن هذا هو نفس السؤال الذى وجهه الرب الى قابيل . ولم يجب جريجوريسكا .

وسألت سميراند : ألم ير أحدكم كوستاكى ؟

فأجاب رئيس الخدم ، ذهب الكونت فى حوالى الساعة السابعة الى الاسطبلات وأسرج جواده بنفسه ، ورحل فى اتجاه هانجو .

وفى هذه اللحظة تلاقت عيناى بعينى جريجوريسكا . ولم أدر ما اذا كان ما رأيته حقيقة أم وهما ، فقد خيل الى انى أرى نقطة دم وسط جبهته .

ورفعت اصبعى الى جبهتى ، مشيرة الى الموضع الذى ظننت ان هذه البقعة موجودة فيه . وفهم جريجوريسكا ، فتناول منديلا ومسحها .

وتمتمت سميراند : نعم ، نعم ، ربما قابل دبا أو ذئبا فتسلى بمطاردته ، ومن أجل هـــــذا تنتظر الأم ابنها . اين تركته ياجريجوريسكا ؟ تكلم .

فأجاب جريجوريسكا بصوت منفعل ولكنه ثابت : يا أمى ، لم نرحل معا ، انا وأخى .

ــ حسن ! لنقدم الطعام ونجلس الى المائدة ، ونغلق الأبواب، وليقض من بالخارج ليلته بالخارج .

ونفذ الشطران الأولان من الأمر تنفيذا تاما ، فجلست سميراند فى مكانها ، وجلس جريجوريسكا الى يمينها ، وجلست أنا الى يسارها . وخرج الخدم لتنفيذ الأمر الثالث ، أى لغلق أبواب القصر .

وفى هذه اللحظة سمعنا لغطا شديدا فى الفناء ، ودخل أحد الخدم الى القاعة فى هلع وقال : أيتها الأميرة ، لقد عاد جواد الكونت كوستاكى الى الفناء وحده وهو مغطى بالدماء .

فنهضت سميراند ممتقعة الوجه وتمتمت فى غضب : أوه ! هكذا عاد جواد أبيه ذات مساء .

وأرسلت نظرى الى جريجوريسكا : لم يعد لونه شاحبا ، بل امسى داكنا ــ والواقع كان جواد الكونت كوبرولى قد عاد ذات مساء الى فناء القصر مغطى بالدماء ، وبعد ساعة وجد الخدم جثته ، مثخنة بالجراح ، فأحضروها الى القصر ــ وتناولت سميراند مشعلا من يد أحد الخدم ، وتقدمت نحو الباب وفتحته ونزلت الى الفناء ، وكان ثلاثة أو أربعة من الخدم قد قبضوا على عنان الجواد المذعور وبذلوا جهدهم فى تهدئته . وتقدمت سميراند من الحيوان ونظرت الى الدم الذى يلطخ السرج ، ولمحت جرحا فوق جبهته فقالت : قتل كوستاكى من الامام فى مبارزة ، قتله عدو واحد . ابحثوا يا أولاد عن جثته ، وسنبحث فيما بعد عن القاتل .

ولما كان الجواد قد دخل من باب هانجو ، فقد اندفع الخدم كلهم من هذا الباب . ورأينا مشاعلهم تتفرق فى الخلاء وتخترق الغابة ، وتتلألأ كما تتلألأ الحشرات البراقة فى أمسية الصيف الجميلة فى سهول نيس وبيرز .

وبدا على وجه سميراند الثقة بأن البحث لن يطول ، اذ بقيت واقفة عند الباب تنتظر . ولم تسقط دمعة واحدة من عين تلك

الأم الثكلى . ومع ذلك شعرت بأنين اليـأس الذى استولى على أعماقها .

ووقف جريجوريسكا خلفها ، ووقفت أنا بالقرب من جريجوريسكا ، وكان يريد أن يقدم لى ذراعه عند مغادرته القاعة ، ولـكنه لم يجرؤ على ذلك . وبعد قرابة ربع الساعة ، أبصرنا مشعلا يظهر عند منحنى الطريق ، ثم مشعلين ، ثم المشاعل كلها ، ولم تكن هـذه المرة مبعثرة فى الخلاء ، بل كانت متجمعـة حـول مركز واحد . وأمكن بعد هنيهة تمييز هـذا المركز ، اذ كان محفـة عليها رجل ممدد . وتقدم الموكب الجنائزى على مهل ، ولـكنه كان يتقدم على أى حال . وبعد ست دقائق أمسى أمام الباب . وتقدم بالفريزة أولئك الذين يحملون المحفـة حين أبصروا الأم الحية فى انتظار ابنها الميت ، وبرزوا من بين الآخرين ، ودخلوا الفنـاء فى هدوء . وتبعتهم سميراند ، ونحن فى أعقابها ، ووصلنا على هذا النحو الى القاعة الـكبرى حيث وضعت الجثة . وباشارة ملؤها العظمة والجلال أبعدت سميراند كل الحاضرين واقتربت من الجثة وركعت بجانبها على ركبتيها ، وأزاحت الشعر الذى يغطى كالحجاب وجه الميت ، وتأملته بعينين جافتين برهـــة طويلة ، ثم فتحت رداءه المولدافى وأزاحت القميص المبلل بالدم .

كان الجرح على الجانب الايمن من صدره ، ولا بد أن يكون قد نتج من طعنة نصل مستقيم ذى حدين قاطعـين . وتذكرت أننى رأيت فى اليوم نفسه الى جانب جريجوريسكا خنجر الصيد الطويل الذى يثبت على البندقية . وبحثت بنظرى عن هـذا السلاح الى جانبه ، ولـكنه لم يكن موجودا .

وطلبت سميراند ماء ، بللت منديلها به وغسلت الجرح ، فانبثق الدم حارا صافيا يصبغ شفرتى الجرح باللون الاحمر . وكان فى المنظر الذى أراه أمامى قسوة وجلال فى وقت واحد : فهـذه الغرفة الفسيحة المضاءة بمشاعل الراتنج ، والوجوه الهمجيـة والاعين التى تبرق بالوحشية ، والثياب الغريبة ، والأم التى كانت على مرأى الدم الذى ما زال يتدفق دافئا تحسب الوقت الذى انقضى منذ أن سلب الموت ابنها ، وهـذا السكون المطبق الذى

لا يعكره الا زفرات هؤلاء اللصوص الذين كان كوستاكى زعيمهم. كل ذلك كان ، كما ذكرت ، قاسيا وجليلا فى وقت واحد .

وأخيرا أدنت سميراند شفتيها من جبين ابنها ، ثم اعتدلت وأزاحت الى الخلف ضفائر شعرها الطويل الابيض التى تهدلت .

وقالت : جريجوريسكا !

وارتعد جريجوريسكا ، وهز رأسه ، وانتزع نفسه مما أصابه من تخاذل ، وأجاب :

– أمى ؟

– تعال هنا يا ولدى واصغ الى .

وأطاع جريجوريسكا مرتجفا . وكلما اقترب من الجثة أخذ الدم المتدفق من جرحه يزداد غزارة وحمرة . ولحسن الحظ لم تكن سميراند تنظر من تلك الناحية ، لأنها لو فعلت ذلك لكان مشهد الدم ، هو دليل اتهام كاف يغنيها عن البحث عن القاتل.

قالت : جريجوريسكا ، أعلم تماما أنك وكوستاكى لم تكونا مطلقا متحابين ، فأنت من سلالة « وايفادى » عن أبيك ، وهو « كوبرولى » عن أبيه ، ولكنكما ، من سلالة برانكوفان عن أمكما ، وأعلم أيضا أنك من أهل مدن الغرب ، وهو من أبناء جبال الشرق ، ولكنكما مع ذلك اخوان من البطن الذى حملكما حسن ! أريد أن أعرف ياجريجوريسكا اذا كنا سنحمل رفات ابنى الى جوار أبيه قبل أن نؤدى القسم ، وما اذا كان بوسعى أن أبكى فى هدوء ، بكاء امرأة تعتمد عليك ، على رجل يقتص لأخيه!

– اذكرى لى يا أمى اسم قاتل أخى ، واصدرى أمرك ، وأنا أقسم لك أنه سوف يموت قبل مضى ساعة ، اذا طلبت منى ذلك.

– أقسم ياجريجوريسكا ، أقسم ، والا نزلت بك لعنتى ! أتسمع هذا يا ابنى ؟ اقسم ان القاتل سوف يموت ، وانك لن تترك فى بيته حجرا فوق حجر ، وان أمه وأولاده واخوته وزوجته أو خطيبته سوف يبيدون على يديك ، أقسم واستنزل عليك لعنة السماء اذا قصرت فى تنفيذ هذا القسم المقدس ، فان توانيت ، فعليك ان تستسلم الى البؤس والشقاء ، ونقمة الاصدقاء ، ولعنة أمك .

وبسط جريجوريسكا يده فوق الجثة وقال : اقسم أن القاتل سوف يموت .

وأمام هذا القسم العجيب الذى كنت أنا ، وربما الميت أيضا الوحيدين اللذين يدركان مضمونه الحقيقى ، رأيت ، أو توهمت اننى أرى معجزة رهيبة ، رأيت عينى الميت تنفتحان وتستقران على ، وهما أشد حيوية من أى وقت رأيتهما فيه ، وشعرت كأن الشعاع الصادر منهما ينبض وينفذ الى قلبى كأنه قطعة ملتهبة من حديد . وكان هذا فوق ما أحتمل فأغمى على .

ديرهانجو



(١٥) دير هانجو

ولما استيقظت ، كنت فى غرفتى ، مستلقية على سريرى ، واحدى النساء ساهرة بجوارى . وسألتها عن سميراند ، فأجابت بأنها ساهرة بالقرب من جثة ابنها . وسألت عن جريجوريسكا فأجابت بأنه فى دير هانجو .

ولم تعد هناك ضرورة للفرار . ألم يمت كوستاكى ؟ ولم يعد ثمة مجال للزواج ، فهل فى مقدورى أن أتزوج قاتل أخيه ؟ وهكذا انصرمت ثلاث ليال وثلاثة أيام ، وأنا فى أحلام عجيبة . كنت أرى دواما ، فى اليقظة والمنام ، هاتين العينين الساطعتين ، وسط ذلك الوجه الميت . وياله من منظر مخيف !

وكان اليوم الثالث هو الموعد المحدد لدفن كوستاكى . وفى صباح ذلك اليوم أحضر لى بعضهم ، من قبل سميراند ، حلة كاملة لأرملة فارتديتها ونزلت .

وبدا المنزل خاويا ، اذ كان الجميع بالكنيسة ومضيت الى مكان الاجتماع ، وبينما أنا أجتاز المدخل ، رأيت سميراند التى لم أرها منذ ثلاثة أيام ، تجتاز المدخل هى أيضا وتقبل نحوى . وبدت كتمثال يجسم الألم ، وبحركة بطيئة كحركة التمثال ، وضعت شفتيها الباردتين على جبينى ، وبصوت كأنه خارج من قبر نطقت بالعبارة المألوفة :

« كوستاكى يحبك » .

وليس فى الامكان أن تتصوروا مقدار الأثر الذى أحدثته فى نفسى هذه الكلمات . فهذا التصريح بالحب ، بالزمن الحاضر بدلا من الماضى ، هذه العبارة « يحبك » بدلا من « كان يحبك » ، هذا الحب الصادر من خلف القبور ، والذى جاء يبحث عنى

فى دنيا الحياة ، أثار فى نفسى شعورا رهيبا .

وفى الوقت نفسه تملكنى شعور غريب بأننى فى الواقع زوجة ذلك الذى مات ، لا خطيبة ذلك الذى لم يزل على قيد الحياة . كان لخده يجذبنى ، على الرغم منى ، ويؤلمنى ، مثلما تجذب الحية ، كما يقول البعض ، الطائر الذى تسحره .

وبحثت عيناى عن جريجوريسكا ، ولمحته مستندا الى عمود وهو ممتقع الوجه ، وعيناه تحدقان فى السماء ، ولم أستطع أن أتأكد مما اذا كان يرانى . وكان رهبان دير هانجو ملتفين بالجثة ، يرتلون الصلوات حسب طقوسهم اليونانية ، بنغمات متوافقة أحيانا ، ونغمة رتيبة فى أغلب الأحيان . وأردت أن أصلى معهم. ولكن الصلاة تلاشت على شفتى ، فقدكانت نفسى مضطربة حتى لقد توهمت اننى أشهد طائفة من الشياطين، لا جمعا من القساوسة.

وعندما رفعوا الجثة ، أردت أن أتبعها ، ولكن قواى خانتنى . وشعرت بأن ساقى تموتان تحتى ، فاستندت الى الباب. وعندئذ أقبلت سميراند نحوى وأشارت الى جريجوريسكا ، فلبى الاشارة واقترب . وحدثتنى سميراند بالمولدافية ، فقال لى جريجوريسكا: تأمرنى أمى أن أترجم لك كلمة كلمة كل ما سوف تقوله .

وواصلت سميراند الحديث . ولما انتهت قال جريجوريسكا : انيك حديث أمى : أنت تبكين ابنى ياهدفيج ، كنت تحبينه . أليس كذلك ؟ اننى أشكر لك دموعك ، وأشكر لك حبك ، وسوف تكونين من الآن ابنتى كما لو كان كوستاكى زوجك . ان لك منذ اليوم وطنا وأما وأسرة . ولنذرف كل الدموع التى يجب أن يبذلها الانسان لموتاه ، ثم نصبح بعد ذلك ، جديرتين بذلك الذى لم يعد بيننا حيا ... أنا أمه ، وأنت زوجته ! الى اللقاء ! عودى الى مسكنك ، أما أنا فأشيع ابنى الى مقره الأخير ، وعند عودتى سأحبس نفسى مع آلامى ، ولن ترينى الا بعد أن أكون قد تغلبت عليها . اطمئنى ، فسأقضى على تلك الآلام ، لأنى لا أريد أن تقضى هى على .

ولم أستطع ان أرد على أقوال سميراند هذه التى ترجمها جريجوريسكا بأكثر من آهة . وصعدت الى غرفتى ، وابتعد

الموكب ، ورأيتـــــه يختفى فى زاوية الطريق . ولم يكن الخط المستقيم الذى يوصل بين دير هانجو وبين القصر يزيد طوله على نصف فرسخ ، ولـكن عوائق الارض ألزمت الطريق الانحنــاء والتعرج ، فأصبح القصر على بعد حوالى الساعتين . وكنا فى شهر نوفمبر ، وقد غدا النهـار بارداً وقصيرا ، والليــــل يغشى فى الساعة الخامسة .

وفى حوالى الساعة السابعة ظهـرت الشموع ثانية دلالة على عودة الموكب الجنائزى . لقد رقدت الجثة فى قبر آبائها ، وتم تنفيذ كل ما قيل .

ذكرت لـكم ذلك الوســواس الغريب الذى لازمنى منذ الحادث المشئوم الذى ألبسنا جميعا السواد ، وبخاصة منـــذ أن رأيت عينى الميت المغلقتين تتفتحان وتحملقان فى وجهى . وفى ذلك المساء اشتـد حزنى تحت وطأة انفعالات اليوم ، وأخـذت أنصت الى ساعة القصر الـكبيرة تدق الساعات المتتابعة ، وازداد احســاسى بالحزن كلما مر الوقت واقتربت اللحظة التى لقى فيها كوستاكى حتفه .

وسمعت الساعة تدق التاسعة الا ربعا ، وعندئذ استـبد بى شعور غريب ، وتملـكنى رعب جعلنى ارتجف من أعلى رأسى الى اخمص قدمى ، ومع الرعب شىء كالنعاس الثقيل الذى لايقاوم ، ضاق له صـدرى ، وتغشت منه عيناى، فمددت ذراعى وتقهقرت حتى ارتميت على فراشى . ومع ذلك لم تتعطل حواسى بالـكلية للدرجة التى لا أسمع معها وقع خطوات تقترب من بابى. وخيل الى أن بابى ينفتح ، ثم لم أر ولم اسمع شيئا ، ولم أشعر الا بألم حاد فى عنقى رحت بعده فى سبات عميق .

واستيقظت فى منتصف الليل وما زال مصباحى مشتعلا، واردت أن أنهض ، ولـكنى كنت ضعيفة للغاية حتى لقد حاولت النهوض مرتين ، الا أننى تقلبت على هـذا الضعف . واذ كنت مستيقظة فقد أحسست فى رقبتى بنفس الألم الذى احسست به اثنــاء نعاسى . وجررت نفسى متكئة على الحائط حتى وصلت الى المرآة ونظرت الى صورتى فيها ، ولاحظت شيئا كوخز الابرة على شريان

العنق . وحسبت أن حشرة لدغتنى أثناء نومى ، ولما كنت فى أشد حالات التعب فقد رقدت ونمت .

وفى اليوم التالى اسيقظت كالمعتاد ، وأردت أن أنهض كعادتى عندما تتفتح عيناى ، ولكنى شعرت بضعف لم أشعر به الا مرة واحده فى حياتى ، وكان ذلك فى اليوم التالى ليوم استنزف فيه بعض دمى .

واقتربت من مرآتى ، وهالنى شحوبى .

ومر النهار كئيبا قاتما ، وانتابنى شعور غريب : شعرت بالحاجة الى أن أستريح أينما ذهبت ، فقد كنت أتعب من أية حركة . وأقبل الليل ، وأحضرت الخادمتان المصباح ، وفهمت من اشارتهما انهما يعرضان البقاء بالقرب منى ، ولكنى شكرتهما ، فخرجتا .

وفى نفس الساعة ، حدث ما حدث بالامس ، وشعرت بنفس الاعراض ، فأردت أن أنهض وأستغيث ، ولكنى لم أستطع الوصول الى الباب ، وسمعت بغير وضوح ساعة القصر تدق التاسعة الا الربع ، ودبيب أقدام ، وانفتح الباب ، ولكنني لم أر ولم أسمع شيئا. وكما حدث بالامس ، تهاويت على سريرى ، وشعرت بألم حاد فى نفس الموضع . وكما حدث بالأمس أيضا استيقظت فى منتصف الليل ، أكثر ضعفا وأشد شحوبا منى بالأمس .

وفى اليوم التالى ، تجدد الوسواس الرهيب . وكنت قد عقدت العزم على النزول الى جوار سميراند ، على ما كنت أعانيه من ضعف ، حين دخلت احدى الخادمتين الى غرفتى ونطقت باسم جريجوريسكا . وأقبل جريجوريسكا خلفها . وأردت أن أنهض لاستقباله ، ولكنى سقطت ثانية فى مقعدى . وصاح عندما رآنى ، وهم بالاندفاع نحوى ، ولكنى استجمعت قواى ، ومددت ذراعى نحوه وسألته : ماذا جئت تفعل هنا ؟

فقال : وا حسرتاه ! جئت أودعك ! جئت لأقول لك اننى سوف أغادر هذا العالم الذى أصبحت لا أطيقه من غير حبك ووجودك ، جئت أقول لك اننى سوف اعتكف فى دير هانجو .

فقلت له : لقد حرمت وجودى ياجريجوريسكا ، ولكنك لم تحرم حبى . وا أسفاه ! مازلت أحبك أبدا ، وأتألم لأن حبى لك أصبح منذ اليوم اثما .

ـ اذن ، هل آمل ياهدفيج أن تصلى من أجلى ؟

فأجبت مبتسمة : نعم ، ولكنى لن أصلى طويلا .

ـ ماذا بك حقا ؟ ولماذا أنت شاحبة الى هذه الدرجة ؟

ـ ما بى .. ليرحمنى الله ويدعونى الى جواره .

واقترب منى جريجوريسكا ، وتناول يدى فلم أقو على سحبها من يده ، وقال وهو ينظر الى بثبات : هـذا الشحوب ليس طبيعيا ياهدفيج ، فما سببه ؟

ـ اذا قلت لك السبب ياجريجوريسكا ، فستظن أن بى مستا من الجنون .

ـ لا ، لا ، قولى ياهدفيج ، أتوسل اليك ، اننا فى بلد يختلف عن أى بلد آخر ، واسرة لا مثيل لها . قولى ، قولى كل شىء ، أتوسل اليك .

فحكيت له كل شىء : هذا الوسواس الغريب الذى ينتابنى فى الساعة التى مات فيها كوستاكى ، وذلك الرعب والخمول والبرود الثلجى والوهن الذى يلزمنى الفراش ، ودبيب الأقدام الذى أعتقد انى سمعته ، والباب الذى توهمت اننى رأيته ينفتح ، وأخيرا ذلك الألم الحاد الذى يعقبه ضعف وشحوب يستفحلان يوما بعد يوم .

وظننت أن جريجوريسكا سوف يرى فى قصتى هذه تباشير الجنون ، وقد أكملت حكايتها بشىء من الخجل ، ولكنى لاحظت انه أصغى اليها بانتباه شديد . ولما توقفت عن الكلام فكر برهة ثم سألنى : وهكذا تنامين كل مساء فى الساعة التاسعة الا الربع ؟

ـ نعم ، على الرغم من المحاولات التى أبذلها فى مغالبة النعاس .

ـ وتعتقدين اذن انك ترين الباب وهو ينفتح ؟

ـ نعم ، على الرغم من اننى أغلقه بالمزلاج .

ـ وتشعرين بألم حاد فى العنق ؟

ـ نعم ، مع ان عنقى لا يكاد يحتفظ بأثر لجرح .

– أتسمحين لى أن أراه ؟

وحنيت رأسى على كتفى ، ففحص الندبة وقال بعد لحظة :

– هدفيج ، أتثقين بى ؟

فأجبته : أتطلب منى ذلك ؟

– هل تثقين بما أقول ؟

– كما أثق بكلام القديسين .

– حسن ياهدفيج ! أقسم لك بشرفى انك لن تعيشى ثمانية أيام اذا لم توافقى على أن تفعلى منذ اليوم ما سأقوله لك .

– واذا وافقت ؟

– ربما تنجين .

– ربما ؟

فسكت .

– مهما يحدث ياجريجوريسكا . فسوف أفعل ما تأمرنى به .

– حسن ! أنصتى ، ولا تخافى . فى بلادكم ، كما فى هنغاريا، وكما فى بلادنا ، رومانيا ، تقاليد .

وارتجفت ، فقد تذكرت هذه التقاليد .

– آه ! أتعلمين ما سوف أقوله ؟

– نعم ، رأيت فى بولندة بعض الاشخاص الذين عانوا هـــذا المصير الرهيب .

– تقصدين مصاصى الدماء ؟

– نعم ، ففى طفولتى شهدت فى مقابر قرية من ضياع أبى ، استخراج أربعين جثة لأشخاص ماتوا خلال خمسة عشر يوما دون أن يعلم أحد سببا لموتهم ، فظهر على سبع عشرة جثة منها علامات مص الدماء ؟ أى ان جثثهم تلك كانت سليمة ، قرمزية اللون ، كالأجساد الحية أما الجثث الاخرى فـكانت ضحايا الاولى .

– وماذا فعلتم لتخليص البلاد من شرهم ؟

– رشقت سهام فى قلوبهم ، ثم أحرقوا .

– نعم ، هذا هو الاجراء المعتاد اتخاذه ، ولـكنه لايكفى عندنا. فلـكى أخلصك من الشبح ، يجب أن أعرف اولا من هو، وسوف أعرفه بحق السماء ، وأقاتله وجها لوجه اذا اقتضانى الأمر، ومهما كانت شخصيته .

فصحت مرتعبة : آه ! ياجريجوريسكا !

ـ أقول « مهما كانت شخصيته » ، وأكرر لك هذا القول . ولكى نبلغ بهذه المغامرة غايتها ، يجب أن توافقى على كل ما اطلبه منك .

ـ قل ..

ـ كونى مستعدة فى الساعة السابعة . انزلى الى الكنيسة ، انزلى اليها بمفردك . ويجب ياهدفيج أن تتغلبى على ضعفك ، يجب عليك ذلك . وهناك نتزوج ، ونتلقى بركة الزواج .. وافقى على ذلك ياحبيبتى ، فانه يجب ، لكى أدافع عنك ، أن أملك حق حمايتك أمام الله وأمام النـــاس .. ثم نعود بعد ذلك الى هنا ، ونرى ما سوف يحدث .

فصحت : اوه ياجريجوريسكا ، اذا كان هو ... فسوف يقتلك.

ـ لا تخشى شيئا ياحبيبتى هدفيج ، ما عليك الا أن توافقى .

ـ انت تعلم اننى سوف أفعل كل ما تريد ياجريجوريسكا .

ـ اذن الى اللقاء هذا المساء .

ـ نعم ، افعل انت كل ما تريد ، وسأتبعك على قدر ما أستطيع ، هيا .

وخرج ، وبعد ربع ســـاعة أبصرت فارسا ينطلق فى طريق الدير . كان هو . ولم يكد يختفى عن ناظرى حتى ركعت على ركبتى وأخذت أصلى صلاة لا يؤديها أحد فى بلادكم التى لا تعرف الايمان . وانتظرت الساعة السابعة . ووهبت أفكارى قربانا الى الله والقديسين ، ولم أنهض الا حين دقت الساعة السابعة .

كنت ضعيفة ، ضعف المحتضر ، وشاحبة ، شحوب الموتى . وألقيت على رأسى وشـاحا كبيرا أسود ، ونزلت على الدرج ، مستندة الى الحوائط ، وتوجهت الى الكنيسة دون أن أقابل أحدا.

وكان جريجوريسكا ينتظرنى مع الأب « بازيل » رئيس دير هانجو ، يحمل الى جانبه سيفا مقدسا من مخلفات أحد الصليبيين الذين استولوا على القسطنطينية مع فيلهـا ردوين ، وبدوين الفلاندرى .

وقال لى جريجوريسكا وهو يضرب بيده على سيفه : هدفيج ، هـذا ما سوف يبدد بعون الله السحر الذى يتهدد حيـاتك . اقتربى اذن ولا ترددى ، فهذا رجل مقدس ، سمع اعترافى ، وسيتلقى قسمنا .

وابتدأت مراسيم الزواج ، واعتقـد أنه لم يكن هناك ما هو أبسط منها وأكثر جلالا . ولم يكن أحـد يعاون الـكاهن الذى وضع بيـده أكاليل الزواج على رءوسـنا . ودرنا دورة حول المحراب ، ونحن مرتدون ثياب الحداد ، وبيـد كل منا شمعدان ولما قرأ القسيس الآيات المقدسة ، أردف قائلا : اذهبا الآن يا ولدى ، وليمنحكما الله قوة وشجاعة لتقاتلا عدو البشر. انكما مسلحان بالبراءة والعدالة الالهية ، وسوف تنتصران على الشيطان نفسه . اذهبا وليباركـكما الرب .

وقبلنا الـكتاب المقدس وخرجنا من الـكنيسة .

ولأول مرة اعتمدت على ذراع جريجوريسكا . وشـعرت كأن الحياة قد دبت من جديد فى عروقى ، بملامسة هـذه النفس النبيلة والساعد القوى . وتيقنت من النصر ، ما دام جريجوريسكا معى . وصعدنا الى غرفتى . ودقت الساعة الثامنة والنصف . وعندئذ قال لى جريجوريسكا :

ـ هدفيج ، ليس لدينا وقت نضيعه . أتريدين أن تنامى كالمعتاد فيجرى كل شىء خلال نومك ، أم تريدين أن تبقى مرتدية ملابسك فتشاهدى كل ما يحدث ؟

ـ اننى لا أخشى شيئا ما دمت قريبة منك ، وأريد أن أظل يقظة حتى أرى كل شىء .

وأخرج جريجوريسكا من صـدره قطعة من نبات « البقس » المقدس ،ما زالت مبللة بالماء المقدس ، وأعطانيها ، وقال :

ـ خذى هذا الفصن وارقدى فى فراشك ، وابتهلى الى العذراء ، وانتظرى دون خوف . ان الله معنا . واياك أن تسقطى هـذا الفصن ، فمعه تسيطرين على الجحيم . لا تنادينى ولا تصيحى . صلى ، وغذى نفسك بالأمل ، وانتظرى .

ورقدت فى سريرى ، ووضعت يدى متقاطعتين فوق صدرى، ومعهما الفصن المقدس .

أما جريجوريسكا فانه اختبأ خلف الاريكة التى حدثتكم عنها ، والتى تشغل ركنا فى غرفتى .

ورحت أحصى الدقائق . ولا شك ان جريجوريسكا كان يعدها هو الآخر . ودقت ثلاثة أرباع الساعة . وبينما كانت المطرقة ترن ، شعرت بنفس الخدر والفزع والبرودة الثلجية تفشانى ، ولكنى أدنيت الغصن المقدس من شفتى ، فتلاشى ذلك الشعور الأول .

وعندئذ سمعت بوضوح دبيب الآقدام البطىء المتزن الذى أخذ يتقدم فى السلم ويقترب من بابى ، ثم أخذ الباب ينفتح ببطء وبلا ضوضاء ، كأن قوة خارقة تدفعه ، وعندئذ ...

وانقطع الصوت ، وكأنه اختنق فى حنجرة الراوية . ثم تابعت الحديث بعد عناء : وعندئذ لمحت كوستاكى ، شاحب الوجه ، كما كان وهو فوق المحفة ، وشعره الطويل الاسود المتهدل على كتفيه ملطخ بالدماء ، يرتدى سترته العادية ، ولكنها كانت مفتوحة عند صدره تكشف عن جرحه الدامى .

كان كل ما فيه ميتا : الجثة واللحم والثوب والمشية .. أما عيناه ، عيناه فقط ، العينان المخيفتان ، فكانتا تشعان بالحياة .

والعجب العجاب ، اننى أمام هذا المنظر ، شعرت بشجاعتى تزيد بدلا من أن يزداد رعبى. ولا بد ان الله قد ارسله لأتمكن من تقدير موقفى وأدافع عن نفسى ضد الجحيم . وتقدم الشبح خطوة من سريرى ، فنظرت بثبات فى عينيه ، وواجهته بالغصن المقدس . وحاول الشبح أن يتقدم ، ولكن قوة أشد من قوته أوقفته فى مكانه . فوقف وتمتم : أوه ! انها غير نائمة ، وتعرف كل شىء . وكان يتكلم بالمولدافية ، ومع ذلك خيل الى اننى سمعت هذه العبارة بلغة أفهمها .

كنا هكذا ، أنا والشبح ، يواجه احدنا الآخر ، دون أن استطيع انتزاع عينى من عينيه . عند هذا رايت جريجوريسكا — ولم تكن بى حاجة الى لفت رأسى ناحيته حتى أراه — رأيته يخرج

من خلف الأريكة الخشبية ، كملاك الموت ، قابضا على سيفه ، فرسم علامة الصليب بيده اليسرى ، وتقدم ببطء وسيفه ممدود نحو الشبح . ولما رآه أخوه ، استل هو الآخر سيفه ، وأطلق ضحكة رهيبة . على ان الشبح ماكاد سيفه يلمس السيف المقدس حتى سقط ذراعه بلا حراك بالقرب من جسده .

وصدرت من كوستاكى آهة مفعمة بالصراع واليأس، وقال لأخيه:
– ماذا تريد ؟
– باسم الله الحى ... أستحلفك أن تجيبنى ..

فقال الشبح وهو يصر على أسنانه : تكلم .
– هل أنا الذى انتظرتك ؟
– لا ..
– هل أنا الذى هاجمتك ؟
– لا ..
– هل أنا الذى ضربتك ؟
– لا ..

– لقد ألقيت بجسمك على سيفى . هذا كل ما حدث . وعلى ذلك فلست أمام الله وأمام الناس المجرم الذى قتل أخاه . انك لم تتلق رسالة الهية ، بل شيطانية ؟ وقد خرجت من قبرك ، لا كطيف مقدس ، ولكن كشبح ملعون ، فعد الى قبرك.

وصاح كوستاكى ، وهو يبذل جهدا شديدا لامساكى : نعم ، معها !

وصاح جريجوريسكا بدوره : بل عد وحدك، فهذه المرأة تخصنى

ولمس الجرح الدامى بسن السلاح المقدس . فصرخ كوستاكى كأن سيفا من نار قد لمسه ، وخطا خطوة الى الوراء رافعا يده اليسرى الى صدره . وفى نفس الوقت تقدم جريجوريسكا خطوة الى الأمام بحركة تماثل حركة أخيه . وعندئذ بدات مسيرة بطيئة رهيبة ، وقد ثبتت عينا جريجوريسكا على عينى الميت ، كما ثبت سيفه على صدره – مسيرة كمسيرة دنوجوان والأمير – وجعل الشبح يتقهقر تحت ضغط السيف المقدس وأمام ارادة لا تقاوم ، ارادة المجاهد فى سبيل الله ، ذلك الذى كان يتعقبه خطوة خطوة

دون أن ينطق حرفا واحدا . وطفق الاثنان يلهثان وهما شاحبا الوجه ، الحى يدفع أمامه الميت ، ويرغمه على ترك القصر الذى كان فيما مضى سكنا له ، والعودة الى القبر الذى أصبح مثواه فى الحاضر والمستقبل . وأقسم لكم ان المنظر كان مخيفا للغاية.

ومع ذلك وجدت نفسى بتأثير قوة علوية خفية ، ودون أن أدرك ما أفعل ، قد نهضت وتبعتهما . ونزلنا السلالم التى لم يكن يضيئها الا حدقتا كوستاكى الملتهبتان ، واجتزنا بهذه الصورة السرداب ثم الفناء . وعبرنا الباب بنفس الخطوة المنتظمة : الشبح يتقهقر وجريجوريسكا باسط ذراعه ، وأنا أتبعهما . واستمر هذا السير الاستعراضى ساعة زمنية كاملة ، فقد كان من الضرورى اعادة الميت الى قبره . غير انه بدلا من السير فى الطريق المعتاد، قطع كوستاكى وجريجوريسكا المسافة فى خط مستقيم ، غير عابئين بالعقبات التى لم يعد لها وجود ، اذ استوت الارض تحت أقدامهما ، وجفت السيول ، ومالت الاشجار ، وتباعدت الصخور. وحدثت معى نفس المعجزة ، وفضلا على ذلك خيل الى ان السماء كلها احتجبت بستار أسود ، والقمر والنجوم اختفت ، ولم أعد أبصر فى دياجير الليل سوى اللهب الذى يشع من مصاص الدماء .

ووصلنا بهذه الصورة الى هانجو ، واجتزنا سياج الشجيرات التى كانت تحيط بالجبانة ، وما كدنا ندخلها حتى لمحت فى الظلمة قبر كوستاكى بجوار قبر أبيه . لم أكن أعرف مكانه ، ولكنى مع ذلك تعرفت عليه . وفى تلك الليلة عرفت كل شىء

ووقف جريجوريسكا على حافة القبر المفتوح وقال :

ـ كوستاكى ، لم ينته كل شىء بالنسبة اليك . ان صوتا من السماء يبشرنى بأنك سوف تنال الغفران اذا استغفرت : أتعدنى بالعودة الى قبرك ، وألا تخرج منه أبدا ؟ أتعدنى بأن تتعبد الى الله بقدر ما تعبدت الى الشيطان ؟

فأجاب كوستاكى : لا !

ـ ألا تستغفر ؟

ـ لا !

ـ للمرة الأخيرة يا كوستاكى ؟

ـ لا !

ـ حسن ! استجر بابليس ، وسأستجير انا بالله ، وسنرى فى هذه المرة أيضا ، لمن تكون الغلبة .

وارتفعت صيحتان فى وقت واحد ، وتقاطع السيفان ، وسطع من احتكاكهما الشرر ، واستمرت المعركة دقيقة واحدة خلتها قرنا من الزمان . وسقط كوستاكي ورأيت السيف المقدس الرهيب يرتفع ثم يغوص فى بدنه ، ويسمر الجسد فى الارض التى قلبت تربتها حديثا ، وارتفعت فى الجو صيحة هائلة لا تمت الى طبيعة البشر بصلة .

واندفعت بسرعة .

كان جريجوريسكا واقفا ولكنه كان يترنح ، فأسرعت اليه واسندته الى ذراعى .

وسألته بلهفة : هل أنت جريح ؟

ـ لا ، ولكن فى مثل هذه المبارزة ، ياعزيزتى هدفيج ، ليس الجرح هو الذى يقتل ، ولكن المعركة نفسها هى القاتلة . لقد صارعت الموت ، فأصبحت من أتباعه .

فصحت : يا صديقى ، يا صديقى ، ابتعد ، ابتعد من هنا ، فلعل الحياة تعود اليك .

فقال : كلا ، هذا هو قبرى ياهدفيج . ولكن علينا الا نضيع وقتنا .. خذى قليلا من هذه التربة المبللة بدمه وضعيها على الموضع الذى عضك فيه ، فهذى هى الوسيلة الوحيدة التى تقيك فى المستقبل من غرامه البشع .

وامتثلت لطلبه وأنا أرتجف ، وانحنيت لألتقط التراب المبلل بالدم ، فرأيت الجثة مسمرة فى الارض ، وقد اخترق السيف المقدس قلبها ، وسال من الجرح دم اسود غزير ، وكأن الميت قد قضى منذ لحظة فقط ، وعجنت قليلا من التراب مع الدم ، ووضعت المعجون ، أو التميمة الرهيبة على جرحى .

فقال جريجوريسكا بصوت أكثر ضعفا : والآن ، يا معبودتى هدفيج ، اصغى جيدا الى تعليماتى الاخيرة . ارحلى عن هذا البلد فى أقرب وقت مستطاع . ان فى البعد وحده خلاصك . لقد تلقى الأب بازيل اليوم وصيتى الاخيرة ، وسوف يحققها. هدفيج !

اعطنى قبلة ، الوحيدة والاخيرة ياهدفيج ! اننى أموت... وما ان نطق جريجوريسكا بهذه الكلمات حتى سقط بجوار أخيه .

كان من المحتمل فى أى ظرف آخر ، وسط هذه الجبانة ، وبجوار هذا القبر الفاغر ، ومع هاتين الجثتين الراقدتين احداهما بجانب الاخرى ، أن أصاب بالجنون ، ولكن الله ، كما قلت منحنى قوة تواجه الأحداث التى لم أشهدها فحسب ، بل مثلت فيها أيضا .

وفىاللحظة التى بدأت فيها أتلفتحولى ، باحثة عن أية نجدة ، رأيت باب الدير ينفتح ويخرج منه الرهبان وعلى رأسهم الأب بازيل ، وجعلوا يتقدمون ، مثنى مثنى ، حاملين المشاعل ، يترنمون بأناشيد الموتى .

ووصل الأب بازيل من فوره الى الدير ، وكان قد تكهن بما سوف يحدث ، فتوجه الى الجبانة ومعه جماعة الدير كلهم . ووجدنى على قيد الحياة بجوار اثنين من الموتى . أما وجه جريجوريسكا فكان هادئا ، تعلوه شبه ابتسامة .

ودفن جريجوريسكا كما أوصى بالقرب من أخيه : فكأن المسيحى التقى يحمى الشرير الملعون . ولما علمت سميراند بهذه الفجيعة الجديدة ، وبالدور الذى لعبته فيها ، طلبت أن ترانى ، فأتت الى دير هانجو ، وسمعت عن لسانى كل ما حدث فى تلك الليلة الرهيبة ، ورويت لها كل دقائق تلك القصة العجيبة ، ولكنها أصغت الى كما أصغى الى جريجوريسكا دون أن يبدو عليها أى دهش أو فزع ، وبعد لحظة سكون قالت لى :

ــ هدفيج ، مهما كانت غرابة القصة التى رويتها لى الآن ، فانك لم تقولى مع ذلك الا الحقيقة الخالصة. ان سلالة برانكوفان ملعونة ، ملعونة حتى الجيل الثالث والرابع ، لأن أحد أفرادها قتل قسيسا . غير ان هذه اللعنة قد بلغت نهايتها ، لأنك مازلت عذراء ، رغم انك متزوجة ، أما أنا ، فانى خاتمة السلالة. واذا كان ابنى قد أوصى لك بالمليون ، فخذيه ، وسوف ترثين ثروتى ، باستثناء ما وصيت به للمنشآت الدينية . والآن ، اتبعى نصيحة زوجك. عودى بأقصى سرعة الى البلاد التى لايأذن الله فيها

بمثل هـــذه المعجزات الرهيبة . اننى لست فى حاجة الى من يشاركنى البكاء على ولدى . الوداع ، ولا تتقصى أخبـارى بعد الآن . ان مصيرى من شأنى ومن شأن ربى .

ولما قبلتنى كعادتها فى جبينى ، تركتنى وعادت لتحبس نفسها فى قصر برانكوفان . وانقضت ثمانية أيام ، سافرت بعدها الى فرنسا . وكما تمنى جريجوريسكا ، لم يعد الشبح يزورنى ليلا. وتحسنت صحتى ، ولم يبق لى أثر من هذا الحادث سوى هذا الشحوب الشبيه بشحوب الموتى ، الذي يلازم ، حتى القبـر ، كل مخلوق قبله واحد من مصاصى الدماء .

***

وسكتت السيدة ، ودقت الساعة مؤذنة بمنتصف الليل، وأقول دون تردد ان أشجع منَ فينا قد ارتجف عند سماع جرس الساعة وحان وقت الانصراف ، واستأذنا من السيد ليدرو .

وبعد عام توفى هذا السيد الجليل .

وهذى أول فرصة تتاح لى ، منذ وفاة هـذا السيد الجليل ، لأقوم بواجب التقدير لهذا المواطن الطيب ، والعـالم المتواضع ، والانسان الأمين ، وهأنذا أبادر الى القيام بهذا الواجب .

تمت

الفهرس

تنويه: هذا الفهرس ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى المواضيع .

م. سرمد حاتم شكر السامرائي

هــذه الرّوايــة

صاحب هذه الاشباح ، الكاتب القصصى العالمى الفرنسى الكسندر ديماس الاب ، كتب القصة التاريخية فابدع كتابتها ، ومزج فيها الواقع التاريخى بخيال الاديب القصصى المبدع ، فى أسلوب سلس ، وروح خفيفة جذابة ، فكان له انتاج ادبى فى هذا المضمار ، قل ان يضارعه فى الضخامة انتاج .

والكتابة فى الاشباح مطلب عسير ولكن مؤلف هذه الاشباح تعطف فدعانا الى رحلة صيد ، فى بعض ضواحى باريس . وشهد فى القرية التى زارها جريمة بشعة ، ضحيتها امراة من الريفيات . ويجتمع المؤلف ليلا مع جمع من الاعيان فى منزل العمدة ليسجلوا شهادتهم للحادث ، وبعدتناول طعام العشاء ، استقر المدعوون فى مقاعدهم في دار العمدة ، وبداوا يتحدثون . ولما كانت المناسبة رهيبة ، وجثة القتيلة ماثلة للانظار ، فقد توالت الاقاصيص المخيفة من افواه الجالسين ، كل يحكي غرائب ما سمعه من حكايات الموت والقتل والاعدام والارواح والاشباح. وبدات القصص بفظائع الثورة الفرنسية ، وافعال « المقصلة » الرهيبة وهى تضرب بسكينها الرءوس فتفصلها عن الاجساد .. ثم تتواتر بعد ذلك حكايات الاشباح وتطير بنا الاقاصيص الى جبال اوروبا وغاباتها وقصورها فنشهد صراع الامراء والنبلاء ، وقطاع الطرق ، ويسقط منهم من يسقط تحت ضربات السيوف وتنطلق ارواح الصرعى ترفرف على رءوس الاحياء ، تطلب الثار المحتوم ، ونحن فى هذه الجولة الرهيبة مع الرواة مشدودون الى الاحداث ، نستمتع بقوتها وجاذبيتها ، ولكننا نتلمس فكرة المؤلف التى تشيع فيها كلها .. فهو يندد بظلم الانسان وقوته ، ويقابل فى كل مناسبة بين روح الخير وروح الشر ، ولا بد فى كل قصة ان ينتصر الخير على الشر ، ويزهقه ، ويدفنه فى دنيا الاشباح .



الكسندر دوماس

الثمن ١٢ قــرشــا